

نص الكلمة

التي ألقاها وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد الداي ولد سيدي بابا بمسجد السنة بالرباط
بمناسبة الاحتفال بذكرى حلول السنة الهجرية الجديدة

1396

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم
وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان
الى يوم الدين

قال الله تعالى في محكم التنزيل :

((الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في
الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده
بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله
عزيز حكيم)) ، صدق الله العظيم .

أصحاب السعادة

أصحاب الفضيلة العلماء

حضرات السادة الكرام

في ظلال المعاني القدسية التي تبرزها هذه الآيات البينات ، نلتقي هنا ، على
هذا الصعيد الطاهر المثالي بأشراقات القرآن ، وأنوار الايمان .

نلتقي ، لنستجلي قبسا من دلالات الهجرة النبوية الشريفة ، التي أهلت
هذه الايام ، ذكرها المباركة العطرة ، عامرة المضمون ، خصبة الالهام ، قوية
الاشراق في نفس كل مؤمن ، وهادية رؤاه ، هذه الذكرى التي نحتفل بها في عالمنا
الإسلامي وقد دخل في السنوات الخمس الاواخر من القرن الرابع عشر من تاريخ
هذا الحدث الخالد .

نعم لقد كانت الهجرة ، حدث الفصل بين طورين كاملين من حياة الدعوة الحميدية .

طورين كاملين ومتكاملين بنفس القدر ، اتسم أولهما بالصمود والمثابرة والتحمل ، وانطبع ثانيهما بالانتقال من الصمود الى المقاومة ومن تحمل الأذى والغدوان ، الى الرد عليه .

لقد كانت طبيعة الدعوة في كل مراحل طورها هذين ، طبيعة متماثلة من حيث فاعليتها وجاذبيتها ونزوعها الفطري للتدرك والإبداع ، وتحقيق صلات المحبة والاخاء والتعاطف والتكافل بين أفراد جماعة المؤمنين المتفنين تحت لواء الاسلام .

وجاءت الهجرة الشريفة ، في مضمون هذا الاتجاه العام للدعوة .

جاءت عامل تأكيد لاستمرار طاقة حركة الدعوة ، وبكل ما تنطوى عليه هذه الحركة من تواصل في التدرك والاشعاع ، وتحقيق تلك الصلات ، لكن في نطاق أوسع ، وبممكنات أقوى ، وباستهداف أبلغ ، تبعاً لسنة الكون في تسلسل الأشياء ، وباستمداد من تأييد الله الذي أعطى لهذا التسلسل قوة المعجزة ، فلم يكن لكل جهالات الإنسان في ذلك العصر أن تعوقه ، أو توقفه عند حد في مكان أو في زمان .

وكما حاولت جهالة الإنسان أن تعترض بدون جدوى ، سبيل الدعوة في منشئها بمكة ، حاولت ، وبدون جدوى كذلك ، أن تعترض سيرها — على طريق الهجرة — من مكة الى يثرب ، فكان من ذلك حدث المتابعة ، متابعة المشركين للرسول المصطفى وصاحبه أبي بكر ، وحدث الفار ، وكان في اعقاب ذلك ، ما لا بد أنه كان سيحصل بحكم حتمية انتشار اشعاع الدعوة رغم التحديات ، من دحر الضالين في بدر ، وفي الخندق وفي غيرها من المواقع الحاسمة ، الى أن تم العود الى مكة بالفتح المبين ، وانضوت الجزيرة العربية كلها عند خاتمة المطاف في هذه المرحلة من حياة الاسلام ، تحت لواء الحق الصادق ، وزالت العشاة في مجتمعها عن القلوب والبصائر .

لقد كانت لحظة الفار ، ذات اتصال بلحظات الصراع القوى ، في طور الدعوة الاول ، بين حق المحقين وباطل المبطلين ، وكانت بقدر ذلك منطلق الانتقال للطور الثاني من ذلك الصراع ، اذ الفزوات والفتوح الاسلامية تترادف وتترى ، الى أن جاء نصر الله .

كانت اللحظة بصفتها هذه ، لحظة قمة لا في تاريخ العرب والمسلمين وحسب ، وانما في تاريخ الانسانية كلها ، التي تآثر واقعها الفكري والحضارى ، وتوازنها الروحي ومسارها التاريخي ، بما نشأ عن تلك اللحظة من منطلقات مشرقة ، تشهد اليوم مدارجها في صورة الوجود الاسلامي المعاصر ، المتراعى شرقاً حتى المحيط الهادئ ، وفي منأى الغرب ، حتى سواحل المحيط الاطلسي وأواسط أفريقيا .

سعة نطاق الوجود الاسلامي هذه ، هي من طبيعة الهجرة الكاملة في روحه ، فالاسلام منذ الهجرة الاولى ، الهجرة النبوية ، ما فتى بهاجر ، منتقلاً باتساعه وهديه ، وجهاده في ابعاد الزمان والمكان ، وهذه طبيعة ديننا الحنيف القائم على السماحة والصفاء ، وهذا أيضاً مدلول عالمية رسالته الخالدة .

وكما نداعت في طريق الاسلام على عهد الهجرة الاولى تكالبات الشرك ، تحاول تعويق مسيرة نبينا المقدسة المباركة ، فان هذه التكالبات ما فتئت تقوالى امامه ، في هجرته الدائمة عبر العالم .

تتوالى في اشكال مختلفة من مشككة ومحرفة ، وغيرها ، وتحت شعارات شتى ، ذات اصول وثنية ومجوسية ، والحادية وما يتفرع عن ذلك من نحل ضالة متعددة في وجوها وفي انشطتها .

وتستمر على هذا المنوال ، التكالبات على طريق الاسلام في عصرنا الحاضر ، مستهدفة — كشائها من قبل — تعويق هجرته الدائمة ، بل والنيل من رسوخه في المجتمعات التي هو راسخ عريق في صميم تراثها الفكري والحضارى .

بيد ان كل التيارات المتهافنة من هذا القبيل من استعمارية وصهيونية والحادية لم تستطع امام فيض قوة الهجرة الكامنة في هذا الدين ، وعمق تمكنه من النفوس ، ان تعطل ظاهرة الاقبال المتزايد عليه ، او تحدد من اشغاله الوضاء ، او تخمد شعلة الايمان في الافراد والمجتمعات المتنامية اليه .

لقد كان الايمان بالله ، (ان الله معنا) — كما قال الله عن نبيه في الغار — عدة الرسول صلوات الله عليه وسلامه في هجرته ، وقوام مناعته ، وقد آتاه ربه عز وجل — كما تدل عليه الآية الكريمة — السكنية التي هي مدار القدرة على مواجهة كل العقبات ، وابيده بجنده ، واظهر دعوته على كل المناوئين ، واخرى كلمتهم ، فاذا هي في الحضيض .

وهذا آفق عظيم مفتوح امام امة محمد صلوات الله عليه ، لتنزل عليها السكنية ، وتنال تاييد الله لها وخذلانه لاعدائها ، على ان يكون ايمانها به — سبحانه وتعالى — ايمان الوائق بنصره ، المعتمد عليه ، وان يكون منهجها في هذا التوكل ، استمسакها بقيم الدين ، وتشبثها بمتمن حبله ، وترفعها عن التهافات العشوائية على البدع والضلالات المقضية للابتعاد عن قويم نهجه ، والتزامها الاناة والتبصر في تبين مواقع الفكر وصوابه ، وخطوات السير ، حتى لا تحيد عن سننه .

ومن فيض هذا الايمان وبفضل قوته حقق العالم الاسلامي في عصرنا انحازا ضخما ورائدا على طريق التعاون والتكافل ، بين كافة اطرافه وشعوبه ، وكان ذلك عند ما استجاب قادة المسلمين مشرقا ومغربا لدعوة مولانا امير المؤمنين الحسن الثانى نصره الله ، لعقد مؤتمر القمة الاسلامى الاول ، الذى كان منطلق المبادرات التعاونية الاسلامية في شتى الميادين ومبعثا لمظاهر التضامن الفعال في المؤتمرات الدولية خلال هذه السنوات لصالح قضايا العرب والمسلمين في كل مكان .

لقد كانت المبادرة التاريخية هذه قبسا من ايمان هذا البلد ملكا وشعبا بالرابطة التي لا انفصام لها ، رابطة الاسلام ، وتشبيعه بالمبادئ والمثل القائم بها جوهر هذه الرابطة ، وتحمسه لها ، قدر ما يحذوه من ايمان بها ، وبمضامينها المبدئية .

وكان الايمان بالله — توکلا عليه سبحانه وتعالى ، وثقة في نصره وتأييده وتعضيده ، واعتصاما بكتابه الحكيم — سلاح الشعب المغربى — تحت قيادة ملكه المظفر ، وقائده الملهم ، مولانا الحسن الثانى اعزه الله .

سلاحه في مسيرته الخضر الموقفة ، التي استرجع بها الحق لهذا الوطن ،
وتوجت هجمات المومنين فيها بأكاليل فوز مكن ، مقرونا بفرحة التأم الشمل ،
واجتماع الامل للاهل ، واكتمال وحدة الكيان .

وهذا رصيد موفور لبلائنا ، ولله الحمد — ان خباها الله هذه الطاقة
الروحانية العظمى ، التي وهبت بفضلها من المناعة المعنوية والثقة بالنفس ما يسر
لها ان تفوز في كل ما تخوضه من معارك ، مدلة التحديات ، مجاوزة العقبات
ظافرة بما تنشده من عزة وخيرة وكرامة ، وما تتوخاه من تقدم ونماء وازدهار .
ان تمسك هذا الوطن بدينه هو بكل تأكيد مناط عزته وقاعدة توازنه .

وهذا ما يجعله — والفضل لله — حصنا متيناً في وجه التيارات الدخيلة
المتحرقة التي تستهدف النيل من مكانته ، أو المس بمكتسباته .

وهو ما يؤمن له السير — سيرا محكما متوازنا — في هذا السبيل الذي
ينتهي لاحتلال ارفع المقامات واسناها ، رقياً وحضارة .

أبقى الله سيدنا أمير المومنين المنصور بالله ، مولانا الحسن الثاني ركناً
ركبنا لهذه الأمة ، يحمي حماها ، ويرعى نهضتها ، ويصون وحدتها ، وحفظه في
سمو ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد ، وصنوه المحبوب مولاي الرشيد ،
وكافة أفراد الأسرة الملكية الشريفة ، آمين .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أقرب الموارد

في بعض آيات الشواهد

للأستاذ الرحال الفاروق

ومن الطبيعي أن مثل هذا العمل الشاق يستتبع
أتعاب النفس واجتهاد الفكر لكثرة ما يتقاضاه من
بحث وتفتيش ، في المكتبات على قواعدها وفحص
وتحصيل في المعجمات وأشبايعها ، إلا أن العمل البار
النافع لا يضيع أجره ، ولا يقل شكره كما قال
سبحانه : « ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » .
وذلك مما يسهل القيام بمثل هذا العبء الثقيل
والنشاط المستمر .

ولما أن قلبت صفحاته ، وتناولت محتوياته ،
وتدبرت دلالاته ، رأيت أنه حرص على الاستشهاد
بآيات بينات من كتاب الله العزيز الحكيم ، وذلك
نعم السند ونعم المعتمد ، بيد أنه وقع في بعضها
أخطاء وأغلط تارة بالزيادة والنقصان وتارة بالتجريف
والتحريف ، وأخرى بالشكل ووضع الحركات على
خلاف ما هو متعارف بين القراء ، وأكثر من ذلك أنه
ينسب إلى القرآن ما ليس بقرآن ، وقد ينسبه
إلى الحديث فيقول : وفي الحديث كذا ، فإيتنى
مضطرا أن أنبه على هذه الأغلاط والأخطاء التي هي
عندى بيت القصيد وأول الجريدة ، حتى يشبه لذلك
الغافلون ، وحتى لا يتعمده المقرضون ، وصدق قول
الله العظيم : « أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون » .

ومن تساعل هذا الكتاب أنه في بعض الحالات ،
ينسب إلى القرآن ما أتى به من الآيات ، صراحة
فيقول : وفي القرآن ، وفي حالات أخرى يضع الآيات

الحمد لله الذي شرف لغة العرب والبيان ، بما
أنزل من وحى الكتاب والقرآن ، ذلك الكتاب الذي
اعتز محاولة الفصحاء ، وذلك القرآن الذي احرص
السنة البلغاء ، والصلاة والسلام على سيد الإوازم ،
ومن أوتي جوامع الكلم ، وعلى آله وأصحابه الأكارم .

وبعد فقد شاء المولى سبحانه أن تصفح معجم
أقرب الموارد ، في فصح العروبة والشوارد ، المطبوع
بمطبعة مرسلى اليسوعية ببيروت سنة 1889 -
للمشيخ الأديب ، والامتاز النجيب ، والفاضل البار
والممارس المطلع ، سعيه بن عبد الله بن ميخائيل
الخوري الشرتوني اللبناني الذي تفوق في دراسة
اللغة العربية ومعرفة خصائصها ودقائقها وتصرف في
حقائقها وطرائقها ، وقضى عمره في خدمتها وتجربة
حياتها ، حتى عالج مجلدات في مفرداتها وكلماتها ،
وفي فنون نحوها وبيانها ، وعائق المعاني والمعالي
في مكائنها ومضادها ، وبحث كثيرا عن شواهد
وشواردها ، وغاص في بحرهما الأبيام والليالي ،
فاستخرج منه الجواهر والآلي ، ووضع امام العلماء
والمعلمين ، والادباء والمفكرين هذا المؤلف الجميل
في مبناه ، والبدیع في معناه ، الوافي بالمطالب
والرغائب ، لكل من الخائس والغائب ،
والجافل بالامثلة والشواهد ، والجامع
للحكم والفرائد ، وللاوانس والاويد ، مستانسا
بالكلام الصحيح الفصيح ، وبالشعر العربي الصميم
والملح .

الله ايها اهل الكتاب ، وهيهات ان يكون ذلك فان
الله جل جلاله قد تولى حفظ كتابه ، بما شاء من
اسبابه ، فلا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
كما اخبرنا بذلك وخبر الله لا يتخلف .

وها أناذا بعون الله تسجل الآيات واحدة بعد
واحدة في ارقام متوالية ، ثم تتبعها بذكر ما هو الصواب
في هذه الوريقات الآتية ، حتى يسهل لقارئ الكتاب ،
موضع الخطأ وموضع الصواب ، واذا شئت نسبها :
اغلاط اقرب الموازد ، في بعض آيات الشواهد .

نسأل الله جل وعلا ان يصحبنا حتى نؤدي
هذه الامانة بحوله وقوته ، ونحمد الله الذي لا يتم
شيء بدون معونه ونصرته ، والله المستعان وعليه
التكلان .

القرآنية بين قوسين ، او بعد - وقته - او بعد نحو
- او بعد - يقال - كما جاء في صفحة اربعمائة
واربعين ، وقد يضع الآية دون ذلك لاسيما اذا كان
المقام مقام التقسيم والتنوع - ومن الحسرة والتهفة
ان يسكت الذين عاشروا هذا الكتاب من اول ما كان
الى الآن عن مثل هذه الاخطاء التي تؤخذ مسلمة
اغترارا باولئك الذين اخذوه وتناولوه من دون ان
يلتمسوا اليها ولو بكلمة ان كان هناك احتمال واغفال
فانه لا علم لى بشيء في هذا المجال .

والتنبيه على ما وقع في آيات القرآن من اوجب
الواجبات على العلماء الذين يتصحون بكتاب الله
ويتلون الآيات ، ويحفظونها من التعرض للأخطاء
والساعات ، وينهضون به امام الهيئات والمجتمعات ،
حتى لا يكون حظه حظ الكتب القديمة التي استحفظ

الجزء الأول :

صفحات الكتاب	الخطأ	الصواب	السورة	رقم الآية
19	اما الذين اسودت وجوههم	فاما الذين اسودت وجوههم	آل عمران	106
19	اما ثمود فاهلكوا بالطاغية	فاما ثمود فاهلكوا بالطاغية	الحاقة	5
19	واما الذين في قلوبهم زيغ	فاما الذين في قلوبهم زيغ	آل عمران	7
20	انا هدينا السبيل اما شاكرنا واما كفورا	انا هديناه السبيل اما شاكرنا واما كفورا	الانسان	3
20	ان تصوموا خير لكم	وان تصوموا خير لكم	البقرة	184
24	لا يؤوده حفظهما	ولا يؤوده حفظهما	البقرة	255
26	يسألون ايام يوم القيامة	يسأل ايان يوم القيامة	القيامة	6
27	اسأل به خبيرنا	فاسأل به خبيرنا	الفرقان	59
27	لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة	ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة	البقرة	195
28	ولا تبتسئ بما كانوا يعملون	فلا تبتسئ بما كانوا يعملون	يوسف	69
33	فمن بدله فانه على الذين يبدلونه	فمن بدله بعدنا سمعه فانما اشبه على الذين يبدلونه	البقرة	181
63	فانبتت من كل زوج بهيج	وانبتت من كل زوج بهيج	الحج	5
74	لو شئت لاتخذت عليه اجزا بالضم	لو شئت لاتخذت عليه اجزا بالفتح	الكهف	77
91	أخرجت الارض اثقالها	وأخرجت الارض اثقالها	الزلزلة	2
91	وما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله	مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله	التوبة	38
97	واذا جعلنا البيت مثابة للناس	واذا جعلنا البيت مثابة للناس	البقرة	125
98	وما كنتم ثلوثا في اهل مدين (بالضم)	وما كنتم ثلوثا في اهل مدين (بالفتح)	القصص	45

صفحات الكتاب	الخط	النصوص	السورة	رقم الآية
102	تجني اليه ثمرات المجد (ان كان يشير للقرآن)	تجني اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا .	القصص	57
102	ومثل كلمة خبيثة كشجرة اجتثت من فوق الارض	ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض	ابراهيم	26
106	انه تعالى جد ربنا	وانه تعالى جد ربنا	الجن	3
116	يسقى من ماء حديد يتجرعه	ويسقى من ماء صديد يتجرعه	ابراهيم	16
117	أقمن أسس بنيانه على تقوى	أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان	التوبة	109
117	لا يجرمنكم شنآن قوم أن لا تعذبوا	ولا يجرمنكم شنآن قوم على الانعذاب	المائدة	8
126	وجعل الله الظلمات والنور	وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا يزيفهم يعدلون	الانعام	1
142	سيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا	فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا	مريم	75
147	أحكم الجاهلية يبغون	أفحكم الجاهلية يبغون	المائدة	50
149	ان أحد من المؤمنين استجارك فأجره	وان أحد من المشركين استجارك فأجره	التوبة	6
150	في القرآن : اهل النار كسل جعظري جواظ	في الحديث : اهل النار كل جعظري جواظ		
153	ادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء	وإدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء	النمل	12
170	تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون	تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون .	البقرة	229
177	ليس على المريض حرج	ليس على الأغني حرج ولا الأعرج حرج ولا على المريض حرج	النور	61
178	فمن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة	وفمن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة	النساء	92
181	وجاهد في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرص المؤمنين	فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرص المؤمنين	النساء	84
190	فيجعل الله قلوبهم حسرة	ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم	آل عمران	156
191	يا بني اذهبوا فتحبسوا من يوسف واخيه . يضم الباء	يا بني اذهبوا فتحبسوا من يوسف واخيه . بفتح الباء .	يوسف	87
193	ادعوا الله او الرحمن ايما ما تدعوا فله الاسماء الحسنى	ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايما ما تدعوا فله الاسماء الحسنى	الاسراء	110
197	انا انزلنا عليهم حاصبا	انا ارسلنا عليهم حاصبا	القمر	134
204	وكل شرب محتضر	كل شرب محتضر	القمر	28
206	ادخلوا سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم	وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم	البقرة	58

صفحات الكتاب	الخط	المصواب	السورة	رقسم الاية
215	ثم ردوا الى الله مولاهم الحق. ولو اتبع الحق اهواءهم	قد يوههم ذلك انهما آية واحدة مع انهما آيتان الاولى منهما في : والثانية في :	الانعام المؤمنون	62 71
224	فلولا اذا بلغت الروح الخلقوم	فلولا اذا بلغت الخلقوم	الواقعة	83
226	اتأمرهم احلامهم بهذا	ام تأمرهم احلامهم بهذا	الطور	32
227	اتخذ قوم موسى من حليهم عجلا جسدا	واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا	الاعراف	148
228	لقد خلقنا الانسان من صلصال وفن حفا مستفون .	ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حفا مستفون .	الحجر	26
232	انا عرضنا الامانة على السموات والارض فابين ان يحملنها وحملها الانسان	انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان	الاحزاب	72
239	اتبع ملة ابراهيم خنيفا - سواء قرأناه بالماضي كما في سورة النساء لنقص الواو . او بالامر كما في سورة النحل لنقص أن	- واتبع ملة ابراهيم خنيفا - او - ان اتبع ملة ابراهيم خنيفا -	النساء النحل	125 123
251	فشقناه الى بلد ميت فاحياها الارض بعد موتها	فشقناه الى بلد ميت فاحيينا به الارض بعد موتها	فاطر	9
251	الدار الآخرة هي الحيوان	وان الدار الآخرة لهي الحيوان	العنكبوت	64
287	ولا تجهز بضالتك ولا تخافت بها ويتخافتون بينهم	يوهم كلامه ان ذلك آية واحدة مع انهما آيتان الاولى في : والثانية في : وعى بدون واو - يتخافتون بينهم -	الاسراء طه	110 103
293	فاخلصناهم بخالصة ذكرى الدار	انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار	ص	46
293	ان كثيرا من الخلقاء يبغى بعضهم على بعض	وان كثيرا من الخلقاء لبغى بعضهم على بعض	ص	24
300	وجعلناهم خفيدا خامدين	حتى جعلناهم خفيدا خامدين .	الانبيا	15
300	وان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون	ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون	يس	29
301	ويضربن بخمرهن على جيوبهن	ويضربن بخمرهن على جيوبهن	النور	31
309	للبلونكم بشيء من الخوف	ولتبلونكم بشيء من الخوف	البقرة	155
313	لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط	ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط	الاعراف	40
313	كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيوط الابيض من الخيط الاسود	وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيوط الابيض من الخيط الاسود	البقرة	187
324	لا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم	ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم	النحل	94
333	قد خاب من دسيتها	وقد خاب من دسيتها	الشمس	10
337	لهم ما يدعون	ولهم ما يدعون	يس	37

صفحات الكتاب	الخط	المصنوع	السورة	رقم الآية
347	ثم ذهب يتطلى	ثم ذهب الى اهله يتطلى	القيامة	33
350	ومن دونها جنتان مدهامتان	ومن دونهما جنتان فسيأتى الاء	الرحمن	62
336	واذا السماء انشقت فكانت ورده	فاذا انشقت السماء فكانت ورده	الرحمن	37
362	كالدخان	كالدخان	البقرة	283
366	تداينتم بدين فاكتبوه	تداينتم بدين الى اجل فمسمى	البقرة	283
366	والله يذروكم فيه	يذروكم فيه	الشورى	11
366	رب هب لى ذرية طيبة	رب هب لى من لذك ذرية طيبة	آل عمران	38
370	انه لذكر لك ولقومك	وانه لذكر لك ولقومك	الزخرف	44
374	ذهب الله بنورهم وابصارهم	ذهب الله بنورهم وتركهم فسى	البقرة	17
394	وما لكم لا ترجون لله وقارا	ما لكم لا ترجون لله وقارا	نوح	13
402	ما اتزل الله من السماء من رزق	وما اتزل الله من السماء من رزق	البقرة	163
407	فأحيا به الارض	فأحيا به الارض	البقرة	17
407	كانه بنيان مريض	كانهم بنيان مريض	الصنف	4
417	اذا كنا عظاما او رقايا انا	اذا كنا عظاما ورقاا انا لمبعوثون	الاسراء	49
435	لمبعوثون خلقا جديدا	خلقنا جديدا	الرحمن	68
441	فيها فاكهة ونخل ورمان	فيهما فاكهة ونخل ورمان	الدخان	24
443	اترك البحر رهوا	واترك البحر رهوا	يوسف	87
443	لا تياسوا من روح الله	ولا تياسوا من روح الله	الواقعة	89
443	وان كان من المقربين فروح	فاما ان كان من المقربين فروح	الواقعة	89
454	وريجان وجنات نعيم	وريجان وجنة نعيم	الرعد	17
485	فاحتمل السيل زيدا رائيا	فاحتمل السيل زيدا رايا	يونس	28
495	فزيلها بينهم	فزيلنا بينهم	الاسراء	1
498	سبحان من اسرى بعبده ليلا من	سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من	البقرة	164
716	المسجد الحرام الى المسجد	المسجد الحرام الى المسجد	البقرة	164
721	الاقصى	الاقصى	البقرة	164
722	السحاب المسخر بين السماء	والسحاب المسخر بين السماء	البقرة	164
722	والارض	والارض	البقرة	164
726	وطمس على اموال آل فرعون	ربنا اطمس على اموالهم	يونس	88
726	قد خلقكم اطوارا	وقد خلقكم اطوارا	نوح	14
726	فليشهد عذابها طائفة من المؤمنين	وليشهد عذابها طائفة من المؤمنين	النور	2
726	لا تحملنا ما لا طاقة لنا به	ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به	البقرة	186
726	اصديق الطيرة الفال	هو حديث وايس بقرآن	البقرة	186
726	اذ منهم طيف من الشيطان	اذا منهم طيف من الشيطان	الاعراف	201
726	وطائف من الشيطان	وطائف من الشيطان	الاعراف	201

صفحات الكتاب	الخطا	الصواب	السورة	رقم الآية
733	قلنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه	وقلنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه	التوبة	118
762	اطعموا القانع والمعتر	وأطعموا القانع والمعتر	الحج	36
769	بينهما حجاب وعلى الاعراف رجال	وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال	الاعراف	46
776	فعرزناهما بنات	فعرزنا بنات	يس	14
787	من يعش عن ذكر الرحمن الآية	ومن يعش عن ذكر الرحمن الآية	الزخرف	36
853	جعلنا النهار معاشا	وجعلنا النهار معاشا	النبا	11
853	ان له معيشة ضنكا	فان له معيشة ضنكا	طه	124
874	وعشيتهم مرج كالظلل	واذا غشيتهم موج كالظلل	لقمان	32
874	تاتيه غاشية من عذاب الله	أفأتوا ان تاتيهم غاشية من عذاب الله	يوسف	107
884	لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك	ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك	الاسراء	29
920	اذ آتينا موسى الكتاب والفرقان	واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان	البقرة	53
924	وظهر الفساد في البر والبحر	ظهر الفساد في البر والبحر	الروم	41
953	وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بصع سنين	وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بصع سنين	الروم	3
953	رايت الناس يدخلون في دين الله افواجا	وراي الناس يدخلون في دين الله افواجا	التصور	2
961	وتقبلها ربها بقبول حسن	فتقبلها ربها بقبول حسن	آل عمران	37
964	كان الانسان قتورا	وكان الانسان قتورا	الاسراء	100
983	الشمس تجري لمستقر لها	والشمس تجري لمستقر لها	ين	38
1034	اذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم	واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم	الاعراف	86
1044	في الحديث : فاطعموا القانع والمعتر	في القرآن : وأطعموا القانع والمعتر	الحج	36
1108	في الحديث : او اكنتم في انفسكم	في القرآن : او اكنتم في انفسكم	البقرة	235
1114	وان كان ذو عسرة فنظرة الى عسرة	وان كان ذو عسرة فنظرة الى عسرة	البقرة	280
1119	لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض	ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض	البقرة	251
1137	تندر به قوما لدا	وتندر به قوما لدا	مريم	97
1162	ياكلون التراث اكلا لنا	وئاكلون التراث اكلا لنا	الفجر	19
1163	لما نجاكم الى البر اعرضتم	فلما نجاكم الى البر اعرضتم	الاسراء	67
1163	لما نجاكم الى البر اذا هم يشركون	فلما نجاكم الى البر اذا هم يشركون	العنكبوت	65
1170	البروج في لوح محفوظ	في لوح محفوظ	البروج	22
1242	فاهجرني مليا	واهجرني مليا	مريم	46
1242	من يفقر الذنوب الا الله	ومن يفقر الذنوب الا الله	آل عمران	135

صفحات الكتاب	الخط	المصنوع	السورة	رقم الآية
1277	وتنحتون من الجبال بيوتا ، يفتح الحاء	وتنحتون من الجبال بيوتا . يكتسر الحاء	الشعراء	149
1337	وضعنا عنك وزرك الذي انتعش ظهرك	ووضعنا عنك وزرك الذي انتعش ظهرك	الشرح	2
1358	أني لهم التناوش من مكان بعيد	وأني لهم التناوش من مكان بعيد	سبأ	23
1418	عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم	وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم	البقرة	216
1479	هو اهل التقوى المغفرة	هو اهل التقوى واجل المغفرة	المدثر	56
1500	اعيد ربك حتى ياتيك اليقين	واعيد ربك حتى ياتيك اليقين	الحجر	99

ونعوذ بالله من ضلال الضالين ، وسبأ اليقينين ،
ونسأله سبحانه ان يهدينا الى الطريقة المثلى . وأن
يختم لنا بالخاتمة الحسنى ، وأن يتغنا بكتابه يوم
القائه ، ويمتتنا بأنواره واسراره ، ويجعلنا من
المومنين بشراعه وأخباره .

اللهم انا نسألك ان تجعل القرآن العظيم ربيع
قلبي ونور صدري ونجاة حزني وذهاب غمي . وغني
والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى .

الرحالي الفاروق

هذا وإن المولى جل جلاله ، وغم فضله ونواله ،
قد هدى ووفق لأزاحة النقائص أو البسائس التي
تطلبها البحث واقتضاها القيام . والتي خفت بذلك
القول الفاضل بين الحق والباطل والحلال والحرام بما
القينا عليه من نظرة فاحصة منحصرة ، جعلت التصور
الكريمة التي أتت في تضاعيف الكتاب آمنة من
التحريف والانحراف ، وسأله من التمسك والاختلاف
وأنتهينا بحمد الله شقة المطاف ، وأقمنا بفضل الله
حجة الانصاف ، ووفينا بعض الآيات ما وجب لها من
الحقوق ، ونقينا بعض المعجمات مما نابها من الغقوق
متمولين على السبيل الربانية ، والالطاف الإلهية .

بحث في (القرآن الكريم) القرآنية التي تحدث عنها الزمخشري في تفسيره "الكشاف"

لأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

- 6 -

وأما الحديث عن هؤلاء جميعاً قال : «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون» .

ولهذا اعتبر بعض المفسرين توجيه الخطاب عاماً لا فرق بين مشركي مكة وغيرهم في حين أنه ورد عن علقمة والحسن أن النداء موجه للكفار قريش خاصة وقد حاول الزمخشري رحمه الله شرح مفهوم العبادة حسب الاتجاهين معاً .

والظاهر أنه حينما تحدث عن رواية علقمة والحسن كأن يقتضيه ما روي عنهما من أن كل ما نزل فيه بالإنسان فهو مكى ، وهذا النص نفسه تأوله فيما بعد أبو السعود وجعله لا يتنافى مع رأي الذين جعلوا الخطاب عاماً فقال : «ولا يمدح في العموم ما روي عن علقمة والحسن البصري من أن كل ما نزل فيه يا أيها الناس فهو مكى» ، إذ ليس من ضرورة نزوله بمكة شرفها الله تعالى اختصاص حكمه بأهلها ولا من قضية اختصاصه بهم اختصاصه بالكفار إذ لم يكن كل أهلها حينئذ كفراً .

وفي هذه الآية وردت قراءات ثلاث زيادة على القراءة المشهورة المتداولة .

أما القراءة الأولى فهي قراءة أبي عمرو التي ادغم فيها القاف في الكاف ، فقال هو الذي خلقكم ، وهذا

22 - «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون» 21

لقد بلغ الإعجاز القرآني حداً عظيماً في مختلف وجوهه سواء من الناحية البلاغية أو من الناحية المتعلقة بدراسة أحوال الإنسان في هذه الحياة .

ونحن لو تأملنا صدر سورة البقرة للأحظنا تحليلاً دقيقاً للتصورات الممكنة من قبل الإنسان حينما يوجه نداء مصلح أو يجابه بعرض رأي جديد .

إذا لا يخلو الحال من أمور ثلاثة :

1 - التأييد المطلق .

2 - المعارضة العمياء .

3 - التظاهر بالإيمان نقاباً وخداعاً .

وهذه الأحوال الثلاثة ترتبط بحقيقة التكوين الإنساني وتنسجم مع الطبيعة البشرية في العقيدة والإيمان سليماً وإيجاباً .

ولقد أظهرها الله تبارك وتعالى بصورة واضحة حينما وصف المتقين المفلحين ثم وصف الذين كفروا وعاندوا ثم تحدث عن أولئك الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون .

الادغام ناتج عن تقارب الحرفين من جهة الإخراج الصوتي فقد جاء في كتاب سيبويه : ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف ومن السفلى من موضع القاف من اللسان قليلا ومن الحنك الأعلى مخرج الكاف . ولهذا تحدث عنهما أيضا في باب الإدغام الحاصل من تقارب المخارج وذكر جواز الإدغام بينهما في حاشي التقديم والتأخير .

أما القراءة الثانية فهي لابن السمين (ج) ، وقد وردت بتكرار فعل خلق وتجويز الاسم الموصول وبالإستغناء عن حرف الجز فهي قراءة شاذة جاءت على الشكل التالي : **ويا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم وخلق من قبلكم** .

أما القراءة الثالثة فهي قراءة زيد بن علي وهي قراءة مشككة لانه اقحم فيها الاسم الموصول الثاني بين الاسم الموصول الاول وصلته فقال **اعبدوا ربكم الذي والذين من قبلكم خلقكم** وهي قراءة مشككة لا تتسجم مع السياق المعنوي العام ورغم ذلك فقد حاول الزمخشري ان يوجيها توجيها لغويا فقال (3) : **«ووجهها على اشكالها ان يقال اقحم الموصول الثاني بين الاول وصلته تأكيداً كما اقحم جرير في قوله :**

يا تيم تيم عدي لا ابا لكم

ثيما الثانية بين الاول وما اضيف اليه وكأقحاهم لام الاضافة بين المضاف والمضاف اليه في لا ابا لك ،

وليس معنى توجيه القراءة الشاذة استحسانها أو الدعوة الى القراءة بها وإنما الغاية من ذلك إبراز الجوانب القوية المنطوية مع استعمالها وشرح الوجود المؤدية الى صلاحها وقد تكون هذه الجوانب قوية وقد تكون ضعيفة وعلى حسب القوة والضعف يقع الحكم على التوجيهات الواردة في كتب التفسير والقراءات.

33 - **«الذي جعل لكم الأرض قرأنا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون»** 32 .

الاسم الموصول هنا يجوز ان يكون وصفا ليا سبقه ويكون السياق على الشكل الآتي : **ويا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض قرأنا الخ ..** ويجوز ان يكون خبرا لمبتدأ محذوف اي هو الذي جعل لكم الأرض قرأنا وفي هذه الحالة يكون التأكيد أقوى حسب ما عهد عند النحويين عند الحديث عن النعم المخلوق وربط ذلك بالسماوى .

ويمتاز القرآن امتيازاً كبيراً بالفتاة الى مظاهر الطبيعة واستغلالها في تثبيت الايمان ولفت انتباه المشركين الى حقيقة الكون والى التأمل في خلقه كما يمتاز بالتنسيق الوضعي الذي يربط الانسان بمسؤوليته وبوجوده .

ففي الآية السابقة تحدث الله عن خلق الانسان وعن الغاية من وجوده وهنا تحدث عن خلق الأرض التي سيجرب فيها الانسان مسؤوليته وسيتحمل الامانة المنوطة به كما تحدث عن مظاهرها الطبيعية التي تجعل الانسان حائراً أمام عظمة خالقها .

ومن المعلوم ان المشركين اذا استوفوا غده الحقائق وابتعدوا عن عنادهم فتشبعوا بالخزي امام تلك الاصنام التي يتقربون اليها زلفى وسيعلمون اعترافهم بالله الواحد الخالق المبدع .

ولبعد الآن الى موضوع القراءات في هذه الآية فنقول :

اولا - هناك القراءة السبعية المتداولة التي جعلناها منطوقاً لتعليقنا وهي قوله تعالى ، **الذي جعل لكم الأرض قرأنا** .

ثانيا - هناك قراءة ليزيد الشامي وفيها ذكر البساط عوض القراض ، فقال :

هو الذي جعل لكم الأرض بساطا .

ثالثا - هناك قراءة لطلحة تقول : **هو الذي جعل لكم الأرض مهدا .**

2 - ابن السمين هذا هو القاريء المعروف باليماني وقد كتب خطأ في الطبعة التي اعتمدت عليها بابي السمين .

3 - الكشاف للزمخشري الجزء الأول من الطبعة الأولى ص 36 .

وهاتان القراءتان الأخيرتان مخالفتان للقراءات العشرية نظرا لعدم موافقتها للخط العثماني ولكن تقدم لنا في بعض المقالات ان الطبري يرى ان هذا الاختلاف اللفظي موافق لقول الرسول : انزل هذا القرآن على سبعة احرف ، ولا يرى في ذلك اى مخالفة للفظ الحديث .

رابعا - قرأ ابن السميع الجزء الثاني من هذه الآية بأفراد النمرات والانداد ، فقال : وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرة رزقا لكم فلا تجعلوا لله ندا وانتم تعلمون .

والهدف من القراءتين واحد الا ان يقصد من القراءة المتداولة ابرار تنوع الاحساس فتكون اقوى ابرارا لتعم الله كما يكون الجمع في الانداد استخفافا بعقول هؤلاء الذين جعلوا لله شركاء في حين انهم لو امنوا بالنظر لما جعلوا له ندا واحدا فبهذه القراءة اذن تبهر بضعف عقولهم وانعدام روح التفكير لديهم وتعطيل البيرة البشرية التي منحها الانسان لينظر بها آيات الله في نفسه وفي الافاق .

رأى صورة انفس على الانسان من ان يصبح ناقدا للتفكير والوعي وان يوصف بذلك رغم كونه يدعى المعارضة والمقاومة والجماد .

وهذا الخطاب موجه لكفار مكة وهو حجة يتدرج بها اولئك الذين قالوا من قبل ان الخطاب بقوله تعالى «يا ايها الناس» خاص بهم لا يشركهم غيرهم في ذلك ورغم حججهم هاته فان الذين يقولون بالعموم يقرون العبودية تفسيرها نسبيا مشتركا عوحيها لكل طائفة بمعنى خاص فهو بالنسبة للمؤمنين ثبات وزيادة ، وبالنسبة للكافرين انباء واقرار .

24 - «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين» 23 .

اذا كان المشركون قد ارتابوا فيما كان ينزل عليهم من الآيات فله لا يملكون حجة يواجهون بها حقيقة التشريع ولا يرمضون يدافعون به عن آرائهم ونظرياتهم ، وقد تحدى الله موقفهم وأبان عن غشائهم وتعصبتهم فحرك فيهم روح الجدال العقلي الذي اذا فقده الانسان فقد جيلته التي خلق عليها ، ودعاهم الى

محاكاة القرآن في وضعه وعمايته واحداه اذا كانوا حقيقة يدعون انه لم ينزل من الله وان الرسول لقوله واختلقه .

ولا شك ان الامر هنا يراد به التعجيز نظرا لعدم قدرتهم على مواجهة هذا الطلب ولعجزهم عن تنقيده والقيام به .

وبناء على هذا فان التفسير في قوله تعالى فاني بسورة من مثله ، راجع الى القرآن المنزل لا الى الرسول المنزل عليه ، وقد ارجعه بعض المفسرين الى الرسول باعتبار كونه اميا .

قال الزمخشري (4) «والكلام مع رد التفسير الى المنزل احسن ترتيبا وذلك ان الحديث في المنزل لا في المنزل عليه وهو مشوق اليه ومربوط به فحقة الا يفك عنه يرد التفسير الى غيره الا ترى ان المعنى وان ارتبتم في ان القرآن منزل من عند الله فيأتوا اتسم تيدا مما يماثله ويجانسه وتقسمة الترتيب لو كان التفسير مردودا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقال وان ارتبتم في ان محمدا منزل عليه فيأتوا قرآنا من مثله ولانهم اذا حوطينوا جميعا وهم النجم الغفير بأن باتوا بطائفة يسيرة عن جلس ما اتى به واحد منهم كان ابلغ في التحدي من ان يقال لهم ليات واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد ولان هذا التفسير هو الملائم لقوله وادعوا شهداءكم والشهادة جمع شهود بمعنى الحاضر او القائم بالشهادة» .

ويوجه الآية في عودة التفسير على القرآن من قبل الزمخشري واضح يسير وفق خطته التي يعتمد فيها على التمسك الفكري والاستغلال البياني والبرهان الاقناعي .

وهو هنا كما لاحظنا اعتمد في الشرح على النقط الآتية :

النقطة الاولى تتعلق بكون الموضوع راجعا الى الشك في الثقة بما انزل وهذا يقتضي ترتيب الكلام ترتيبا عاديا وهذا الترتيب لا يتساق الا مع عودة التفسير على القرآن لا على محمد صلى الله عليه وسلم النقطة الثانية تتعلق بالغاية من تحدى جماعة بالشاء سورة قصيرة ، ان هذا التحدي لا يظهر الا برط الجماعة بالآيات لا برطيا بتغيير شخص معين .

المتعلقة الثالثة تتعلق بسياق الآية التي لم تدع هؤلاء فقط بل اياحت لهم الاستعانة برؤسائهم ، وهذا أمر لا يظهر له معنى الا اذا كانوا يعيشون ضمن بانفسهم في التأليف المطالبين به والعاجزين عن تحقيقه .

ويظهر ان التاويلين المرتبطان بالقراءة المتبادلة المعهودة ، اما اذا ما راعينا القراءة الاخرى التي تقول وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبادنا فلا يأتى حينئذ الا التاويل الراجح الذي يعيد التفسير على المنزل لا على المنزل عليه .

وهذه القراءة وان لم تكن مشهورة فهي ايضا مما يستأنس به في ترجيح رأي الزمخشري . والمراد بالعباد حينئذ الرسول صلى الله عليه وسلم وأهله والانبيا السابقون ، وقد سبق ان من تمام الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الايمان بمن سبقه من الرسل . لان الاسلام تكميم لرسالة الله وتحقيق لنا توحده من الشرائع والاحكام والقيم عليه بدء الخليقة الى ان بعث محمدا صلى الله عليه وسلم والى ان انزل عليه قوله تعالى : «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» .

25 - «فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة» أعدت للكافرين» 24 .

هذه الآية تابعة للتي قبلها ومبينة للمصير المحتوم لهؤلاء الذين يرتابون في القرآن ويضربون على انه لم ينزل من عند الله في حين انهم لا يستطيعون مجاراته او محاكاته ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، انه النار التي وقودها الناس والحجارة وقد وردت في كل نسخة الوقود قرأتان :

القراءة الاولى بفتح الواو ، ويكون المقصد من الوقود حينئذ ما توقد به النار وتشعل فيهمولاء المشركون اذن هم حسب جهنم ، وقد يراد به المضاد وفقاً لما حكاه سيديويه .

القراءة الثانية بضم الواو على اننا قصدنا هذه القراءة قرأ بها عيسى بن عمر البغدادي وهي تدل على ان حقيقة النار أصبحت مكونة من هؤلاء الذين تحبوا بهم وتنتعش .

ورغم اختلاف التأويلين قال الغاية واحدة لان النار تقوى بهم وتشتد اذا كانوا خطايا كما تكسب حياتها فمنهم اذا كانوا عاصيتها .

وقد ابدح الزمخشري في ذكر بعض اللطائف المتعلقة بهذه الآية وفي ذكر ما يقابلها من الآيات الشبيهة بها ومن ذلك قوله : (5) «فان قلت لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقوداً ؟ قلت لانهم قوتوا بها انفسهم في الدنيا حيث نحتوها اصناماً وجعلوها لله انداداً وعيدوها من دونه ، قال الله تعالى وانكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» . وهذه الآية مفسرة لنا نحن غيه ، فقوله انكم وما تعبدون من دون الله في معنى الناس والحجارة وحصب جهنم في معنى وقودها ولما اعتقد الكفار في حجارتهم المعبودة من دون الله انها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستشفعون المضاد عن انفسهم بمكانهم جعلها الله عذابهم فقرتهم بها محبة في نار جهنم ابلاغاً في ايلامهم واغراقاً في تحسيرهم وانحوه ما يقوله بالكافرين الذين جعلوا ذهابهم وقطبهم عدة وذخيرة فليخروا بها ومنعوا من الحق حيث يحض عليها في نار جهنم فتكوى بها جبايعهم وجنوبهم .

وفي هذا التحليل نلاحظ ما يلي :

اولاً - ترجيح القراءة الاولى باعتبار كونها الخطي لا باعتبار كونها مضاداً كقراءة الرفع .

ثانياً - الاشعار بان القرآن يشرح بعضه بعضاً ويظهر ذلك من شرح ما نحن بصدده بقوله تعالى : وانكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم .

ثالثاً - الاشعار بان العذاب نوعان ، عذاب جسدي يلحق بالفرد مباشرة وعذاب نفسي يلحقه باضائة ما يحب ومن يجب .

إذا استوعبت ما تقدم نلاحظ ان اختلاف القراءات له دور فعال في التعمق في معاني القرآن ويساعد على الموازنات والمقارنات ويدفع الى الربط بين بعض الآيات ليكون ذلك مدعاة الى الاختيار والترجيح .

فان محمد بن عبد العزيز الديباج

موقف

الإسلام من أجل العلم والفلسفة

لأستاذ محمد العربي الناصر

ينهمون ويتطورون ويكتملان ، والدين واحد ثابت .
وكن هؤلاء لم يربطوا قط بين ما هو متغير في العلم
والفلسفة وما هو ثابت في الدين . هذا ما نريد
مناقشته في صلب المقال .

بين الإسلام والعلم :

هذه الشبهة نجدها في الأدب عنه طلبة حسنين ،
وفي الفلسفة عند إمام عبد الفتاح إمام ، وفي الماركسية
عند أحمد عاطف ، مما يؤكد أنها ليست خاصة بجناح
دون غيره ، فهي شبهة تتروى من أقصى اليمين إلى
أقصى اليسار ، مارة بالوسط المخايد ، وخبيثهم على
أساس واحد : (نعاد الدين .

فظة حسين يقول في كتابه عن بعيد : (ليس من
مهمة الدين أن يفسر لنا الظواهر الطبيعية لأن تلك
هي مهمة العلم ، ولا يجوز الربط بينهما فالعلم دائم
التطور ويكشف عن وقائع جديدة ، والمحاولات التي
تبدل في هذا الصدد ليست إلا مجموعة من الدجل لا
هي من العلم ولا هي من الدين في شيء) .

وإمام عبد الفتاح إمام يقول في كتابه يدخل إلى
الفلسفة : (والواقع أن استقلال المكتشفات العلمية
والنظريات العلمية في تأييد قضايا دينية هو عمل
يخون بالمخاطر دائما نظرا إلى أن هذه المكتشفات
النظرية العلمية قابلة للتغيير مما يؤدي إلى خطورة
الربط بينهما وبين قضايا الدين الثابتة) .

في مقال هذا لا أريد تحديد موقف الإسلام ،
لأن تحديد الموقف ، هو تعجير وتوقيف لامتناه
التصور الإسلامي . فالحديث عن الموقف طريقة عفى
الزمن عنها وتجاوزها . والفكر الإسلامي تخطاها بعد
أن أشبعها تكرارا ، وترك انطبعا سيئا في نفس
القارئ ، لما في تحديد الموقف من بعد عن الحياة
ذاتها وعن مياديتها ، فالموقف غالبا هو موقف الكاتب
نفسه من القضية ولذا كل ما أودع ، أن أتوصل إلى
تحليل يظهر علاقات الإسلام بالعلم والفلسفة .

والفرق بين الموقف والعلاقة شاسع . فالأول
يدل على حياد الإسلام وخلافه مع العلم والفلسفة ،
فهو إما يرفضهما وإما يجوزهما . أما الثاني فيؤحي
عكس ذلك ، فهو بحث في العلاقات الممكنة بين
الإسلام والعلم والفلسفة أو بالأحرى دعوة إلى علم
إسلامي وفلسفة إسلامية .

ولا تريد بهذه الكلمة أن تبارى العلماء في
نظراتهم ، ولا الفلسفة في مذاهبهم . هذا الظن الذي
أصبح عند أعداء الإسلام عقدة العقد ، ومتعلق الهجوم
وشبهة من الشبهة التي يرصدون بها الإسلام ، عن قصد
أو عن اتباع أو سذاجة . فيجيبهم أن الإسلام شيء
والعلم والفلسفة شيء آخر . ويجعلون النقطة الأساسية
في التعارض ، هي فكرة التطور ، تطور العلم ، والفكر
(المذاهب الفلسفية) وثبات الدين والإيمان . وهذا في
إطاره الشكلي حق لا غبار عليه ، فالعلم والفلسفة

وأحمد عاطف يقول في كتابه: نقد الفهم العصري
للمفرد : الفكر العلمي ذي الطبيعة الواقعية والفكر
الديني ذي الطبيعة الميتافيزيقية .

الطريقة العلمية تنظر إلى الكلفة الظواهر قس
الوجود على أنها ذات وجود واقعي يتحقق في الواقع
وإن لها قوانين وأسباب وخواص المستقلة الواقعية
القابلة للتحقيق التجريبي التطبيقي . أي أنها بكلفة
تحدث الواقع كما هو دون اختلاف خارجية .

وأما طريقة التفكير التي يتميز بها الفكر الديني
بمختلف اتجاهاته ومراحله ، إنما تنظر إلى ظواهر الواقع
الموضوعي على أنها نتيجة ظواهر أخرى ذات طبيعة
مفارقة . تعلق على التحقيق التجريبي وتسمو على
البرهان المنطقي المستمد من حقائق الواقع ، وإنما
يسلم بها تسليماً لأنها تتجاوز حدود ادراك العقل
البشري .

هذه السببه المعروضة كان بالإمكان أن تكون
جاذبة ، بقطعة ، لولا كلمة الدجل غلبت عليه وكلمة
استقلال عند امام . هاتان الكلمتان اللتان تثيران
الانتباه ، وتأخذان حيزاً من الاهتمام ، وتشيران إلى
أكثر مما تريد الفكرة المطروحة . فالدجل والاستقلال
هنا ما يستغل في ذهن القارئ لتعميق المعارض بين
الاسلام والعلم . فليح القارئ كل ما تمتصلة إلى
العلاقات بينهما . فهل من المعقول أن يتوقف الفكر
الاسلامي عن التفكير في هذا المجال ؟ أم هي دعوة
إلى توقيف التفكير ذاته ؟ أنها حقاً دعوة مشبوهة . أنها
دعوة توجهم الساذج أن الاسلام لا يفهم إلا بعقيدته
وشعائره التعبدية . بيد أن العلم ينغمس في دراسة
الظواهر الطبيعية وجزيئات العالم . والفلسفة تنسج
العالم في تجريد يفرض أمضاباً الميتافيزيقا . فيؤلاء
يرون الأمر في عجزه تجريدات ورموز وعلاقات
مختصرة في كيان الإنسان . يردون العالم إلى الجواس
ويردون الفلسفة إلى العقل ، ويردون الدين إلى القلب
فالدين يعتمد في نظره على الإيمان ، فهو ذو طابع
عقائدي مسبق . والفلسفة تعتمد العقل فهي ذات طابع
تحليلي . والعلم يعتمد الحواس فهو ذو طابع تصنيفي
احصائي . بهذه النظرة الاختزالية قطع في أذهان
الناس العلاقات بين العلم والدين والفلسفة وإنشأوا
بين هؤلاء المشبوهين في اتجاهاتهم ، ويتنبهون أن
نقطة الاتصال والانطلاق تبدأ عندهما يصبح العلم الذي
يهتم بالجزيئات تصوراً كاملاً ، كلياً ، وعندما تصبح

الفلسفة مذهباً تركيبياً لأهم قضايا الوجود والمعرفة .
وليس هذا التناسي ، وذلك الاختزال ، عند استنفاذ
ومراجعة تعريف الطريقة العلمية عند أحمد عاطف .

هناك نقطتان أساسيتان حولهما كل الإشكال

1 - الطريقة العلمية . الظواهر ذات الوجود
الواقعي . الأسباب الواقعية . التجربة والتطبيق .

2 - التصور اللاحدي : وصف القوانين والأسباب
والخواص بأنها مستقلة . ونقي الاختلاف الخارجية .
فها تان الكلمتان في الحقيقة ليستا عن الطريقة العلمية
في شيء ، بل لتحديد الشروط التي وضعها للطريقة
العلمية نفسها . فهي ذاتها اختلافات فكرية لا علاقة لها
بالظواهر أو بطرق البحث الأساسية ، أنها ما يسمى
بالتصور اللاحدي .

هنا ينشأ السؤال التالي : هل الطريقة العلمية
لا بد أن تكون اللاحدية ؟ اللاحديون يجيبون بنعم ، أما
الواقع فيجيب بلا .

3 - فأننا إذا اعتبرنا الطريقة العلمية لا علاقة
لها بالتصور ، فإن العلم يكون معناه الطريقة نفسها .
أما التصورات فليست بطريقة علمية ولا بعلم ، وإنما
هي تعمد الطريقة العلمية . أما العلم كتعارفات مجردة
عن طرقه - فإثر غير واقعي ، ولا منطقي ، فلفظة العلم
تدل على كلى . أنه اسم جنس تشوي قية علوم كثيرة
وليس علماً واحداً شاملاً . وهذه العلوم متضاربة في
مبادئ عملها ، ومتضاربة في تفسيراتها ، ومتضاربة
في نتائجها . ومتضاربة في طرقها العلمية : فاولئك
الذين يجعلون العلم متطلاً لتصورهم مختلفون ، لأنهم
يتحدثون عن امر غير عيبي واقعي وهم الذين لا
يؤمنون إلا بالمحسوس ، والمادى المحسوس ولو قانوناً .
أما المعلومات فهي بعيدة عن كل التصورات اللاحدية

2 - إن التناقض الذي عومل بين الدين والعلم
لم يوضع في الاطار السليم الذي يحدد العلاقات
الأساسية بينهما . وعليه يترتب :

من اعتبر العلم اللاحدياً يقول بالتناقض بين العلم
والدين ، ويخلط بين لفظة العلم والطريقة العلمية
وبين العلوم وفروعها العلمية ، ويخلط بالتالي بين
لفظة العلم والعلوم والطرق العلمية وبين المعلومات
المحصل عليها .

ومن اعتبر الطريقة العلمية لا علاقة لها بالاحاد بالذات لا يقول بالتناقض بين العلم والدين .

3 - اننا عندما نقول ان لا تناقض بين العلم والدين نقصد الطريقة وحدها ، لاننا عندما ندعو الى العلم لا ندعو الى الاحاد ، ندعو الى علم انساني . بمعنى طريقة علمية تعتمد التصور الانساني بدل التصور الالهي . فالظواهر والوقائع وثوانيتها واساليبها وخواصها لا تقول عنها حتمية لان ذلك عن المستحيل والما تقول عنها اسلامية . واقعية . وهذا اصدق في التعبير عن الواقع واخرب الى الطريقة العلمية التي تبحث الواقع كما هو اسلاميا دون اية اضافة خارجية (تلك النتيجة التي تلصق بالمفهوم الديني لا بعدة عن مجال العلم) . فالعلم الاسلامي لا يضيف ما هو غريب عن الواقع . بل يدرس الواقع بالطريقة العلمية كما هو اسلاميا . ولذا فالتهمة التي توجه الى الدين بأنه يجعل طريقة التفكير تنظر الى الظواهر والوقائع على انها نتيجة لظواهر اخرى من غير طبيعتها . فهي تعلق على التجربة ، وتبني على المطلق ، ولا تدرك ، ويجيب التسليم بها . - كما هي في فكرة احمد عاطف - تهمة باطللة . وخلط شنيع بين الدين ، العقيدة ، التصور ، والعلم الاسلامي الذي يبحث الواقع الاسلامي بطريقة علمية اسلامية .

هذا الموقف يجعل سخرتهم للإذعة . وتحدثاتهم وتضليلاتهم السخيفة ، قاعدة كل قيمة ، وكل دعاية ، ويظهر خلطهم الشنيع . ففي فصل من كتاب احمد عاطف ميتافيزيقا الميتة الكوني . (وعليه فلا يد من اكتشاف العلم الحديث كله بين سطود القرآن) . ان لتري هذا الاستهزاء ، وهذه العلاقة التي يربط بها الدين بالعلم ادعاء وشبهة لا اساس لها من الصحة بل واظهر فيه سخافة الادعاء .

ومن الواضح ان هذا الموقف مرفوض من طرف الجامعيين . فالعظيم (1) ابان عن بطلانه بالفكر الماركسي وجعله على الفكر الديني (نقد الفكر الديني) . فأكد في فصل كامل على ضرورة فصل الدين عن العلم وتناقضهما المزعوم . وذهب في ذلك الى ان كل ما كتبه الاسلاميون لا يتعدى التوفيق ، فهو اما توفيق خطائي واما توفيق تبريري . واما توفيق تعسفي . واقام هذا الموقف العدائي السافر على نقطتين :

- 1 - صادق جلال العظم نقد الفكر الديني . احد اساتذة الجامعة الامريكية في بيروت .
- 2 - يدخل الى الفلسفة امام عبد الفتاح امام .

1 - عدم الفصل بين النظرية والمنهج العلمي .

2 - الدين اسطورة وميتولوجية .

ان كان العظم - خليفة من خلفاء روزنة اكبر صافن على الاسلام في القديم - لا يقتنع بالدين . ويعتبر ميتولوجيا فان ذلك لا يغير . ولن يغير من الحقيقة الاكيدة حاضرا ومستقبلا وتاريخيا . حيث . فالفلسفة والعلم كلاهما قد افرا ما يسمى بالخبرة الدينية . وقد اطلقوها على الاديان وطقوسها ، وعلى المسامر الموسيقية والفنانات الفكرية . بصفة عامة . وبالتالي على المواقف المتضادة للخبرة الدينية نفسها . ويحصرون الخبرة الدينية بذلك في تفسيرين . (التفسير الايجابي وهو ما يسمى عادة بالايضان . والتفسير السلبي او ما يسمى عادة بالالحاد) (2) .

هل بقي بعد هذا مجال للاستطورة والميتولوجية ام ان الاحاد (الجانب السلبي من الخبرة الدينية) يعد هو الآخر اسطوريا وميتولوجيا . في الحقيقة ما دام العظم عرف الانسان بأنه خرافي . يخلق الخرافة ويعتقد صوابها . ولجزم بحقيقتها . فان تعريضه الالحادية . وانهاية للدين بالميتولوجية . لا يخرج من الاتهام نفسه . فالعظم بتعريفه هذا يضع نفسه بنفسه في اطار ونقص الاتهام . فلم يتهم الدين فحسب بل اتهم الالحاد كذلك .

هذا التحريف - حسب تعريفه - يستمر ويتعمق في فكره الالهادي . دون وعي منه . فتراعى معارضي الفصل بين الجانب السلبي في الخبرة الدينية وبين المنهج العلمي . فمن الثابت ان النظريات التي لم تثبت صحتها فكريا وما زال النقاش حولها . ولم يصل العلم فيها الى نتيجة . على وحدها التي يكتم فيها راضخة الالحاد . وهي التي خرجت عن طرق البحث العلمي الخاد . سواء كانت النظرية الدروينية او النظرية الفرويدية او النظرية الدوركيمية . او النظرية الماركسية اما النظريات الدينية . سواء في لياتها او تطورها . فهي بعيدة كل البعد عن الالحاد . وبعيدة عن الجدل فالكمل يقرها الى غاية ظهور جلايد يغير من المعرفنة السابقة .

إن هذا الاختلاف بين هذين التوجهين من النظريات منزهة من حيث الجدل والتناقض وعدم التمسك بها . أو عن حيث ثباتها الدائم ، أو من حيث اقارحها كليا دون جدل . واعتكالية تغيرها لأنها قابلة للتطور والنمو . يجعلها تشكك حتى في غاياتها ومقاصدها وخاصة أن النظريات الدروينية والفرويدية والدوركيمية والماركسية أصبحها كلها من اليهود وكلهم يعملون على تخريب الإنسانية من كل جانب . هذه النظريات الخرافية في أساسها المشبوبة في غاياتها يعارض العظم بها الدين ويرفض بها أن يفضل المنهج العلمي عن النظريات اللاعنادية . ويرد في كتابه نقد الفكر الديني على الشهيد سيد قطب (الذي رفض كل النظريات الإلحادية وتشيت بالمنهج العلمي) قديما أن ذلك غير ممكن نظرا لارتباط النظريات المرفوضة بصميم المنهج العلمي .

وقد قلنا سبقت أن هذه التوجه من النظر لا يقر بها الواقع ، فأغلب العلماء اليوم في العالم مؤمنون (انظر كتاب : الله يتجلى في عصر العلم) . وأغلب الطلبة العلميين في الشرق العربي من الإخوان المسلمين (انظر (3) مجلة الحوادث اللبنانية في تعليقنا وتلخيصنا لمحاضرة عبد الله العروي الماركسي ، كمشاهدة عنهم على ذلك) . وأغلب الكتاب اقروا للمسلمين باكتشاف المنهج العلمي وتطبيقه ، ونشير إلى واحد عنهم فحسب . فها هو الدكتور النشار يثبت في كتابه عناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، كيف اكتشف المنهج العلمي في العالم الإسلامي ، وكيف أن الجماعة الإسلامية لم تقبل المطلق الأرسططيالسي حيث الخشونة للدراسة والتعميق ، بل رفضته وحرقته شر تهميق ، وأنتهت منهجها الإسلامي المستند إلى القرآن والسنة المعبر عن روح الإسلام الحقيقي ، وأن البعث الحقيقي للروح الإسلامية وللأمة الإسلامية هو العودة إلى الكرامة إلى هذا المنهج . وهذا المنهج عمليا طبقه الأصوليون والعلماء المختصون بالطبيعة أو الكيمياء أو الطب وغيرها من أنواع العلوم ما عدا في علم الكلام والفلسفة المشائية . هذا المنهج العلمي الاستقرائي الإسلامي كان طريقا لمعرفة الكون والحياة والإنسان ، موضوع العلم

أي العلوم عموما ، ولم يتناقص ذلك مع سح الإسلام بالتعارض بينهما عروق فهو لم يحدث في طبيعة الملائكة ولا في طبيعة الروح ولا في حقيقة الماعية ، ولا في الصبات عموما فموضوعه كان عالم الشهادة عالم الواقع كونا وحياة وإنسانا .

الآن إذن ، ليس كبا يحاول الجاهليون أن يقتعوا الناس على أساس التعارض بين موضوع الدين وموضوع العلم ، أن بين اختلاف المبادئ التفكير بينهما أو في اختلاف طبيعتهما . فهذا التشويه في المقارنة لا مكان له أمام المنهج الإسلامي العلمي الذي يدرس الواقع والظواهر المحسوسة .

أن نخل الاختلاف الطبيعي لا يمكن إلا في المسلمات والنظريات التي تحتاج إلى آيات ، تحتاج إلى تخرية لاحقاقها ، مثلا كمثل النظريات اليهودية السالفة الذكر .

بين الدين والفلسفة

من عقد المسلمات والنظريات ، وخاصة عندما تصطبغ بالشمولية والكلية لتسرب إلى العلاقة الثنائية بين التصورات العلمية ، القائمة بدورنا على تلك المسلمات والنظريات ، والتصورات الفلسفية ومذاهبها ونسبقاتها ، تنبأ العلاقة بين الإسلام والفلسفة .

وقبل كل شيء نناقش عقبة الشبهات التي توجه إلى الإسلام فالمفروضون كما خلقوا شبهة التناقض بين الدين والعلم ، ادعوا في مجال الفلسفة بكل تضليل أن الإسلام يحجر الإنتاج العقلي ويمنع الابتكار ، فالفلسف في نظريه يقتضي الأحاد .

وهذه الشبهة لا تطرح اليوم على الصعيد الفلسفي فحسب ، بل تطرح على المستوى الأيديولوجي والاجتماعي الحضاري . لهذا ما قدم عليه عبد الله العروي (4) بكل صراحة ووقاحة : مدعينا أن الإسلام الأيديولوجية ، يعملان على تعميق التخلف والتأخر ، والجمود العلمي والفكري ، والركود الاجتماعي ، فيفقد ضد التاريخ وحركته (5) . . هذه الشبهة في الحقيقة

3 - «الحوادث اللبنانية العدد 900 حتى 8: 7.

4 - عبد الله العروي في كتابه «الأيديولوجية العربية المعاصرة ، والعرب والفكر التاريخي» .

5 - هذه الشبهة طرحتها المستشرقون عامة ، وناقضها مالك بن نبي في كتابه: وجهة العالم الإسلامي كحقيقة واقعة سماها بالقابلية للاستعمار عموما .

حقيقة الواقع معكوس ، فالأيدولوجية الإسلامية - كما قال هو نفسه أي العروقي - تقف في وجه الماركسي وتؤخر تسريته ، ونجاحه في العالم الإسلامي . وهذا برهان قاطع على تفوقها السباح في مواجهة الماركسية .

أما الفلسفة في حد ذاتها - أن تخرج الإنسان عن تحديد معناها لغويًا ، ومبدئيًا مجردًا ، مواقف متناقضة ومختلفة أشد الاختلاف ، فطول مدة الزمن التاريخي للمفكر الفلسفي جعل المواقف فيها تتباين ولا في الغيبيات عمومًا ، فموضوعه كان عالم الشهادة مع روح كل عصر عن العصور - فيدلت الفلسفة التقليدية بالعصر اليوناني حسب ما تدعيه العقارة الغربية حيث بدأ الطبيعيون يبحثون في أصل الوجود وعندها ، وتصوره ، ثم تطور الموقف في عهد البروتستانت والأيثوريين ليصبح الاهتمام بالإنسان ، والأخلاقي والفضيلة ، ثم تطور ليصبح توفيقًا بين العقل والوحي ورغم هذا التطور في مواقف الفلسفة استلهم روح العصر اليوناني في فهم الفلسفة .

أما في العصور الحديثة فقد أصبحت الفلسفة تبحث المعرفة في مصدرها ، في حدودها ، وفي طبيعتها مما جعل البحث في الوجود يقوم على نظرية المعرفة هذه . هذا التطور الهام الذي حدث لم يخرج في عموميته عن إطار الفلسفة القديمة في كل أبعادها . فقد استمر الاتجاه التقليدي مهيمنًا إلى ديكرت وميتمودا ولينتز وكانت وبيجل وغيرهم .

ولكن هذا التغير وهذا التطور في الحقيقة لم يكن تغيرًا أو تطورًا عاديًا ، بل صحبته تطور جديدة البنى عند مواقف تنبئ لا يمكن حضورها في المرحلة الأولى الوجودية ، فبذلك تغير في المبحث من وجود إلى معرفة ، وهناك تغيير في المخرج من عقل أرسطو إلى منطق استقرائي ، وهناك تغير من الشمولية إلى التخصص ، وهناك تغيير في العقائد من إيمان إلى الحاد وهناك . . . وهناك . . . كل هذه العوامل وغيرها جعلت مواقف جماعة الفلسفة التقليدية تنمو وتوسع وتتباين معًا أشد التباين ، وتختلف معها أشد الاختلاف فلدت الفلسفة الوضعية ، والوضعية المنطقية ، ونشأت الفلسفة البرجماتية ، ونشأت الفلسفة الماركسية ، ونشأت الفلسفة الوجودية ، ولكل منهم اتجاه وموقف من الفلسفة التقليدية .

ولا يفتأ هنا الا فوقين اثنين من تلك المواقف . موقف الفلسفة الوضعية ، الذي تفرع أول الأمر كاتجاه مغاير للفلسفة التقليدية ، ولم تكن آنذاك ماركسية ولا برجمانية ، ولا وجودية . لقد كان السائد اتجاهًا وضعيًا عامًا يقف ضد كل ما هو قديم ، ويميل إلى كل ما هو جديد وتجلى في أوائل عهده بموقف يكون التجريبي ، ثم تطور أكثر على يد أوجست كوت الذي اعتبر بحق أبو الوضعية ، ولكن هذه الوضعية كانت مجرد اتجاه علمي استطاع فيها بعد أن بنى لقبه عليها جديدًا يشمل المجتمع كله والتاريخ كله . هذه النشأة كانت علامة عصر جديد يهتم بشمولية الحياة والمعرفة والمجتمع والتاريخ .

هذا الموقف الوضعي العلم تطور إلى موقف أكثر صلابة ، عندما تعددت المواقف وكثرت ، فمن الفلسفة التقليدية التي ازدادت انحصارًا ، وازدادت معها تخصصات الفروع العلمية . فبذلك الشمولية التي كانت تطل على العالم المحسوس قلت بسبب هذه العلوم التي تعددت واختصت بكل الفروع الفلسفية القديمة ، وباتت الفلسفة أكثر وضوحًا في موضوعاتها المجردة عن وجود إلى معرفة إلى قيم . . . أقول إن هذا التقيس في الفلسفة من جانب ، وفي الاتجاه الوضعي من جانب آخر ، هو الذي صلب الموقف ضد الفلسفة فلم يعد لهذا الموقف من موضوع يستطيع ممارسته إلا تحليل الألفاظ وربطها بالمعطيات الواقعية ، أو تحليل المسلمات والتطبيقات العلمية تحليلًا لغويًا منطقيًا . . . وبهذا خرجت الفلسفة عن التركيب إلى مجرد التحليل وهذا في رأي علامة عن بؤس هذا الاتجاه رغم ما قام به فلاسفته من مجهود لاستهواء نفوس المعاصرين .

اذن ، هناك موقف وضعي يتطور يناقض موقف الفلسفة التقليدية تنبئًا مع روح العصر ومعطياته العلمية . فالموقف التقليدي يجعل موضوع الفلسفة تأمل في الوجود لذاته وفي ذاته أو تأمل الوجود من خلال المعرفة دون غرض معين غير البحث عن الحقيقة في ذاتها . البحث في الوجود بما هو موجود حسب التعريف التقليدي للفلسفة . أما الوضعية المنطقية فتهم بالتحليل اللغوي ومبدئ مبدوليتها في الواقع العي المسخر المحسوس . لأنها تعتبر الفلسفة التقليدية تخلق مشكلات لا حضور لها عن مجرد استعاليها للألفاظ لا مدلول لها ، ولا أصل جسي لها ، وكل كلمة عن هذا القليل تعتبر زائدة ولا فائدة

متناه ، وكل كلمة لها مدلولها الخاص فهي كلمة حادثة
تعبير عن حقيقة قائمة ، وقد وصل بعض هؤلاء الفلاسفة
الى حد نفى المادة اطلاقا .

ان التيارات الفلسفية اليوم تتوفا تقف ضد
الفلسفة التقليدية في مناهها العام وقد يكون حتمى
الخاص ، فكما لاحظنا موقف الرضعية في تطورهما .
هناك تيارات اخرى كلها تقف نفس الموقف ولكن
موقف على اكثر منه موقف تحليلى مما جعلها ترتبط
بزوح العصب . وتعبير عنه بكل نزواته وميولاته سواء
كانت تهتم بالفرد أو كانت تهتم بالجماعة أو بالمتفعة ،
فالمعامل المشترك بينهم هو العمل من اجل هدف معين
اجتماعيا وتتلخص هذه التيارات في الماركسية
والبرجانبية والوجودية

ولا اود ان استعمل في العرض اكثر مما فعلت ،
لان المقصود ليس العرض في ذاته وانما التنبؤ الى
ان الفلسفة في مواطنها الاصلية لم تعد شيئا يذكر
فالابتعاد عنها في شتى الاشكال هو شغل كل فيلسوف
معاصر . فالابداح لم يعد في الابداع الميتافيزيقية
وانما تحول الى الابداع الاجتماعية ، وهذا كما انى ليفقد
كرد مقنع لمن يطالب بالابداح العقلى المجرد حتى
يرضى على موقف من المواقف الفلسفية . فالامر ليس
كأننا في الانتاج العقلى الناضج او عدم الابتكار . كما
يحاول الابداعيون توعيم الناس . انه كائن في المذاهب
المختلفة على نفسها ، تلك المذاهب التى يظن اصحابها
انهم قد فسروا كل شيء ، وانهم قدوه الحلول النهائية
لما يسمى بمشكلات الوجود والحياة والانسان . هذه
المذاهب تطير غطرسة الانسان وغروره ، انها بطيئة
النبية ، ومطية الاختلاف . فاصحابها يؤيدون انفسهم
وعقولهم واغراضهم ، وحتى بذلك تقتضى الاتحاد
والشرك فتنافض مع الاسلام

وقد يسأل سائل ، اليسنت هذه المذاهب حتى
الفلسفة نفسها ؟ وهنا يكون الجواب ان الفلسفة في
حد ذاتها ليست هي المذاهب الفلسفية . فهذه المذاهب
نفسها مختلفة في معنى الفلسفة . ولم تتفق على تعريف
يحدد لها . ولكنها جميعها تحزم حول موضوع واحد
ومسلمات ، وتستعمل التحليل والشركب المنوع
غالبيا . فالمذاهب الفلسفية معطى اولي وكلها عملية
الفلسفة نفسها وليس اول على ذلك من المذاهب
الفلسفية المضادة لها .

فالفلسفة العلمية وضعية أو ماركسية ، ليست
الا نموذجين يعيدان عن العلم ومناهجه وأصوليه
ومعطياته وان كانا عنيتمين بتحليل معطياته سواء في
العلوم الاجتماعية أو الفزيائية أو الكيميائية أو الرياضية
او غيرهما . فتحليلاتهما تبقى دائما قابلة للخطأ
والغشوب ، قابلة للتجاوز علميا وفلسفيا . فهما ليستا
الا تصورات تكميلية للمعلومات وحقائق علمية فالتصور
المكانيكى للكون أو التصور الجدلى للكون ، ليس لهما
من الارتباط والعلاقة بالعلم الا بكونهما يتنصر دائرى
وعنصر اضافى خارجى عن المعلومات العلمية . وما
دامت هذه التصورات قابلة للتجاوز ومعرضة للصواب
والخطأ ، فانها لم تضع الاسس الكلية للحقيقة ، تلك
الحقيقة الثابتة ، الشاملة ، فالاجزاء او الافتراض ، او
التعدد او الثنائية لن تكون في تركيب فلسفى او
تصور كلى سليم الا في اطار حقيقة الحقائق . حقيقة
الاسلام القاعدة الكلية الجامعة الموحدة : الاسلام
الوجودى ، الكونى ، العالى ، العيالى ، الانبائى ، الاجتماعى ،
التاريخى ، الحضارى . وهذا فهو ليس
العقيدة او الايدولوجية الكامنة في ذهن الانسان
وعقليته ، تلك العقيدة او الايدولوجية التى تقول عنها
الماركسية انها انعكاس للواقع المادى ، وانها ذاك الوجود
الكونى العالى الفعلى الحقيقى الذى يشمل كينونة
الانسان والعالم ، يشمل الموضوع ويشمل الموضوع
هذه الوحدة وحدة الاسلام من خلال وحدة الوجود
والكون العام فاجد ابعادا ثلاثة : بعد فعلى وبعد
ايدولوجى وبعد اجتماعى .

والبعد الفعلى في شموليته وكميته هو قيسر
التركيب والمزج ، فليس المقصود منه جعل الفكرى
موضوعيا او الموضوعى فكريا ، ولا جعل الفكر يسوق
على الموضوعى ولا هو انعكاس له ، انه البعد الاساسى
سواء في الانفرادية ، او الثنائية او التعدد في مكونات
الكون ، انه البعد الفعلى . فهو ليس تفسيرا للعالم
والحياة والانسان ، بل هو نفسه حقيقة العالم والحياة
والانسان ، وهو ليس ايدولوجية اجتماعية ، بل هو
الوجود الاجتماعى نفسه ، انه ما هو فعلا انه ما هو
اسلاما .

اما البعد الاجتماعى للاسلام فهو نقطة الفصل
والتحدث مع الجاهلية ماركسية وبرالية ، فهو يتفصل
عن الشيوعية انفصالا تاما لما له من امتداد اجتماعى
حضارى تاريخى . هذا الامتداد الذى يصعب تخيلونه

وتجاوزه اجتماعيا ، فمفهومه الاقتصادي والسياسي والثقافي ، فسلوكه الاجتماعي والاخلاقي مبين ومختلف عن الامتداد الاجتماعي الشيوعي ، فهذا الأخير تفسير وتفسير للهيكلة الاجتماعية وخاصة من الناحية الاقتصادية في حين ان الامتداد الاسلامي يخلق الفعل الاجتماعي اسلاميا عن طريق تبوير المجتمع (لا اله الا الله) ومن هناك يخلق التجدي الصارخ للماركسية ايدولوجيا اجتماعيا .

والبعد الاجتماعي في الاسلام ينفصل عن الليبرالية كمفهوم ماركسي اخلاقي كالجوديه او كمفهوم اجتماعي كالديمقراطية والرأسمالية الممارس تفتلان عن الحرية الفردية محور الحياة الاجتماعية وتصورها . فالحيات هي خلق للعلاقات الاجتماعية تلي اساس من عداية الله في الكون وهذا متعلق يناقض الليبرالية في الامس .

اما البعد العقائدي الايدولوجي فهو تلك المتطورة كتفسير فلسفي وتصور عام للكون والحياة والانسان من حيث الاعتقاد وينطلق للحياة الاجتماعية فهو يواجه الواقع ويعمل على تطويره فالايديولوجية

سوبر وليست انعكاسا للواقع . فهي البوابة بين البعد الفعلي والبعد الاجتماعي .

ان هذه الابعاد تفتح توافد للفكر الانساني على العالم والحياة والانسان دون ان تجد من عيالاته ودون ان تجد من موضوعاته . ودون ان تجد من ماضيه ، فموقف الاسلام عن الفلسفة ليس الا موقفا عن المواقف . موقف لا ينفصها كما تقاتل الغريزون انفسهم الى اعتقادها ومبتدعها ، ولا يمتنعها كما يدعي دعايتها . فما تلامس بها مع الحق فهو حق ، وما يختلف منها مع الحق فهو باطل . وخير ما في اعتقادها انها تفسر للكون والحياة والانسان ، وايديولوجية للحضارة والتاريخ والمجتمع ومن هنا فهي ليست مبالاة الى الفلسفة التقليدية . ولا هي مبالاة الى المواقف المعاصرة من الفلسفة بل تجمع كما لاحظنا البعدين معا . وفي نسخة فكرية كمنحة الفسحة لا يعقل ان يقول انسان انها تجد عن الابداع التفكير . لان الميغال واسع اعلم العقل في الابداع . ولا يمكن ان يقول انها تحجر التاريخ وتوقفه لانها هي نفسها عامل خلق التاريخ والحضارة .

تطوان . محمد العربي الناصر

وصية امرأة عاقلة

أوصيت اسماء بنت خزيمة العزاري انتهت عند التزوج فقالت : « انك خرجت من العشر الذي فيه درجت ، وصرت الى قواش لم تعرفينه ، وقرين لم تالفيه . فكوني له أرضا يكن لك سماء . وكوني له مبادا يكن لك عمادا . وكوني له أمة تكن لك عبدا ، ولا تلخفي به فيكلاك ولا تباعدني عنه فليسك : ان دنا منك فأقرب منه . وإن بعدك فأبعد عنه . واحفظي ألقه ومنعه بعينه . فلا يسمن منك الا طيبا . ولا يسمع الا حسنا . ولا يتظلم الا حفيلا ... »

صورة العالم الاسلامي

في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري

للاستاذ عبد الهليم عويس

- 2 -

الاندلس ما استقامت امورهم ، قلنا جاء خلفاء ضعيفون
النفوس متغيبون في الشهوات ففسد امرهم ، وأخذت
الدولة الاموية في الضعفة (2) .

ويعتبر تولى هشام الثاني المؤيد المحكم - وهو
ابن عشر سنين سنة 366 هـ وبمطرفة امه اصبح عليه
وتركها امور الدولة لمحمد بن ابي عامر المنصور - .
يعتبر حكم هذا الخليفة الصغير بداية انحلال البيت
الافوي (3) ، ولم يمض عقدا من الزمان حتى كان
الحاجب المنصور ابن ابي عامر قد جعل من نفسه
- عر كفاج شاب وذاكي - الخليفة الفعلي وراى أسرة
من الامير الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، وقد احس
الخليفة هشام الذي كان قد شب الطوق ، بأنه لا يعدو
ان يكون اسيرا في قبضه ، محجوبا عن الناس ، محظيا
عن دفة الحكم (4) كزامله العباس في بغداد . وكان ميله
الفاطمي بعد سنوات قليلة في القاهرة ، ولئن كان ابن
عم هشام الملقب بمحمد بن هشام الثاني (المهدي)

ولئن كانت الخلافتان العباسية والفاطمية قد آل
اخرهما الى هذه الحال ، فان الاندلس الاسلامية كانت
تعرض لما هو أشد وأبكى ، فإذا كان صراع
مذهبي او جنسي ، او صراع على السلطة يمرد ارض
الملايين ، فان الحفا من كل ذلك كانت تسود الجزيرة
الاندلسية . ففي الاندلس اجتمعت قوميات مختلفة
متمافرة قل أن يلتئم شملها او يبدأ لها صراع ، كان
هناك العرب بفسهم وكنيتهم ، والقبائل الذين يختلف
مشايرهم باعتبار عدم امسرى حرب او امسرى قرصة
مختلفى الجنسيات ، والمسلمين الذين لا يزعمون بغير
الاحكام مخالفت الرضاخ افلافا يضاد الى ذلك
ان النصارى في اسبانيا وفرنسا كانوا ينظرون الى
المسلمين من غريب ويزرون على انهم اعداء دين ، وغزاه
فأصبحوا ، ودخلوا غاصبون (1) .

كأنت الاندلس تحكم بخلفاء امويين من اققاب
عهد الزحمن الداخل ، وقد استمر حكم الافويين في

(1) ظهر الاسلام ج 3 ط 2 احمد امين ص 222 مكتبة النهضة المصرية .

(2) نفس المكان السابق .

(3) انظر جذوة المقياس في ذكر دولة الاندلس للمجيدى ص 78 - 79 المدار المصرية للتأليف والنشر
1966 وانظر موسوعة تاريخ العالم احدها وليم لانجر الشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى
زيادة ج 1 ص 150 .

(4) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية ج 2 (الاميراطورية الاسلامية وانحلالها) لبروكلمان ص 165
(تعريب الدكتور تبيه فارس ومترين البعلبكي ط 1 دار العلم للملايين) .

(9) «كما يصف لنا - نقلا عن ابن حيان كذلك - حكم المستكفي الذي يبيع على قرطبة سنة 414 هـ - 1023 م. بعد قتله لعبد الرحمن المستظهر يستغفده بعض الأزدال والذي تمكن في الحكم سبعة عشر شهرا .. يصف ابن بسام ذلك بقوله : «ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في ورد ولا صدر ، وإنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة مخنة وطنية ، إذ كان منذ عرف عقلا عطلا متقلعا إلى البطالة مجبولا على الجبن ، غاطلا عن كل خلة تدل على قصيلة ، عشيبة الفتنة ، فاجلق حتى استجار طلب الصدقة ، رأته - أي ابن حيان مؤرخ الاندلس - أيام الحسب وأهل بيته في الدولة الحمودية ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير امره ، يقصد أهل الفلاحه أو ان تسبهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تمكينا ومخاطبة(10)» .

هذا ما وصل اليه امر الخلفاء من بني أمية في الاندلس ، وأما بقية عترة الأشراف الأيوية «فمقتلس بهم الزمان وغير أحوالهم الحداث ، وكان بقرطبة منهم طائفة غاضبة السخووس قد قطعوا بأخلاق العوام(11)» . . . وهكذا انقرض ملك بني مروان بالاندلس على رأس غائبين وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوما(12) .

ويستقط الدولة الأيوية اتخذت إسبانيا المسلمة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) «إلى معترك مروع من التمزق والوضي واستتال الاندلس بعد أن كانت كتلة فوخته تبتد من ضفاف دويره شمالا إلى مضيق جبل طارق جنوبا ، ومن شاطئ البحر الأبيض من طركونة شرقا

قد استطاع بمعونة الأمويين أن يصل إلى الحكم في محاولة أخيرة لإعادة خلافة بني أمية المتداعية (5) (17) جبادي الآخرة سنة 390 هـ - 1008 م) فإن بني أمية في الاندلس فلم يكونوا ليصمدوا في ميدان النضال طويلا ، ذلك أنه لم تكن لهم بعد العواصم الأدبية التي جعلت بعض طوائف الشعب تحت لوأهم قوة عادية يعتد بها (6) «كما أن الظروف التي وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم الذي أدى بين عشية وضحاها سلطان دولة من أعظم الدول الإسلامية - الأيوية في الاندلس - لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وتستقر(7) ، فلم يمتد قليل حتى وقعت بين الخليفة البهدي وبين البربر فتنة أدت بحياته ، وأعادت الخليفة عضدا المؤيد إلى الخلافة(8) بعد غيبة أربع وثلاثين سنة عنها ، وكان ذلك على رأس القرن الرابع الهجري . وفيما بين سنة 400 هـ (1009 م) - واستقط الخلافة الأيوية سنة 422 هـ - 1030 م كانت الفتنة الكبرى التي لعب البربر والعرب فيها دورا خطيرا انتهى بالنتيجة الطبيعية وهي ظهور عصر من أسوأ عصور الاندلس الإسلامية عرف بعصر ملوك الطوائف .

ويصف لنا ابن بسام - نقلا عن ابن حيان - الأعرام السبعة (100) - 407 هـ - 1016 م) التي حكم فيها سليمان بن الحكم الأموي قرطبة بأنها كانت «شدادا تكذبات ضبابا مشؤومات ، كزيادات الميخدا والفتاحة ، قبيحة المتنبى ، والفتاحة ، لم يقدم فيها حيف ، ولا فوريق فيها خوف ، ولا تم فيها ضرور ، ولا فقد محذور مع تغير السيرة ، وخرق الهيئة ، واستتغال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وطقن الأمن ، وحلول المخافة

(5) انظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 86 ، 88 وما بعدها ، وانظر الدولة العافرية - محمد عبد الله عتار ص 146 ط 1 مطبعة مصر 1958 .

(6) دول الطوائف ، محمد عبد الله عتار ص 13 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(7) انظر الدولة العافرية ص 146 .

(8) انظر المعجب ص 86 للمراكشي تحقيق د. محمد سعيد العربي ، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1963 .

(9) الأخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الأول ص 25 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1938 . وما بعدها . اشراف قسم اللغة العربية بكلية آداب القاهرة وانظر المعجب ص 90

(10) الأخيرة القسم الأول المجلد الأول ص 380 وانظر المعجب للمراكشي ص 107 .

(11) الأخيرة القسم الأول المجلد الثاني ص 119 .

(12) انظر ابن الأبار في الخلافة المنيرة ج 2 ص 8 بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مطبعة لجنة

التأليف والترجمة والنشر ط 1 سنة 1963 .

حتى شاطئ المحيط الأطلنطي غربا ، إلى أشلاء غمرقة ورقاخ متناثرة لا تربطها أية رابطة مشتركة (13) .

لم يكن ملوك الطوائف الذين تنسبوا ذوا الأمر في الأندلس بعد ضياع دولة الخلافة الألفونسى الأولى يدق مؤذنا يعيىب شمس الإسلام في الأندلس . ومن المعلوم أن فترة الغروب قد امتدت أكثر من ثلاثة قرون . بتأويل المساعدين التى كانت تعبر جيل طارق آنا من المرابطين ، وآنا من الموحدين ، وآنا من غيرهما ، وفعل التفكير المسيحى الذى كان يشكل الجبهة المتعاقبة . لكن آيا كان الأمر ، وضع هذا استطاع أن يقدمه عهد الطوائف هذا من معطيات قيمة أدبية ، فإن حركة التاريخ كانت تسير فى خط معاكس لحركة الآداب والفنون ، ولم يشجع النزف الفكرى الذى اتسم به هذا العهد ، فى أن يحول دون أن تكون الأندلس - إحدى صور السدود عن القاعدة القائلة بثبوت المدينة العربية البدائم حيثما تخلت أقدم المغرب (14) .

كانت النزعة القومية على السائدة فى الأندلس على عهد ملوك الطوائف هؤلاء ، وبدلاً من خليفة يحكم باسم الإسلام كل الأجناس التى تدين بهذا الدين ، انقسمت الأندلس وفقاً للطوائف الموجودة فيها إلى ثلاثة أقسام : العرب والمصنالية والبربر ، وهى ثلاثة أحزاب متنازعة . أما البربر فيزعامة القواد (زاوي بن زيري وأولاده) سيطروا على الجيئات الجنوبية ، وقسموها بينهم ، بينما سيطر الصغالية على شرق الأندلس . أما باقى البلاد فكانت بين أسرات العرب (15) .

ويعتبر سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس سنة 422 هـ (1030 م) أول سقوط لدى خلافة إسلامية ، ويعتبر هذا التاريخ السابق هو التاريخ الحقيقى لبداية رحلة ضياع دولة الإسلام فى الأندلس .

(13) الدولة العاصرية ص 128 . انظر دول الطوائف ص 11 .

(14) العرب تاريخ دوجن 210 فيليب حتى .

(15) انظر مجاهد الجامرى - رسالة ماخستير لكليلا سارنلى تشركوا ص 51 . الطبعة الأولى .

وانظر تاريخ الشعوب الإسلامية (الإمبراطورية الإسلامية وانتحلالها بركوفمان ص 68 .

(16) أذهار الرياض ج 1 ص 66 طبعة لجنة التأليف سنة 1939 ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين .

(17) انظر مجاهد الجامرى الطبعة الأولى ص 30 .

(18) المسنونون فى أوروبا فى العصور الوسطى ص 244 دكتور إبراهيم على طرخان ، نشر مؤسسة

سجل العرب 1966 - سلسلة الألف كتاب .

ولقد بلغ عدد دول الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية أكثر من عشرين دولة متعاصرة ، موزعة بين البربر والعرب والمصنالية وثلاثاً بينها من الجفاسد ما أغور ذقعة ، وتعدد وتره وثقته ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه (16) . وبدلاً من أن تتحد قواهم فى مواجهة عدو صلبى مشترك ، تشتتوا وتقاتلوا حتى تسعفت قواهم ، فلم يستطيعوا أن يعسندوا أمام هجمات النصارى الذين استطاعوا أن يزغوم حتى اضطروهم إلى قطع الجزية . كذلك كانت جروبهم الداخلية هذه سبباً فى أن يستنجد بعض هؤلاء الملوك بقوات من النصارى ، ليستعينوا بهم على منافستهم من الملوك المسلمين . مما أتاح الفرصة للنصارى أن يتسوا أقدامهم ، وأن يكونوا بمثابة خنجر تطعن به ظهر الدولة الإسلامية فى القلب (17) . وهذه الاستعانة بالأعداء تشمل إحدى عوامل الهدم الكبرى للقوة الإسلامية فى إسبانيا (18) .

على أن الأمور لم تقف فى صورتها القائمة عند سقوط الخلافة الأموية وصيرورة الأندلس إلى الحال التى صارت عليها ، بل إن الخلافين اللتين انفردتا بزعامة العالم الإسلامى زعامة روحية رمزية فى بغداد والقاهرة ، لم يقف الأمر فيهما عند الغوضى التى ذكرناها آنفاً ، بل ظهرت نزعة الطائفية القومية فيهما على نحو قريب من حال الأندلس ، ففى دولة الخلافة الفاطمية بدأ المغرب العربى يتفصل انفصالا حقيقيا منذ السنوات الأولى للقرن الخامس الهجرى - كما ذكرناه وقبل الإرتباط شكلها ومصلحها إلى سنة 443 هـ 1051 م ، حيث وقع الانفصال الرسمى .

ولم يقف أمر استقلال المغرب العربى عند الانفصال عن الفاطميين والتبعية الرمزية للعباسيين ، وإنما انقسم كذلك على نفسه ، فأصحاب طرابلس

والحماديون ، وأصحاب غربي تونس والجزائر ، لم يكتفوا بما لديهم من حكم ذاتي (19) ، بل ابرغوا وأعلنوا استقلالهم عن الدولة الزيرية التي ورثها عن الفاطميين بلكين بن زيري ، فقد اقتطع حمادي بن بلكين - مؤسس الدولة الحمادية - ازمالك المقرب لنفسه أيام ابن أخيه ياديس بن المقصور بن بلكين ، ما بين جبل - أوراس - الى تلمسان وملوية ، واخط القلعة بجبل كرامة ، واستحدث ملكا آخر قسما لملك آل ياديس (20) ، وكذلك انقسمت الدولة العباسية على نفسها ، فظهر بنو ساسن فيما وراء النهر وخراسان ، وظهر العلوية في الديلم وطبرستان ، وآل ذلك الى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى بغداد والخلفاء ، ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ، ثم انقسمت دولتهم بعد استقلالها (21) .

فمن انفصال قومي عن دولة الخلافة باعتبار الجنس . ان انفصال آخر عن الجنس باختيار الوطن ، وبين كل ذلك كانت تتحرك عوامل اخرى كاختلاف في العقيدة المذهبية ، وكبحث عن السلطة والقيادة . وكأيد صليبية وجمهورية خفية وظاهرة كانت تغذي هذه الانقسامات وتشجعها ، وصولا الى اهداف خاصة ، يدعم ذلك ما عرف عن المكانة التي تمتع بها اليهود والنصارى في قصور الخلفاء - لا سيما الفاطميون - بواسطة علمهم بالحجوم او الطب او امور السياسة .

ونحن نقرا في تاريخ هذه الحقبة من اثناء هذه الطوائف ما يؤكد لنا تضيقهم الامور على نحو يتقدم اغراضهم البعيدة والقريبة ، وقد ذكر العلامة غريغوريوس المنطى المعروف بابن العبري المتوفى سنة 685 هـ 1286 م الكثير من اخبارهم (22) مثل اخبار رينج بن رشم الكوشى (23) ويعقوب بن كلس (24) وزيار الفاطمي (25) وفتصور بن مقسر النصراني الطبيب صاحب الكلمة السياسية في قصر العزيز الفاطمي ، والمتمم ابن علي عيسى بن زرعة النصراني (26) وعيسى ابن بطورس الكاتب ، ومشمس اليهودي الذي كان نائبا العزيز في الشام (27) وأصور بن هارون كينسر وزراء عهد الدولة البويهية وحاكم العراق وجنوبي الذي كان مسيحيا ، كما ان دراويش الحكومة وبخاسة ديوان الخراج - كانت مكتظة بالمسيحيين (28) .

ان ابن خلدون يرجع ظاهرة الانقسام الذي اصاب الدول الاسلامية الكبرى الى «اختلاف الآراء والاحواء» وان وراء كل رأي فيها وهوى ، عصبية تمنع دورها ، فيكثر الانقسام على الدولة والخروج عليها في كل وقت ، وان كانت ذات عصبية (29) وهو يرى انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الافراد بالمعبد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم لانها تقتضي الافراد بالمعبد ، ومهما كان المعبد يشترك بين العصابة ، وكان سعيهم له واحدا وكان ضميم في

(19) القوي البحرية في البحر الابيض ارضيا لدوليس ، ترجمة احمد محمد عيسى عن 303 مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1963 .

(20) انظر مقدمة ابن خلدون ، طبعة لجنة البيان العربي 1958 ج 2 ص 691 بتحقيق الدكتور علي عبد الواحد واقي .

(21) المرجع السابق نفس المكان .

(22) انظر تاريخ مختصر الدول ص 176 وما بعدها لابن العبري .

(23) نفس المكان السابق .

(24) المرجع السابق ص 178 وانظر في التاريخ العباسي والانديس ، ذ احمد مختار العبادي ص 445

طبع النهضة العربية بيروت 1971 .

(25) كان ابن كلس هذا داعية من دعاة الفاطميين يشترك في المجالس العلمية في قصر الخليفة وفي الجامع الازهر ، وقد ألف في الدعوة الفاطمية كتابا سماه (الرسالة الزيرية) انظر (سفرنامه) صفحة (مقدمة)

(26) المرجع السابق ص 381 .

(27) الكامل لابن الاثير ج 9 ص 77 وانظر در المكنون مخطوط بمكتبة الكويت المركزية رقم 2

تاريخ ج 176 .

(28) الدعوة الى الاسلام «لبنواصل» 82 ترجمة د . حسن ابراهيم الطبعة الثانية طبعة مصر

(29) مقدمة ابن خلدون الجزء الثاني ص 476

التغلب على الغير بالنزاع عن الحوزة ، أسوة في طموحها وقوة شكائها ، ومزاجهم إلى العن جميعا ، يستطيعون الموت في بناء مجديهم ، ويؤثرون الهلكة على فسادهم ، أما إذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرخ عصبيتهم وكبح من اعتيهم ، واستأثر بالأموال دولهم ، فتكاسلوا عن الشروع وفشل ريحهم (30) .

لكن رأي ابن خلدون - فيما يتعلق بالنزاعات والاهواء - ليس جاريا على إطلاقه ، شأن الاسم والأميراطوريات الكبرى ، تستطيع إذا كان بناءها الذاتي قويا أن تستوعب هذه النزاعات والاهواء ، وأن توظفها وتخرجها كإفرازات طبيعية لجسم حي قوي . أما ما يراه ابن خلدون من تحكم طبيعة الملك وما يستلزمها من الانفراد بالمجد والاتصال عن الأمة وواقعها والاستبداد والشرف - فإنه يؤدي إلى طائفتين خبيتين تدل عليهما تجربة الأمة الأيبلاغية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين :

أولاهما : المناطق الداخلية بين أبناء العصبية الواحدة ، فيها كانت سيطرة الحاكم المستعبد ، فإنه إن يعلم من ذريته الذين لا يتبعونه بوجوب العالة - من يتكسبون عليه ويتكلمون قوى مضادة تعمل على تحطيمه .

والخامسة الثانية من زاد الفعل الذي يحدثه الانفراد والاستبداد ، والذي يحدث غالبا ضللا تأجبا للسلطة المستبدة ، فبعد أن شاهدنا الخلفاء العظام الأقوياء الذين تصدروا خلافة الأمويين في الأندلس كإلداخل والناصر ، والذين تصدروا الخلافة العباسية كالمصور والمأمون والرشيد ، والذين تصدروا الخلافة

الفاطمية في القاهرة كالمعز والعزيم ، بعد أن شاهدنا هؤلاء ، رأينا قوة الخلفاء تنحط في كل العالم الإسلامي - في فترات متقاربة - حتى لم يعد لهم من الأمر شيء - على النحو الذي معنا إليه سابقا .

لكن صورة هذا العصر لم تخل عن بعض الومضات المشرقة التي تحتم موضوعية البحث الإلحاح بها ، فإن القرن الخامس الهجري الذي شهد مظاهر الضعف التي حبت على إفريقية ، شهد قبائل صحراوية كانت تنزل في المناطق الجنوبية من المغرب الأقصى ، كانت قد أسلمت حديثا ، وأبعتت من صفوفها حركة سلفية إصلاحية وحدث هذه القبائل ، ودفعها إلى الجهاد ، فغيرت البحر إلى الأندلس ، وشاركت في صد حروب الاسترداد وأوقفت عندوان الفرنجة ، وزحفت نحو وسط وجنوب القارة الأفريقية ، في البرتغال وغالبا وغيرهما (31) حيث نشرت الإسلام واللغة العربية ، وجمعت لأكثر من نصف قرن بين المغرب والأندلس في دولة واحدة بزعامة مراكش (32) . وقد انتشرت حركات المرابطين هؤلاء انتشارا بعيد المدى في القرن الخامس الهجري (33) ، وعندما مات المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين في المغرب والأندلس يوسف ابن تاشفين على رأس المائة الخامسة بعد حياة حافلة اعتدت قرنا كاملا ، كان قد ترك وراءه أميراطورية من أعظم الأميراطوريات التي حكمتها الإسلام ، تمتد فيما بين تونس شرقا والمحيط الأطلنطي غربا ، وفيما بين نهر التاج في قلب إسبانيا شمالا وبلاد السودان ونهر النيجر جنوبا (34) ولله عاقبة الأمور .

عبد العظيم عويس

الكويت

(30) المقدمة الجزء الثاني ص 482 .

(31) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي ج 6 الدكتور أحمد شلبي ، صفحات 114 ، 167 ، 169 وغيرها .

(32) انظر الإسلام والثقافة العربية في إفريقية دكتور حسين محمود ج 1 ص 178 ، دار النهضة المصرية .

(33) 1963 ، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي ج 6 - 173 دكتور أحمد شلبي .

(34) قيام دولة المرابطين دكتور حسين أحمد محمود ص 136 .

(34) أعمال الإعلام 2 - 352 ، عصر المرابطين والموحدين د. محمد عنان ، القسم الأول - عصر

المرابطين ص 55 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط 1 - 1964 وقد ذكرت بعض المراجع أنه

مات عن تسعين سنة . لكن المؤكد أنه استقر في الحكم 35 سنة .

الدكتور عبد الجليل العمري

وتحديد النسل

للشيخ عبد الله بن محمد بن حميد

الحراض الاسلام في النكاح التناسل وصبح في الاخيار
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المرأة الولود
خير من العقيم لقوله صلى الله عليه وسلم : تزوجوا
الودود الولود فاني مكاث بكم الامم يوم القيامة . .

وجاء في القرار : (وقد ثبت طبيا ان تناول الدواء
المنهي او المانع من الحمل يلحق ضررا بليغا
بالأمهات او بأولادهن اذا لم يتفح في فتح الحمل وولدن
ولا تعد بالاسباب الواجبة التي يذكرها انصار تحديد
النسل كخوفهم من كثرة السكان وتغير التغذية وفناء
التربة . ففي الآية الكريمة الجواب عن ذلك ان
لربهم اياكم فالرزق على الله وهو مكفول والشروات
الطبيعية عظيمة في البلدان الاسلامية ومجالات العمل
رحبة والمساحات لا يواء السكان شاسعة (وعن رضى
الله بجهل له فخرجا وبرزقه من حيث لا يحتسب) . .

ومما جاء في القرار : (ان العدو الصهيوني
يستورد عن اقطار الدنيا شذاذ الآفاق لتعمير ببلاد
العرب المستعصبة كما ان دولا عظمى غسل قريسا لا
تكتفي بأبنائها للمكاثرة بل تبيع باب التحنيس على
مصرعها . .

هذا شيء مما جاء في القرار واضح فيه ما بنى
عليه القرار من نصوص شرعية ونظرة في الغواقب
وتطلب للمصلحة مع تقييد للخالة التي يعيشها العالم
الاميل الى اليوم من تكالب اعداء الاسلام من غزو
شبهوى في جنوب شرقي آسيا ومن غزو غربي عن
طريق اسرائيل ومن وراء اسرائيل والتوازع بين اسبانيا

أطلعت على ما كتبه الدكتور عبد الجليل العمري
في جريدة «الاخرام» الصادرة بتاريخ 26 ربيع الثاني
1395 هـ الموافق 2 مايو 1975 تحت عنوان (رد من
عبد الجليل العمري على قرار الرابطة الاسلامية في
تنظيم النسل) . .

(خلاصته) : انه تعقب القرار الذي اصدره مجلس
الرابطة الاسلامية بشأن تنظيم النسل والذي قرر فيه
المجلس المنع من تنظيم النسل بمعنى تحديده مستندا
في ذلك على النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وما
افتي به محققوا العلماء . ولما في ذلك من اضرار
المسلمين وتقليل عددهم في وقت تكاثرت فيه قوى
الشمر والقلم والعتوان لليل من الاسلام دين الحق
والخير والعدل والسلام .

وقد وصف الكاتب مجلس الرابطة بأنه في
قراره قد لجأ الى شعارات لا تقوم على اساس من
اليقين والحقيقة . . لا ادري كيف سفتح الكاتب
لنفسه ان يصف قرار المجلس بهذا . مع ان القرار
كان صريحا في دعوته مؤصفا الانفس التي بنى عليها
هذا القرار من نصوص شرعية من الكتاب والسنة
ومستندا الى فتاوى العلماء وآراء المفكرين الاسلاميين
في ذلك . ومما جاء في القرار :

انه قد صدرت فتاوى كثيرة من علماء اجلاء
موقوق يعلمهم وديانتهم بحرمة هذا التحديد ومضادته
الشريعة الاسلامية فقد اجمع المسلمون على ان من

والمغرب والهند واورشليم والباكنسار وحركة التنصير في افريقيا وشرق الهند في القبلتين .

كيفت مع ذلك يقول الكاتب : ان قرار المجلس استند الى شعائر لا تقوم على اساس من اليقين والحقيقة ، ولعل ما اوردته الكاتب في تعقيب على القرار اولى بهذا الوصف . واذكر على سبيل المثال قول الكاتب : (ان لناظرونا الاجتماعية الحرجة التي تدعو الى وجوب العمل على تحديد النسل . الخ) ولم يوضح المراد بالظروف الحرجة . هل هي حالة الحرب التي يعيشها العالم العربي ومن ورائه كافة الشعوب الاسلامية التي تتطلب عدداً وعدة ؟ ولو تصور الكاتب الظروف الخرج حين نشوب الحرب وازدياد الطائرات ومخالة الاستنفار التي يدعى اليها المواطنون . وتفتح باب التطوع وحمل السلاح لادراك الظروف الخرج الذي نعيشه .

ام ان الظروف الخرج هو تلك المشكلات السياسية الخالية والغنية بالثروات في العالم الاسلامي في اقصاد الى اقصاء حيث الثروات بكافة اشكالها من زراعية وصناعية وصيدية وحيوانية بل لو تتبع نسبة كل بلد اسلامي الى سكانه لما وجد ان هناك كثرة كانت السبب في تخلف هذا البلد ولو سلمنا وجود مثل ذلك فان الحل الايجابي المخلص والبناء ليس هو الدعوة الى تقليل عدد الشعب واهلاك حرته ونسبه . ولكن الحل الايجابي والتخطيط السليم هو ايجاد فرص العمل واستغلال ثروات البلاد على ايمان من العلم والتقنية والتخطيط السليم . فان تعذر ذلك قبل السباح بالانتقال من هذا البلد الى بلد اسلامي آخر غنى بالثروة محتاج الى ايدي العاملة . واذا كانت الدول المتقدمة كأمريكا وفرنسا مع كثرة سكانها تستسبح بالهجرة اليها من اناس لا تربطهم بهم رابطة فما بالك بالشعوب الاسلامية التي ترتبط برابطة الدين وعلى الاقوى . ثم التاريخ . فان قال الكاتب ليس كل الحكومات تبني الرغبة الصادقة في ذلك . نقول : قد يكون ذلك واقعا فيكون واجب الكاتب وواجب الاتجاه الى هذه النقطة والدعوة اليها وتسخير العلم للانتصار لها بدلا من الدعوة الى ناحية سلبية ضررها ولا شك اكبر من نفعها اذا نظرنا الى ظروفنا الحالية الحرجة كيف وقد قال الكاتب في مقاله : لا شك ان الاسلام يزيد كثرة عديدية قوية لا هزيلة . ونحن معه في ذلك واذا كانت الكثرة قد توفرت لدينا كما يقرر الكاتب

فقد خصصنا على العنصر الاول وهو توفير الغذاء المطلوب بقى المنتصر الآخر وهو معالجة الهزال ويكون ذلك بالتخطيط والتنسيق بين الشعوب والحكومات الاسلامية وليس بان نقضي على عنصر الكثرة فتكسب الرزق . القلة والهزال .

وتذكر كلمة للكاتب حينما كان وزيرا للمالية ان قال عن مشروع السد العالي : (انه يمكن التماسه والحصول على القائدة الكاملة منه في خمس سنوات او ست . وبعد ذلك تزيد وقعة الاراضي الزراعية بمقدار الربع ويزيد المحصول الزراعي بمقدار الثلث .) نقول ايها الكاتب : ان هذا حل ايجابي وتخطيط سليم فالعلم قد تقدم والوسائل تطورت وتستطيع باستخدامها ان تستحصل من الارض ما تنتج بل اضعاف . ان هذا حقا هو الاتجاه الايجابي وهو القضاء على الهزال والضعف وليس الحل بتحديد النسل والقضاء عليه والله يقول : ومن الناس من يعجك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو لمد الخصام . واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل . والله لا يحب الفساد .

قائلة تقول ان هلاك الحرث والنسل من الفساد وهذا لا يحتاج الى توضيح . اما مقارنة الكاتب البيان ببلاد العالم الاسلامي فهي مقارنة بعيدة جدا نرى ان كاتب شغل منصب (وزير المالية) ان يتجه اليه . ذلك ان البيان مساحتها صغيرة بالنسبة الى تعداد سكانها فقيرة في الموارد الطبيعية والمواد الخام ، بل انها تستورد كل ذلك الخام من الخارج بخلاف ما هو الحال في العالم الاسلامي . بل لا نسبة بينهما فالاراضي واسعة ونسبة السكان الى مساحة الارض قليلة وانما يعوزنا التخطيط السليم . واما ما ذكره الكاتب فمن فتوى العلماء باجاجة تحديد النسل فلا اظن ان مسلما يقول بتحديد النسل على مستوى الجاعة فضلا ان يقول عالم : ايها المسلمون قتلوا من عددكم لما في ذلك من المصادمة لتصوص الشرع الصريحة في الدعوة الى تكثير النسل كقوله صلى الله عليه وسلم : تزوجوا الودود الولود فاني مكارم بكم الاثم يسوم القيامة) ولما في ذلك من تقليل المسلمين واطعافهم وهذا لا يقول به مسلم فضلا عن عالم . اما اجابته على نطاق الافراد وظروف اضطرارية خاصة فهذا ليس من موضوعنا .

ونختتم الموضوع بالقاء نظرة سريعة على بعض آي الذكر الحكيم واحاديث الرسول (ص) نذكر فيها

الكاتب. ونذكر الفسنة فهي تنضض ضراخه على غلام
التجديد. مهما كان الفقر مدقعا ومهما كان القحط نازلا
قال تعالى : «ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق» نحن
نرزقهم وايامكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا .

قالآية تمنع من (القتل) خشية الاملاق وهو
(الفقر) اي الفقر المتوقع وتقرر ان الرزق بيد الله لا
يجزه حرص حريص ولا يردم كراهية كاره .

والآية الاخرى : «ولا تقتلوا اولادكم من املاق
نحن نرزقكم وايامكم» .

فهي تمنع من القتل للفقر الواقع الحاصل بالفعل
فلم يبق لقائل مقال . فسبوا كتاب الفقر واقعا او
مترقعا فالآيتان ترفضان تقليل العدد من الناس . والله
سبحانه وتعالى ونحن نخطب مسلمين . قد تكفل

بالرزق . لكل كتاب من على هذه الارض - (وما من
دابة في الارض الا وعلى الله رزقها) (وكاين من دابة
لا تحمل رزقها الله يرزقها وايامكم) ، (ومن يتق الله
يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

ويروى عن النبي (ص) انه قال : «تناكحوا
تأسلوا تكثروا فاني مباد بكم الامم يوم القيامة» وفي
حديث آخر : استكروا من اولادكم فانكم لا تدرون بمن
ترزقون .
وكنا قيل :

والله قسم بين الخلق رزقهم
لم يخلق الله مخلوقا يظيعة
والله اعلم وصلى الله على خير خلقه نبينا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم (والحمد لله رب العالمين) .



في المفهوم الإسلامي



للاستاذ محمد المنتصر الرسوي

اليهودي (جولد تسيير) (كاث الايلام في اول امرة
تسوده فكرة اطراح العالم والرهق فيه ، وذلك في
نفس الوقت الذي غلبت فيه فكرة التوكل والشعور
بالخضوع المطلق) (1) وقوله (قبل ان يشفق النبي
على الله عليه وسلم) عني وعلى الاخفى بعد
وفاته مباشرة تحول البيدا السائد اذن الذي ابتدا
آخر : ففكر الزهد في العالم حلت محلها فكرة فصح
العالم (2) .

من المسلم به ان القرآن الكريم ينقسم الى
قسمين : مكى ومكي ، ومن المسلم به ايضا ان المرحلة
المكية كانت مرحلة ترويح العقيدة في النفوس ،
وتربية الفرد على ضوء هذه العقيدة ، واخذادها
للامانة الكبرى التي سيخضع لها في المستقبل ،
اما المرحلة المدنية فكانت مرحلة تسريع للحياة بكل
ما تخوله هذه الكلمة من معنى : تسريع في كل ميدان من
الميادين الحياتية ، في التعليم ، في الاقتصاد ، في
العلاقات في الأحوال الشخصية ، في العلاقات
الدولية ، لماذا لان الانلام وحدة متماسكة ، لا يعالج
جانبا دون آخر كما يفهم الذين اعتمد بصيرتهم المناهج
الارضية .

ولهذا خطا (جولد تسيير) خطا شديدا -
وكتباته كلها زئاس - يدل على جهل تمام باسرار
التشريع الاسلامي ، ومسيرة الدعوة الاسلامية ،

كانت البشرية في ائس الحاجة الى الهداية
الربانية - ولا تزال - فبعث الله تعالى نبيه محمدا
صلى الله عليه وسلم بالدعوة الجديدة ، هذه الدعوة
جاءت - وهي تجاة الآن والتي يوم القيامة - الجاهلية
في شتى صورها فقبلت نظام الانسان الجاهلي راسا
على عقبه ، وصاغت سياغة أخرى جديدة ، امام هذه
الحقيقة الكبرى المدهشة المعجزة وقب المستشرقون
موفقا عداليا سريحا ، فرفضوا حقائق هذا الدين
وعالميته ، وتصوره الرائف للأسرار الكونية ، عليمين
بذلك حقد هذه التسليبي الموروث ، وخافعين في نفس
الوقت للوساية الاستعمارية والصهيوتية التي عملت ،
وتعمل في الخفاء والعلن لزرع الكراهية في النفوس
لتصرف الناس عن ضياء الله ، ورغم ذلك - ومع
قلة الوسائل التبشيرية لدى المسلمين - فإن افواجا
لا تحصى من الافراد في كل اقطار العالم تعتق الهدى
الاهي عن طواعية واختيار واقتناع ، وكذلك الموقدون
من ايناثنا ضحايا المنهج الاخادي الهادي ، وذلك
برجع - اول ما يرجع - الى ان الاسلام دين القطرة
يتسرب الى النفس بغير اسندان فيوقظها من رقادها
وغفلتها ، فتسلم له في محبة ووداد ، وهذه الحقيقة
تسجلها كل يوم وسائل الاعلام في الشرق والغرب .

والموضوع الذي نتعالجه هو الزهد في المفهوم
الاسلامي انطلاقا من قول المستشرق المجري

(1) العقيدة والشريعة في الاسلام ترجمة د . محمد يوسف موسى وآخرين - ط 2 - ص 134

(2) نفس المصنفين ص 135

اذ لا يمكن بحال ان تكون فكرة الزهد من الشعار الانساني في المرحلة الاولى ، ثم يتحول منها في المرحلة الثانية الى فكرة فتح العالم طمعا في الكسب المادي ، ذلك ان مقتضيات الدعوة الاسلامية في اول امرها ، اقتضت اولاً ان تصحح مفاهيم خاطئة في اذهان الناس عن الخالق تعالى ، فكان من المنطقي ان يعمل الاسلام على توضيح قضية التوحيد ، وصفات الله ، وعلاقته بخلقه في العقول لانها الأساس الذي تقوم عليه كل دعوة سماوية ، وبالتالي مفتاح الى افاضة حقارة سليمة جديدة تدلن بالحكمة لله تعالى ولا تدلن لأي هوى بشري .

وفتح العالم في المرحلة المدنية امر ضروري بما في ذلك شك ، لان الدعوة الاسلامية تقوم على المصحف والسيف ، وأقول السيف ولا أخاف من استعمال هذه الكلمة التي يؤاها البعض بالارهاب ، المصحف هو الهداية والنسيف للقضاء على من يحاول عرقلة المسيرة الاسلامية ، وأما من تنجى عن مجاهبة الدعوة حينذاك فلا اكراه في الدين ، وقد بينت هذه الفكرة في جملاتي سابقة بتفصيل واسباب

حين تستعرض الآيات القرآنية الكريمات التي تتحدث عن الدنيا والآخرة لا تجد لها ايدياً تؤيد الناس في الدنيا ، تأمرهم باطراحها سواء في المكي منها أو المدني . وهذا الغلط الذي وقع فيه جولد تيهير ، فلستمع الى سورة الاعراف وهي مكية ، قال تعالى : يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلموا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المُسرفين ، قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يسوم القيامة كذلك الفصل الآيات لقوم يعلمون (3)

قاي زهد في هذا النص المكي ، والله تعالى بغضل الآيات لقوم يعلمون ، وجولد تيهير من القوم الذين لا يعلمون ، ولو كان من الذين يعلمون لاستطاع ان يفهم من كلام الله السالف انه يناقض نظريته المغلوطة .

ولستمع الى سورة القصص ، وهي مكية كذلك ، قال تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك) (4)

قاي زهد كذلك في هذه الآية ، بل الامر واضح هو الاخذ بالدنيا والآخرة ، ورفض الزهد السياسي الذي لا يثمر ولا يمد الحياة بمثل ما يمد بها الزهد الانجاي .

وفد جاءت آيات تتحدث عن الآخرة ، والفرق منها - لا كما يفهمها القاصرون في فهم لقصة القرآن - بتبني البشرية الى امرهم جلا هو الا يغثروا بالحياة الدنيا ويغفروا فيها الى حد ان ينسبوا الاتمان خالقه ويظنوا ويتجبر وينسلخ من انسانيته من ذلك قوله تعالى في سورة الانعام المكية (وما الحياة الدنيا الا لعب ولغو وللدار الآخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون) (5) ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحديد المدنية (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولغو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل ثبث اعجب الكفار نباتة ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله وبرحمان وما الحياة الدنيا الا متاع الزور) (6)

فناقص جولد تيهير ، مع نفسه وانصح . ذلك ان الآيات المكية فيها ما يحث على الانتفاع بالحياة ، اذن فكيف يمكن تبرير قوله ان الاسلام نبي المرحلة المكية دعا الى الزهد .

والواقع ان الآيات المكية والمدنية صريحة في تحدثها عن الرفق الإيجابي البناء الخصيصة المزهرة ، كما انها صريحة في الدعوة الى التوفيق بين الحياة الآخرة ، مع الالتزام بأوامر الله ، وذلك هو الزهد في المفهوم الاسلامي كما ستسرى وشيكاً ان شاء الله .

الزهد في اللغة هو ترك الميل الى الشيء ، وهذا المدلول هو الذي يمكن ان تطلقه على كل عملية الابتعاد عن المحرمات . فنقول فلان يزهد في السرفة

(3) سورة الاعراف : 31 - 32

(4) سورة القصص : 77

(5) سورة الانعام : 32

(6) سورة الحديد : 20

فهو زاهد - اسم فاعل - وفلان يزهد نفسه بنفسه
والمكفر والفردوس والقيبة والشميمة والخصمر
والبلغم والربا ويهلم جرا ، لهذا يجوز لنا ان نقول
ان الزهد هو الالتزام بالمفاهيم الاسلامية ، التوفيق
بين التصور الابلامي في الكون والحياة والانسان
وعملية التطبيق ، بمعنى آخر التوفيق بين النظرية
والتطبيق في الاطار السلوكي الذي يتحرك فيه الانسان
وهذا هو التصيب وهذا هو الزهد ولا يتجلى به الا من
اخلى الله بطنه جوارحه واقضاى حاجاته بملئها عليه
هو يشرى .

... فبعض الناس يؤمنون بالنظرية اما ايمان
- ولكنهم في مجال التطبيق يسمون هذه النظرية
وتطغى الاتانية . والعلم يرتفع عن هذا الايمان - كما
يقول الحديث الشريف - ما وقع في القاب وحده
العمل

فالزهد اذن الاستقامة التامة في تطبيق المفاهيم
الاسلامية . وانا لا افهم الزهد على انه اجراض عين
الحياة - كما عرفه الجرجاني في كتابه (التجريدات) (7) .
واذا كان كذلك فاي فائدة في هذا الدين ؟ وسهي
وظيفة الانسان على هذه البسيطة ؟ انا اعرف - كما
علمني كتاب الله وسنة رسوله - ان الانسان خلقه
الله ليقوم بالامانة العظمى الا وهي الخلافة الارضية
قال تعالى : وادعنا ربك الملائكة الى جاعل في الارض
خليفة (8) وقال تعالى : هو الذي جعل لكم الارض ذكورا
فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه (9) .

ولم ترد كلمة (زهد) في القرآن الكريم بياتا .
بل وردت كلمة (زاهد) في سورة يوسف في
انها لا تعني المعنى المعروف . اذ تعيد القافلة التي
باعت سيدنا يوسف عليه السلام قال تعالى : واشروه
بمن بعض دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين
(10) كما لم ترد في حديث صحيح .

ثم ان الذين يعيرون - عن حسن نية - ان الاسلام
دين زهد واعتزال للحياة ، كيف لم يذكروا ان نبينا
محمد صلى الله عليه وسلم تولى عن زهده تفتريه

الحياة للناس ، فغوا وتزوج وبين الحلال والحرام .
واكل الطيبات وعزف عن الخبائث . وعقد المعاهدات
ووزى النفوس على اسس فذة لم يستطع احدا قبله او
بعده والى يوم القيامة ان يريها كثر ينسبه الايجارية
القريفة ، كيف غاب عن اولئك هذا ؟ وكيف غاب عنهم
انه حارب الرهبانية ؟ وكيف غاب عنهم هذا الحديث
الشريف : من ابي قلابة قال اراد الناس من احب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يرتضوا الدنيا
ويركوا النساء . ويتهربوا فقال صلى الله عليه وسلم
فسلط فيهم المقالة ثم قال : انما هلك من كان قبلكم
بالشديد . شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم
فأولئك بقايا في الاذيال والصوامع فاصيدوا الله ولا
تشرخوا به وحجوا واعتصموا واستغنوا يستقم لكم
المع . وكيف غاب عنهم هذا الحديث الذي رواه
البخاري وفيه ان رجلا من الصحابة فحبوا الى بيت
النبي صلى الله عليه وسلم يسألون ازواجه عن عبادته
فما اخبروا بها كانوا يقاتلونها - اي اعتبروها قليلة -
ثم قالوا اين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لا ففسال
احدهم : انما انا فاضول الدهر ولا افطر . وقال الثاني :
وانا اقوم الظيل فلا اناام وقال الثالث : وانما اجزى
النساء فلا تزوج ابدا . فلما بلغ ذلك النبي صلى الله
عليه وسلم بين لهم خطاهم وعوج طريقهم وقال لهم
: انما انا اعلمكم بالله واخشاكم له ولكنني اقربون
وانام واصوم وافطر . واتزوج النساء فمن وعى عين
سنتي فليس مني .

وكيف غاب عنهم قول رسول الله صلى الله عليه
وسلم : (ما من مسلم يغرس غرسا او يزرع زرا فباك
منه طير ولا انسان الا كان له به صدقة) .
وكيف غاب عنهم قوله عليه الصلاة والسلام : ما
اكل احد طعاما قط خيرا من عمل يده . وان نبي الله
داود كان ياكل من عمل يده) .

كيف غاب عنهم كل هذا والكثير مما اخبروا
تنتصرون عليه في الحديث الشريف ؟ الجواب عن ذلك
هو ان المفاهيم في بعض الاذهان جوارها النبي

(7) كتاب الراي من 61 الدار التونسية للنشر 1971
(8) سورة البقرة : 30
(9) سورة الملك : 15
(10) سورة يوسف : 20

والضباب حين وفدت علينا أساطير من الأمم الأخرى كالسحابة والفرسية والهندية فاختلط الأمر على السذج فنبشوا الزهد السليبي وتبعه ما يسمى بالتصوف المنحرف والطرقية ، وفطريات تصوفية الجاذبية ، وظهور من أخذ يختلف إلى الكثوف بعبد الله مخالفا لسنة الله في الكون ، وظهر من يرقى الإسراف (ويضدر) عواء اقرب إلى الاتحاد منه إلى الإيمان ، وظهر من يزعم أنه يطير في القضاة ويحجج البيت الحرام في دقائق معدودات ، وسادت العرافات بين فئة معينة من الناس بدعوتهم إلى التمسح بالافترجة والاستسقاء بها ، كل هذا مهد لعموم الإسلام الطريق للظن فيه ومنهم المستشرق السابق المذكور السدي لغث لظفره هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي فاندفع بغير روية العالم بحرك الديبائين .

ومهما حاول من قى نفسه مرش أن يجد مبتدأ للمفهوم الزهدي السليبي فإنه سوف لا يجد نقسا صحيحا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفقه في دعم هواه وأن وجده فيكون من الموضوعات التي اختلقها أصحابها للترويج في الزهد والصالح وفي هذا يقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه (أعوام الحديث) .

ومن الغريب حقا أن بعض الزهاد والمتصوفة والمبتدئين طوعت لهم أنفسهم واتبعوا الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ترفيها قسى صالحي الأعمال : كان هذه الثروة التي لا يدرك البيان وحققا من أقواله عليه السلام ونوايغ حكمه وجوامع كلمه لم تكفهم ولم تشبع صدورهم ، واستغفوا هؤلاء بالعبادة واستهزؤهم بالزهد والعفة يحمل العامة على الاصرار

بما يختلفون فخطروهم من هذه الناحية أشد هولاء فتمت تصورهم ، ولقد تسوها بجهلهم وجة الإسلام وادخلوا في تعاليمها ليس منه قبل يحيى القفلان «ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه قيمين ينسب إلى الخير (11)» .

ويسوغ لي أن أقول في هذا الصدد إن شروفا الإسلام من خبائضها أنها توفق بين شئين مهمين : الروح والجسد فلا الشقي الأول يظف ولا الشقي الثاني يصحى أنه يوازن بين متطلباته موارده حكيمة وإذا انحلت هذا التوازن فلا شك أن الإنسان سيفقد بذلك سعاده التي لا يمكن أن يتحقق إلا بهذا ، كما هي واقع قس المجتهدات النافذة حيث الانسحاق النفسي الطاغى نتيجة انشغال الموازنة التي جعلها الله الأساس السوي تقوم عليها الحياة البشرية .

فما أوجنا إلى الاستعانة بالكتاب والسنة وإقامة حياتنا على هدايتهما ، ورفض كل ما هو شاذ في تصورهما من هذه الخرافات التي تعطل فيها التفكير وتشل حركة الميسرة لحق النور ، وتخذل احساساتنا وتفوق الطاقة الجبارة عن الانطلاق في تحقيق الإنسانية الكبرى التي أكرم الله تعالى بها الإنسان ، ورفض كذلك هذه المظاهر الإلحادية التي غزت العالم الإسلامي وتريد أن تسليخ عن السبائيتنا لتركمن في جاهلية أخرى أشد خطرا من الجاهلية الأولى ، ولتفسد قلوبنا تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا (12)» .

تعاون : محمد المتنصر الرسنوتي

(11) عن 290 - مطبعة جامعة دمشق - 1379 هـ

(12) سورة النساء : 59

فتح الباري

للمحافظ ابن حجر العسقلاني

773 - 852 هـ

للاستاذ سعيد أعراب

ولما طلب من مجتهد اليمن ، العلامة الشوكاني ان يشرح الجامع الصحيح للبخاري ، قال : لا طجرة بعد الفتح .

بدأ تأليفه سنة (817 هـ) - بعد ان اكمل مقدمته في سنة (823 هـ) وانتهى منه في سنة رجب سنة (849 هـ) - اي قبل وفاته بعشر سنين ، وقد قضى في كتابته نحو خمس وعشرين حجة ، وأولم عند ختمه وليلة عظيمة ، انفق فيها نحو خمسمائة دينار ، ولقي ما يستحق من العظوة في عصر مؤلفه ، حتى طلبه فلولك الاطراف بالانبتكباب . واشتري بنحو ثلاثمائة دينار ، وطارت شهرته في الافاق . يقع في بضعة عشر مجلدا ، حنزه بتقدمه تجعل اغراضه ، وتبين مقاصده ، اسماءها : معنى الباري ، الى فتح الباري في مجلد شخم 121 .

عاد المؤلف في كتابة هذا الشرح - وهو المحافظ الراعية - الى مئات المصنفات في مختلف العنوسم والفنون (131) .

من القسم الشوامخ في الرواية وعلوم الحديث شيخ الاسلام ، قاضي القضاة ، شهاب الدين ابنو الفضل احمد بن قلى بن محمد بن حجر العسقلاني الاصل ، الفخري المولد والمنشأ ، حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين ، وقد وعبه الله بكاء نادرا . وقلبا وعينا - طوي على كثير من البلدان في طلب العلم والرواية ، وسبح على عتايخ عسوة ، فبلغ في ذلك شأوا بعيدا ، وحل الناس للاخذ عنه والبروز من قبض علقه ، فكان أحفظ أهل زمانه ، وأحد دهره ، حتى لقد كان يشب بالبهقي الذي .

كان عالما عاملا ، ومنتجا مشهورا ، خلقه ما يتيق على مائة وخمسين مصنفا . أكثرها في الحديث وتاريخ الرجال ، وله الا «فتح الباري» على صحيح البخاري» لكان كافيها في علو قدره ، وشمس مؤلفاته .

ولو قدر لابن خلدون القائل : ان شرح البخاري دين على هذه الامة (1) - ان يقب على هذا الشرح - الجامع المانع - لقوت عينه بالوفاء والاستيفاء .

(1) المقدمة ص 800 .

(2) طبع في الهند ومصر حرارت ، واخرج في 17 جزءا ، والمقدمة في مجلد يحوى جزئين : والكتاب في حاجة الى نشر علمي .

(3) كتب البخاري - وهو تلميذ المؤلف - ترجمة واقية . اسماءه : الجواهر والذو ، في ترجمة الشيخ الاسلام ابن خير ، وبالغ في الثناء عليه في الضوء المذيع 36/2 . وانظر : البدر الطالع 87/1 حسن الحاشية 153/1 ، حفظ مبارك 37/6 ، مفتاح السنة 40 - II ، دائرة المعارف الاسلامية 131/1 ، مقدمة البدر الكاملة ، خاتمة تهذيب التهذيب .

وقد سجلت في إحدى قراءاتي لهذا الكتاب ، مصادر مغربية اعتمدها ابن حجر ، وكثر ترددها لها ، وهي - في جملتها - ترجع الى فئات أربع :

أ - في اللغة .

ب - في التفسير وعلوم القرآن .

ج - في الحديث وعلومه .

د - في التاريخ والانساب ، واسماء البلدان والاماكن .

في اللغة

١ - أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية ، أصله من أشبيلية ، ومولده ووفاته بقرطبة ، من أعلم أهل زمانه باللغة والأدب ، ولما دخل أبو علي الغالي الأندلس ، اجتمع به ، وكان يتألف في تعظيمه ؛ قال له الحكم بن عبد الرحمن الناقور : من أشبه من رأيته ببلدنا هذا في اللغة ؟ فقال : محمد بن القوطية . (ت 367 هـ) (4) .

له مؤلفات جليلة في اللغة ، منها :

- كتاب الأفعال الذي فتح فيه هذا الباب ، وثلاثة ابن القطاع التي ذكره .

وكتاب المقصور والممدود جمع فيه ما لا يعد ولا يعد ، وأعجز من بعده ، وفاق من تقدمه ؛ - أقاد عنه ابن حجر .

٢ - أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القزويني من أهل القزوين ، أدب عالم باللغة ، رحل الى

المشرق وحدهم العزيز بالله الفاطمي ، وصنف له كتابا ات 412 هـ (5) ، من مؤلفاته الشهيرة «الجامع» - في اللغة ، يتقل عنه ابن حجر .

٣ - أبو الحسن علي بن اسماعيل الحارثي المعروف بابن سيده ؛ أعلم في اللغة وآدابها ، (ت 458 هـ) (6) .

له مؤلفات جامعة في اللغة والأدب ، لم يصلنا منها الا ثلاثة :

١ - المحقق . وهو كتاب جامع في اللغة العربية .

٢ - كتاب شرح مشكلات المتنبي .

٣ - المحكم والمحيط الأعظم - معجم كبير في اللغة ، اعتمد ابن حجر كثيرا في المسائل اللغوية .

٤ - أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع ، ولد بصقلية ، ولما احتاج الفريج ، انتقل الى مصر ، عالم باللغة والأدب - ات 515 هـ (7) .

له مؤلفات ، منها :

- كتاب الأفعال في ثلاثة أجزاء ، أحسن فيها كل الاحسان ، وكتاب البنية الاسماء جميع فيه فائز ، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه ، اعتمد ابن حجر في شرح المفردات اللغوية في الحديث .

٥ - أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البظليوني عن العلماء باللغة والأدب ات 521 هـ (8)

التي كتبها منها ، المثلث - في مجلدين ، التي فيه بالمعجاني ، دل على اطلاع واسع ، يتقل عنه ابن حجر .

(4) انظر تاريخ غلبه الأندلس 76/2 ، حذوة المقيس 71 ، الوفيات 4/4 ، معجم الأدباء 272/18 ، لسان

الميزان 324/5 ، بقية الوعاة 84 ، النسخ 74/3 .

(5) انظر وفيات الأعيان 9/4 ، بقية الوعاة 80 .

(6) حذوة المقيس 293 ، الصلة 410/1 ، الوفيات 17/3 ، بقية الوعاة 327 ، تكملة الهميان في نكات

العميان 204 ، لسان الميزان 265/4 ، النسخ 380/3 ، دائرة المعارف الإسلامية 202/1

(7) الوفيات 11/3 ، لسان الميزان 209/4 ، نهاية الرواة 236/2 .

(8) بقية المتن 423 ، الصلة 287/2 ، فلاندا (معيان 19) ، وفيات الأعيان 263/3 ، المغرب في حلي

المغرب 385/1 .

6 - أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف
الانصاري الشافعي الأصل . المكنى المولد : رحل إلى
المشرق ، فسمع من ابن أبي عمير وغيره ، وتلميذ له أبو
حيان الغزنائي ، والمزي ، واليزيدي ، وآخرون .

انتهت إليه معرفة اللغة وغيرهيا ، كانت وفاته
بالقاهرة سنة (ت 684 هـ) (9) .
كتب علي صحاح الجوهري وغيره خواص في
مجلدات ، ينقل عنه ابن حجر .

في التفسير وعلوم القرآن

والجامع الصحيح للبخاري ، كتاب تفسير
وحديث ، وقد اعتمد ابن حجر في هذا الباب .

7 - علي بن أبي طالب جوش بن محمد بن
مختار القيسي القيرواني : رحل إلى المشرق فزار
روح أربع حجج ، فآخذ من جهة من المشايخ في
مختلف العلوم والفنون .

دخل الاندلس سنة (393 هـ) ، وتبكن قرطبة
وأقرا بجامعها ، فتلميذ له كثير من (437 هـ) (10)
الف ما يثبت على تسعين مصنفاً ، أغلبها في القرآن
وعلمه ، منها :

- الهداية إلى بلوغ النهاية في التفسير وعلوم
القرآن - في سبعين جزءاً ، والكشف عن وجوه القرآن
وعناها ، والنبصرة في القراءات السبع ، وعشكن
أعراب القرآن .

ينقل عنه ابن حجر في مسائل التفسير وأعراب
القرآن .

8 - أبو العباس أحمد بن عمار الهذلي ، المقرئ
التحوي المفسر ، كان مقدماً في القراءات والعربية .
أصله من المهديّة - بالقيروان ، دخل الاندلس وأقرأ
بها ، وهو الذي ذكره الشافعي في باب الاستعاذة :
أوكم من قتي كالمهدي له أملاً (11) ات . 44 هـ (12) .
صنف كتاباً جليله في القرآن وعلومه ، منها التفسير
المشهور ، أفاد عنه ابن حجر .

9 - أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني ، الأعمام
المقرئ ، الحافظ الحجة ، قال ابن بشكوال : (كان
أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته ، وتفسيره ومعانيه
وطرقه وأعرابه .) ات 444 هـ (13) .

خلفه على سيف على مائة وعشرين مصنفاً ، منها
التيسير المشهور - في القراءات السبع ، والمقبح
في رسم المصحف ، والمحكم في النقط ، وطبقات
القراء - في أربعة أسفار وهو عظيم في باب

يرجع ابن حجر إلى الداني في مسائل القراءات .
10 - أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية
المخزومي الغزنائي ، عالم بالتفسير والأحكام والفقه
والنحو واللغة والأدب . ات 542 هـ (14) .

من أشهر مؤلفاته (المحرر الوجيز ، في تفسير
كتاب الله العزيز ، أحسن فيه فإدع ، وأوفى على
كل من تقدم - أفاد عنه ابن حجر .

11 - أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله أحمد بن
أضيق السبيلي الخثعمي المالقي ، حافظ ، عالم باللغة
والسير ، جمع بين الرواية والدراية (ت 581 هـ) (15)

(9) الواقفي بالوفيات 190/4 ، غاية النجاة 213/2 ، بغية الوعاة 83 ، النفع 374/2 .

(10) جذوة المقتبس 329 ، الضلة 597 ، زهية الألبا 421 ، مفتاح البقاة 1 - 418 . أنباء الرواة
3 - 313 ، الوفيات 361/4 ، طبقات القراء للذهبي 1 - 316 ، غاية النجاة 3 - 9 ، شجرة النور
1 - 107 .

(11) انظر الشافعية 1 - 31 .

(12) جذوة المقتبس 306 ، طبقات القراء للذهبي 7 - 990 ، غاية النجاة 2 - 92 ، شجرة النور 108-
(13) جذوة المقتبس 286 ، الضلة 385 ، الديباج 188 ، معجم الأدباء 12 - 495 . طبقات القراء للذهبي
1 - 325 ، غاية النجاة 503/1 ، تذكرة الحفاظ 3 - 316 ، شجرة النور 1 - 115 ، دائرة المعارف
الإسلامية 9 - 116 .

(14) الغلاء 208 ، بغية الملتزم 376 ، معجم أصحاب الصدف 59 ، نقباء الاندلس 100 ، بغية
الوعاة 295 ، النفع 2 - 526 ، شجرة النور 4 - 129 .

(15) بغية الملتزم 534 ، المغرب في حلي المغرب 4889 ، أنباء الرواة 2 - 162 ، لكت الهميان 187 .
النفع 4 - 137 .

من مؤلفاته :
المحيط) ، ينقل عنه ابن حجر .

15) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد السفاحسي ،
عالم النحوي ، تفرقه بيجاية ، ورحل فاحد عن اعلام
عصره والشمس . (ت 744 هـ) (19) .

16

«المجيد في غراب القرآن المجيد» ويسمى
غراب القرآن - افاد عنه ابن حجر .

في الحديث وعلومه :

17) - أبو عروان عبد الملك بن حبيب السلمي
عالم الاندلس وفتيتها في عصره ، رخل الى المشرق
فلقي اصحاب مالك ، ويقال انه ادرك مالكا في آخر
عصره .

وذكر بعضهم انه لم يكن له علم بالحديث ، وقد
انتقد المقرئ في النسخ 2 - 8 هذه القولة وقال : (اما
ما ذكر من عدم معرفته بالحديث ، فقير مستلزم ، وقد
نقل عنه غير واحد من جماعة المحدثين ، نعم لأهل
الاندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين ، حتى
ان في شفا عياض احاديث ، لم يعرف أهل المشرق
المقاد صحتها - مع اعترافهم بحالة حفاظ الاندلس
الذين نقلوها ، كقبي بن مخلد ، وابن حبيب وغيرهما
- على ما هو معلوم) . (ت 238 هـ) (20) .

له تصانيف كثيرة ، انهاما بعضهم الى ألف
كتاب ، منها : الواضحة - في السنن والفقه ، وتفسير
الموطأ ، والمجتبى ، ينقل عنها ابن حجر .

- التعريف والاعلام ، بما اهتم في القرآن من
الاسماء والاعلام - - الايضاح والتبيين ، لما اهتم من
تفسير الكتاب المبين .

- الروض الاثني في شرح السيرة النبوية -
لابن هشام .

اسمى ابن حجر كثيرا من مؤلفات السبيل
عنه ، وناقشه الحساب في تفسير بعض الميقات ،
وكان عمده في ذلك :

18) - أبو عبد الله محمد بن علي بن الخطير
المالقي ، المعروف بابن عساكر ، عالم بالتاريخ
والحديث . (ت 636 هـ) (61) .

له ذيل على التعريف والاعلام للسبيل . انما
منه ابن حجر .

19) - أبو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر
ابن قزح الانصاري القرطبي ، مفسر جليل ، وفتية
محدثات (ت 671 هـ) (17) .

له تصانيف ، منها :

- التفسير الكبير (الجامع لاحكام القرآن) في
عشرين جزءا ، عاد اليه ابن حجر في مسائل من
التفسير ، وبعض احكام القرآن .

14) - أبو جعفر محمد بن يوسف القرطبي من
كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم
واللغات (ت 748 هـ) (18) .

16) الاكمال والاعلام في تراجم بعض اعلام فالقصة - مخطوط خاص ، قضاة الاندلس 123 ، التكملة
2 - 641 - طبع مصر ، الاضافة 2 - 122 ، الطبعة الاولى .

17) الديباج 317 - الواقفي بالوفيات 2 - 122 ، طبقات المفسرين 28 ، النسخ 2 - 115 ، شجرة
النور 1 - 197 .

18) قوات الوفيات 2 - 255 ، نكت الوميان 1280 الكمية الكامة 81 ، الدرر الكامنة 4 - 362 ، بغية
الوفاة 121 ، غاية النهاية 2 - 285 ، طبقات الشافعية 6 - 31 ، شذرات الذهب 6 - 145 ، دائرة
المعارف الاسلامية 1 - 332 .

19) الدرر الكامنة 1 - 55 ، بقية الوفاة 186 ، النجوم الزاهرة 10 - 98 ، شجرة النور 1 - 200 .

20) تاريخ علماء الاندلس 1 - 269 ، الديباج 154 ، تذكرة الحفاظ 2 - 197 ، ميزان الاعتدال
2 - 148 ، لسان الميزان 4 - 59 ، النسخ 2 - 5 .

17 - أبو محمد قاسم بن ثابت بن خزم العوفي المروقي ، عالم بالحدِيث واللغة ، رُحل مع أبيه إلى المشرق فسمع من النسائي ، والبخاري ، وابن أبي عمير ، واستأجرهم ، واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه ، وأدخل إلى الأندلس علما كثيرا ، ويقال أيضا أول من أدخل كتاب « العين » إلى الأندلس .

ألف في شرح الحديث كتاب الدلائل . بلغ فيه الغاية في الاتقان . ومئات قبل اكتماله . فأكملته أبوه ثابت بعده . وكانت وفاته سنة (302 هـ) (37) . أقام ابن حجر من كتاب « الدلائل » .

18 - أبو محمد قاسم بن أبي إسحاق القرطبي ، ويعرف بالهماني ، محدث الأندلس ، رُحل إلى المشرق مع أصحابه ابن أبي عمير ، وابن عبد الأعلى ، وسمع كثيرا ، وقيد وجمع علما جما .

كانت الرحلة إليه في الأندلس ، وفي المشرق إلى أبي سعيد بن الأعرابي - وكانا متكافئين قسما . (ت 340 هـ) (38) .

ومن أشهر مؤلفاته (المصنف) قال فيه ابن خزم مصنف قاسم بن أبي إسحاق رقيق ، احتوى ضمن تصنيف الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات (39) وهو من الدواوين التي اعتدتها ابن حجر وأخرج لها .

(21) تاريخ علماء الأندلس 1/360 ، طبقات الزبيدي 369 ، جذوة المقتبس 312 ، تذكرة الحفاظ 853 ، النسخ 49/2 ، شجرة النور 88/1 .

(22) تاريخ علماء الأندلس 1/365 ، جذوة المقتبس 311 ، الصيلة 118 ، بغية الوعاة 375 ، تذكرة الحفاظ 67/3 ، لسان الميزان 4/458 ، النسخ 47/2 ، شجرة النور 88/1 .

(23) انظر رسالة ابن خزم في فضل الأندلس ص 13 ، - ضمن الرسائل الثلاث التي كتبها صلاح الدين المنجد .

(24) طبقات الشيرازي 101 ، تاريخ علماء الأندلس 1/369 ، جذوة المقتبس 313 ، ترتيب المدارك 4/642 ، الديباج 138 ، عبيد الذهبي 2/52 ، تذكرة الحفاظ 4/1021 ، شذرات الذهب 3/40 ، هدية العارفين 48/1 ، شجرة النور 100/1 .

(25) انظر الديباج 139 .

(26) وانظر عن قيمة هذا الأصل مقدمة النسخة اليونانية المحفوظة بالخرانة الملكية رقم 16862 .

(27) ترتيب المدارك 4/616 ، معالم الأيمان 3/168 ، الديباج 199 ، نكت الهميان 217 ، الوفيات 9/3 ، تذكرة الحفاظ 3/1079 ، شجرة النور 1/97 .

(28) تاريخ الجزائر العام 1/361 .

19 - أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد ابن عبد الله بن جعفر الأصبلي ، نسبة إلى أصبلا بالمغرب . دخل الأندلس في طلب العلم والرواية ، ثم دفعه ظموحه للرحلة إلى المشرق . فطوف على كثير من البلدان ، وسمع من عشايع العصر ، وبنه اشتهرت رواية البخاري بالمغرب ، استوطن قرطبة ، وتشر بها علمه ، كان خافضا عائما بالحديث ، رأسا في الفقه ، قال الدارقطني : لم أر مثله . أخذ عنه علم كثير (ت 392 هـ) (24) من أشهر مؤلفاته كتاب « الدلائل » - التي أمهات المسائل ، - في اختلاف مالك ، والشافعي وأبي حنيفة ، وذكره بعضهم من بين شيوخ الموطأ (25) ، أقام عنه ابن حجر . واعتد رواة الأصبلي كأصل من (26) الأصول التي عاد إليها في « الفتح » وقبه على الاختلاف بينها وبين غيرها ، وانتقد مبرأوا وجهها ضعيفا متبعا .

20 - أبو الحسين علي بن محمد بن خلف القانسي كان واسع الرواية ، عالما بالحديث وعلمه ورجاله ، أول من أدخل صحيح البخاري إلى الأندلس (ت 403 هـ) (27) .

من مؤلفاته (ملخص الموطأ) - ينقل عنه ابن حجر

21 - أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي أصله من الصيلة . وقيل عن بسكرة . كان بطرابلس الغرب . وبها أملى بعض كتبه ، ثم انتقل إلى نيسابور ويرجع أن تاليفه لكتاب المصححة على صحيح البخاري كان بها . (28) ولعله آخر مؤلفاته .

كان عالماً متقناً ، له حظ من اللسان والحديث والنظر ، لم يتفقه - في أكثر علمه - على إمام مشهور ومن أخص تلاميذه أبو عبد الملك البوني ، وكفاه خلافة أن يروي عنه حافظ المغرب أبو عمير بن عبد البر (29) . (ت 408 هـ) (30) .

له مؤلفات ، منها :

- كتاب «النصيحة» شرح البخاري - وقد استقى منه ابن حجر كثيرا . والداودي أول شارح للبخاري - فيما يذكره صاحب تاريخ الجزائر العام 362/1 ، وكنت ترددت في مقال سابق (31) ، أن يكون الداودي أول من أراح السبيل عن هذا المؤلف الجليل ، الذي أعيا جهابذة العلم أدراك أسرارته وبغائره ، حتى رأيت ابن حجر في «الفتح» (32) يسميه بـ (الشارح) ، وهو لقب على أول شارح لكتابنا ، على أن أبا سليمان الخطابي (ت 388 هـ) - وهو منافق للداودي - قد شرح البخاري في نفس الفترة ، وسمى شرحه اعلام الفتن ، ولا تدري من السابق منهما ؟

وسبق القسطلاني - أول شرحه (ارشاد الساري) (33) - يقتضي أن شرح الخطابي أول شرح للبخاري ، ومثله لخارج خليفة في كشف الظنون ، وقد أخطأ كل منهما في تسمية والد (35) أبي جعفر الداودي ، مما يدل على عدم تحريره في هذا المقام ، والحافظ ابن حجر اختلط وأظلم ، وقد انتقد ابن حجر الداودي انتقادا غريبا ، وشاع ابن التين في تبسيع زلقاته ، وعدد كثيرا من غرائبه (36) ، وفي مقدمة ما يؤخذ عليه ، أنه كثيرا ما يفسر اللفاظ القريظة بلوازمها ، ولا يحافظ على القول بمعانيها (37)

وهو مع ذلك يحط ويسبب بأواله ، ويحتج لصحة الحديث وضعفه بأواله (38) - وهو مدام وقف دونه أيمة كبار .

ومن مؤلفات الداودي ، التي عاد إليها ابن حجر ، كتاب «النهي» شرح موطأ مالك (39) ، وقد أعلاه بطرابلس (40) الغرب قبل انتقاله إلى تلمسان .

(تابع)

تطوان سعيد أعراب

(29) فهرسة ابن خير 87 .

(30) انظر ترجمته في :

ترتيب المدارك 623/4 ، فهرسة ابن خير 27 ، الديباج 35 ، نفحات النور والرياح 95 ، شجرة النور 115/1 ، تاريخ الجزائر العام 36/1 ، معجم اعلام الجزائر 46 .

(31) مجلة دعوة الحق - العدد الاول السنة السابعة عشرة ص 83 .

(32) انظر المقدمة (هـ) الساري 10/3 ، 160 الشرح (الفتح) 17/1 ، 4/7 ، 108/9 .

(33) ج 41/1 .

(34) 545/1 .

(35) سماه كل منهما سعيدا ، والصواب قصر .

(36) انظر الفتح 79/6 ، 224/11 ، 32/12 ، 120 ، 154 ، 163 ، 172 ، 225 ، 322 ، 28/13 ، 21 .

261 ، 266 ، 275 ، 5/17 ، 278 ، 279 مع مواضع أخرى تجدها في الفتح فارجع إليها .

(37) انظر الفتح 256/14 - 257 .

(38) انظر مثلا الفتح 378/12 ، 474/13 ، 392 .

(39) توجد نسخة منه بخزانة القرويين تحت رقم 527 .

(40) فهرسة ابن خير 87 ، ترتيب المدارك 623/4 ، وتصحفت فيه كلمة «النهي» بـ (القاضي) ،

الديباج 35

«الأربعين»

المشتمل على ثلاثيات الامام البخاري

وزعت الادارة الدينية بمناسبة مرور اثني عشر قرناً على ميلاد الامام البخاري بمدينة سمرفند كتاب «الأربعين» المشتمل على ثلاثيات البخاري التي جمعها خادم الفقهاء والمحدثين الحاج محمد عوض ابن ملا ابراهيم الفخري في مدينة كاشغور (1974) .

ويسرنا ان نختار لقرائنا نص المقدمة التي كتبها جامع هذه الاحاديث التي سبق منها ستا واربعين حديثاً ختمها بالحديث المروي عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلمتان حبيبتان الى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ...

قال محمد عوض ابن ملا ابراهيم الفخري : اخرجت في آخر التصحيح هذا تمام الاحاديث الاربعين بعد استقاط المكررات ، وحذف الاسانيد فا عدا الثلاثيات المتكررة على مستوى الى الجامع الصحيح ... وقد انتهى من تنويده وقت الفجر من اواسط محرم الحرام عام 1323 هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العلوق في الاسناد اقربة للدين ، وخصى هذه الامة بشرف بقاء سلسلة الاستناد اليه ، والصلة والسلام على حبيبنا الذي نادى الى تبليغ احاديثه بقوله : «ياشركوا عني ولو آية» ورفينا لحفظها بقوله : «نصر الله امره سمع مقالتي فوعاها فادابها كما سمعها» وعلى آله واصحابه واتباعه الذين اتبعوا باخراه ، واتخذوا لبعثته ، فليكنوا لنا ما نحتاج اليه ، وحفظوا لنا ما نشتاق اليه ، اما بعد : فقد قال الامام ابو زكريا ، يحيى النورى رحمه الله في اول اربعينه : «روينا عن علي بن ابي طالب وعبد الله بن مسعود ونفاذ بن جليل وابي الدرداء وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وانس بن مالك وابي هريرة وابي سعيد الخدري رضي الله عنهم من طرق كثيرات وروايات متنوعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من حفظ على امتي اربعين حديثاً من امر دينها بقى الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء» وفي رواية بعث الله فقيها عالماً ، وفي رواية ابي الدرداء «بعث الله فقيهاً وكنت يوم القيامة

شافعاً وشهيداً له بالخير» وفي رواية ابن مسعود قيل له : «ادخل من أي ابواب الجنة شئت» وفي رواية ابن عمر : «كتب في زمرة العلماء وخشع في زمرة الشهداء» وقد اتفق الحفاظ على انه حديث ضعيف وقد صنف العلماء في هذا الباب ما لا يحصى فاول من طبعه حاتف فيه عيسى بن المبارك ثم محمد بن اسلم الطوسي العالم الرياني ثم الحسن بن سفيان الثوري ثم ابو بكر بن الحسين الاجيري وابو بكر محمد بن ابراهيم الاسفغاني والدارقطني والحاكم وابو عبد الرحمن السلمي وابو سعيد الماليني وابو عثمان الصابوني وعبد الله بن محمد الانصاري وابو بكر البيهقي ، وخلافق لا يحصى من المتقدمين والمتأخرين رضي الله عنهم اجمعين ، انتهى ... فازدت جمع اربعين حديثاً من احاديث سيد المرسلين مشتملاً على ثلاثيات الجامع الصحيح لامام المحدثين رجاء الاندراج في زمرة المتقدمين لانار هؤلاء الاعلام وحفاظ الاسلام مع اتفاق العلماء على جواز العمل بالحدِيث الضعيف في فضائل الاعمال ، على انه ذكر الشيخ عبد الدين القنوي ان هذا الحديث ثبت عند جماعة من المتقدمين من اهل الفضل والدين

بالاسانيد الصحيحة الواردة من طرق شتى ، وامثالا لما في الحديث الصحيح : « ليبلغ الشاهد منكم الفائب » على ما الصحفيين في خطبة حجة الوداع اي ليبلغ كل شاهد وسماع عني او من غيري منكم ايها الاصحاب ويدخل فيهم غيرهم بالبيعة كما في سائر النصوص وترقا للنفع العام ، وان يحتم الله لي بحسن الختام واضم الى الثلاثيات المذكورة وهي مع المكررات اثنان وعشرون ، ومع حذفها ستة عشر اربعة وعشرين حديثا من امور الدين ليكمل اربعون حديثا من احاديث الشرف المرسلين وقد قال المولوي عبد الحق في شرحه الفارسي للمشكوة عند ذكر الامام البخاري رحمه الكريم الباري وكثير من المشايخ والعلماء الثقات قد قرأوا هذه الثلاثيات لقضاء الحاجات وكفاية المهمات ودفع اليليات وكشف الكربات وشفاء الامراض وعند الندائه والمضايق ، فقالوا بمقاصدهم ، وسبوا ترقيا مجريا ، وهذا المعنى عند علماء الحديث مشهور ، ومستفيض انتهى . ورايت ان ارجل سندي في هذه الاربعين ترقيا الى سيدنا ورسولنا سيد الانبياء والمرسلين وعضلا بالسنة المؤكدة في الدين على ما في الفصول الستة لقدة الكبراء خواجيه محمد ياربا : « ان الاسانيد سنة مؤكدة خضبت بها هذه الامة التماسي . وسرا لطريقة السلف والحلف البية وهذا اوان الشروع في البقية ومنه التوفيق والعصمة فاقول مقترفا بالغز والقصور ، روينا اجازة في كتاب الاذكار للامام محيي الدين النووي بسنده الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او الى امرأة يتكهنها فهجرته الى ما هاجر اليه . هذا حديث صحيح متفق على صحته مجمع على عظم موقعه وجلالته وهو احد احاديث التي عليها مدار الاسلام وكان السلف وتابعوهم من الخلف وجمهم الله يستحبون استفتاح المناسبات بهذا الحديث تنبيها للمطالع على حسن النية واهتمامه بذلك والاعتناء به . روينا عن الامام ابي سعيد عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله من اراد ان يصنف كتابا فليبدأ بهذا الحديث . وقال الامام ابو سليمان الخطابي رحمه الله كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديم حديث الاعمال بالنية امام كل شيء

ينشأ وينتد من امور الدين لعموم الحاجة اليه في جميع اوائها وبلغنا عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال انما يحفظ الرجل على قدر النية ، وقال غيره : « انما يعطى الناس على قدر نياتهم » انتهى كلام الامام النووي ، قال ابن الصلاح « ومن اقرب الوجوه في اصلاح النية فيه اي في طلب الحديث ما روينا عن ابن عمر وابن نجيد انه سأل ابا جعفر بن حمدان وكانا عبيد صالحين فقال له باي نية اكتب الحديث فقال : « السهم ترون عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » قال : « نعم » فقال فرسول الله صلى الله عليه وسلم راس الصالحين انتهى كلام ابن الصلاح نقله السيوطي في تدوين الراوي ثم اقول حديثا بهذه الثلاثيات : غيرها سيدي ومولاي خادم العلم والحديث بالمسجد الشريف النبوي السيد عني بن السيد الفاضل الومري المدني قال اخبرنا بها من طريق ابن شاهان وهي مملولة بالمعرب جملة من الائمة الاعلام منهم شيخنا العلامة الامام المحدث الهمام الشيخ عبد القوي بن ابي سعيد المجدي الفاروقي التقيتني الدهلوي ثم المدني ، قال اخبرنا بها الامام الحافظ الشيخ محمد بايد الانصاري السني ثم المدني قال اخبرنا بها خاتمة المحدثين الشيخ ضالح الفري الفلاني ثم المدني قال اخبرنا بها المعمر مائة وثلاثين واربعين سنة الشيخ محمد بن سنة العمري الفلاني قال اخبرنا بها اجازة العلامة ابو الوفا احمد بن السجل اليمني قال اخبرنا بها مقتني مكة قلب الدين محمد بن احمد بن محمد المكي الحنفي المتروالي قراءة عليه بمكة قال اخبرنا بها الحافظ جلال الدين ابو الفتوح احمد بن عبد الله الطاوسي قال اخبرنا الشيخ المعمر ثلاثمائة سنة بابا يوسف الهروي المشهور بسندسالة قال اخبرنا بها الشيخ المعمر مائة واربعين سنة ابو عبد الله محمد بن شاذيخت بن جريز الفرغاني ، قال اخبرنا ابو لقمان يحيى بن عمار بن مقبل بن شاهان الختلائي قال اخبرنا ابو عبد الله محمد بن يوسف بن مطهر الفديدي قال حدثنا الامام الحافظ امير المؤمنين في الحديث ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري رحمه الله قال :

الحديث الاول به خدثني المكي بن ابراهيم قال : حدثنا يزيد بن ابي عبيد عن سلمة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يقل علي ما لم اقل فليتبوا مقعده من النار » اخرجه في كتاب العلم . ا هـ .

الأسباب
التي دعت
إلى

علم الحرج والتعديل

للاستاذ فاروق حمادة

بعد نزول القرآن الكريم كان هناك تغير كامل في حياة الأمة العربية ، وتأثير كبير على سائر الفنون الفاضلة . فحدث نزول القرآن الكريم بها تضيئه من منبع رباني إلهي ، وما جواه ككتاب الله تعالى من المفاهيم المتجددة التي لا تنحصرها يد الخلدان شري ، يدعو إلى التأمل مليا .

ولقد كان هذا الكتاب : وأشرحه من قبل النبي صلى الله عليه وسلم - السنة - سبيها عباثرا لغير عدد - إن لم نقل كل - ! ! بين العلوم عند الأمة العربية الأصيلة ، كما أنه بعد نزوله أصبحت كل العلوم تسير لحماية أصول الإسلام القرآن والبيضة المظهرة ، والحفاظ عليهما ، وكانت جميع هذه العلوم من الهامها وسائقها الذي فتح أمام العرب وغيرهم آفاق المعرفة ، ينتهج سليم ، وتثبت رواج .

ومن هذه العلوم التي بدأت دور سابق وجود عند العرب ، ولا عند غيرهم ، فما تدعو « بعلم الجرح والتعديل (1) » الذي يعني بتحقيق الرواية والخبر ، وهو منهج لا يقد جدته ، ولا تنقص قيمته طالما روى الناس الأخبار ، وتناقلوا الأحاديث بمضمون عن بعض . وهو منهج غرر : لم يلج بابيه غير

المسلمين ، مع تكامله من جميع جوانبه ، فقد أصبح شامخ الأركان ، ثابت الأصول واليافان ، وقد استفاد منه كثير من غير المسلمين في ميدان التاريخ وغيره . وفي هذا البحث سأتناول الأسباب التي أدت إلى ظهوره لتعرف من هذه الأسباب كيف حفظت سلفتنا قرآنا الكريم ، وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ثم ما هي حدود استفادتنا منه الآن في مسيرتنا العلمية الحديثة ؟

على أنني قبل ذلك أقول : إن القرآن الكريم بها تعهده الله سبحانه وتعالى من الحفظ والرعاية (أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له الحافظون) - تدبر قينه القيل والقال ، في حين أنه كثر ذلك في السنة ، وهذا أكبر شاهد على التفرقة بين كلام المخلوق والخالق .

لقد تعددت الأسباب التي أدت إلى ظهور علم الجرح والتعديل كعلم له أركانه وقوانينه ، وكان المقصود والهدف من هذا العلم هو صيانة أصول الشريعة الإسلامية وما يتصل بها .

وقد تكلم الصحابة رضوان الله عليهم في أخطاء وقع فيها بعض منهم ، أما عن سمو أو عن تسليان ،

(1) الجرح ظهور وعصف في الراوي أو ناقل الخبر يلم عدالته ، أو يخل بخفضه وضبطه ، وما يترتب عليه من رد شهادته أو خسره أو التوقف فيه . والتجريح : هو إثبات وصف من الأوصاف الجارحة . والتعديل إثبات صفات العدالة في الراوي أو ناقل الخبر (والعدالة هي التزام ما تقتضيه الفطرة السليمة في غالب الأحوال مع الحفظ والضبط) .

أو عن عدم وصول العلم اليهم كما في حديث (انبا
الماء من الماء) فقالت عائشة رضي الله عنها : اذا
التقى الختان فقد وجب الفسل : أو عن خطأ في
الاجتهاد .

وفي احيان كثيرة نجد ان الذي يخطئ غيره هو
الذي يقع في الخطأ (2) .

وقد كان الخطأ في جيل الصحابة رضوان الله
عليهم ناعرا نظرا لسيلان افعالهم وقوة حافظتهم ،
واخلاصهم ومع ذلك فلم يكتفوا عن هفوات نادرة
صديرت .

اما غير الصحابة فيمكن تقسيم الاسباب التي
ادت الى ظهور الجرح والتعديل الى قسمين رئيسيين

1 - صيانة الرواية من الوهم والسيان .
والعوارض البشرية .

2 - صيانة الرواية من التفتيش والوضع
والامتناعات .

اما القسم الاول فالمقصود من الخطأ ليست
لاحد ، ولتنتج كما قدمت كانت في الرعييل الاول
نادرة . وهي كذلك في عهد كبار التابعين . ولما
انتشرت راية الاسلام في شرق الارض وغربها ،
ودخل في الاسلام ائمة غير عربية ازداد اللحن والغلط ،
وذلك من انواع متعددة .

1 - ففي عصر اوساط القابسين - اوائل القرن
الثاني الهجري - وجد جماعة من الرواة يرفعون
الموقوف والمرسل ومنهم من كثر خطؤه ، وجعل كلام
الحسن من انبياء ، من كلام النبي صلى الله عليه
وسلم . وما اشبه هذا ، ومن هؤلاء ابو جابر
العبدى ، وابان بن ابي عياض ، ويزيد الرقاشى .

ب - ومنهم جماعة اخطأوا في آخر اعمارهم حتى
لم يكونوا يفتنون بما يحدثن ، فاجابوا فيما سئلوا
وحدثوا كما سناؤوا فاختلط حديثهم بالسقيم ،
مثل ذلك ما اخرج ابن حبان بسنده قال : سأل
عيسى بن يونس عن ابي بن ابي سليم : فقال :

زائفة وكان قد اختلط وربما قربت به ارتفاع الخبر .
وهو على المنارة يؤذن (3) .

ج - ومنهم من كتب الحديث ورجل فيه الا ان
تنبه قد ذهب ظنا اذيع اليه كان يحدث من كتب
التابعين من غير ان يخطئها ، او يكون له بها سماع ،
فيقع في الخطأ ، ويخالف قواعد المحدثين ، ومن
هؤلاء عبدالله بن طيمه .

د - ومنهم من امتحن بلين سوء . او وراق
سوء ، او جار زائف ، كانوا يفتنون له الاحاديث ،
وقد امن المحدث جانبهم ، فكانوا يقرؤون عليه ،
ويقولون : هذا من حديثك فيحدث به الشيخ ،
فالشيخ في نفسه ثقة الا انه جانب العيوب في حديثه
ع - ومنهم من يسبق لسببه بالغلط ، فيكتب عنه
بلامه ذلك ويسرى بينهم . الخ .

وعنه الامور ما كانت لتجر على اجابذة العلماء
الذين قضيهم الله عز وجل لوذا الدين فكانوا يفتنون
الروايات ويثبتون منها الصحيح والسليم من المعلول
والسقيم .

واما القسم الثاني : والذي يرجع الى العدالة في
الرواية والنقل ، فقد انتشرت حركة الوضع
والاختلاق في الحديث والتاريخ ، وعقبت عدالة كثيرين
من اتسبوا الى العلم ، وكان واضعون مختلفين
المقاصد والافراض ، واغم الفوائض لهم ما يلي :

1 - الفن السياسية : ففي النصف الثاني من
خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه حدث الشقاق ،
وبدا ظهور الاحزاب السياسية ، واتقسم الناس في
ذلك ، واول من اثر عنه الوضع في هذا هو ابن
عديس ! ، فقد حكى ابو ثور الفهمي قال : قدمت
على عثمان ، فحدث ابن عديس الخبر ، وقال : الا ان
عبد الله بن مسعود حدثني انه سمع رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : الا ان عثمان افضل من
عبد الله بن مسعود . ! ! فاجبرت عثمان فقال :
كذب عذو الله بن عديس ، ما سمعته من ابن
مسعود . وما يسمعه ابن مسعود من رسول الله
صلى الله عليه وسلم قط (4) .

(2) انظر لملة كثيرة على هذا في كتاب الاجابة فيها استدراكه عائشة على الصحابة ، للزركشي .

(3) انظر ابن حبان : المجروحين من المحدثين 63/1

(4) انظر ابن الجعفي : الموضوعات 335/1

ويزداد الوضع والاختلاق منع ازدياد الفتن السياسية : فكانت العثمانية ينفقون الاحاديث التي ثبت ان عثمان قد قتل مظلوماً ، وأنه شهيد ، ثم ظهرت الشيعة الذين اعلنوا الولاء لعلي ، وغالبي بعضهم ، قالوا كما فعل ابن سبأ في حادثة سيدتنا على كرم الله وجهه ، ووصفوا الاحاديث الكثيرة التي تزيى بمكانة الشيخين ؛ ابي بكر وعمر رضي الله عنهما وفي الاحاديث الصحيحة الثابتة عن الشيخين ولعلنا رضي الله عنهم جميعاً في رفع شأنهم والتولية بفضلهم .

وتبرز الاموية في عالم السياسة ، ويقع الصدام بين الاموية والشيعة : فيضع الشيعة الاحاديث في قلب معاوية ويزيد : وبنى امية عتوما ، ويرد عليهم ضعيف الايمان من انصار بني امية .

ومن نظرة في كتب الموضوعات والجرح والتعديل يظهر لنا ان العراقي كانت اهم مسرح لحركة الوضع هذه ، وخاصة الكوفة ، بحكم كونها عاصمة سيدنا على رضي الله عنه والشيعة ، وبقيت حاملة لواء المعارضة طوال الحكم الأموي . كما انه ثبت في ارض العراق كثير من الادعياء الذين ادعوا النبوة (امثال المختار الثقفي .

وهذا الرواج الكثير في وضع الحديث جعل على الجرح والتعديل ينفقون من حديث اهل العراق خوفاً من كفة التبصر والخذر ، والنقد الشديد ، حتى انهم كانوا يسمونها دار الضرب . ذكر عبد الرحمن بن مهدي ان ما سمعه بالمدينة المنورة من الحديث خلال اربعين يوماً سمعه في يوم واحد في العراق ، فاجابه مالك رحمه الله : من اين لنا دار الضرب التي عندهم ؟ ! تضربون بالليل وتنطقون بالتهار (5) .

ب - الخلافات الكلامية : والتدع : ولها ساعد على كثرة الافتئات على النبي صلى الله عليه وسلم والتاريخ ما ظهر كذلك في اوساط عصر التابعين من الفرق الكلامية المتعددة : كالتورية ، والمرجئة ، والجممية ، وكل واحدة تنصر اراءها ، وتختلف في الاحاديث التي تؤيدها في ذلك لان المسلمين يثقلون

الشيعة من النبي صلى الله عليه وسلم . ووقفت آخرون يكفرونهم ، ويضعون الاحاديث في ذلك ليجهلواهم في عين الناس فخرجين عن الله ، وكشال على هذا ما وقع حول مسألة زيادة الايمان وتنصاته احاديثه ليست بالقليلة ، وكذلك الجسمة والمهطقة ، والثالثون يخلق القرآن ، والذين بحثوا في الصفات الالهية فلنا منهم ان الطريق الي آرائهم الفاسدة سهل ، وذلك بضرب الاحاديث ، واختلافها !!

د - الرادفة (6) : وهم قوم يفسسرون بالاسلام ، ويضمرون له ولاهله العدا ، وكانوا كما قال ابن عراقي الكناشي : هم السابقون الى الوضع والهاجمون عليه ، يحاولون بذلك تشويه السنة النبوية ، وانقاصها ، والحط من قيمتها على نفوس المسلمين ، وكانوا يدخلون المدن ، ويتشبهون بأهل العلم ، ويضعون الحديث على العلماء ويروون عنهم ليوقعوا الشك والريب في قلوبهم (7) .

ومن هؤلاء : عبد الكريم بن ابي العوجاء ، ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب ، والجارث الكذاب الذي ادعى النبوة في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، وسكن عاصمة الخلافة آنذا دمشق ، ثم قتله عبد الملك صلياً .

هـ - القصاص والتشحاتون : الذين كانوا يستميلون وجوه العامة اليهم ، ويستأذون ما عندهم بالناكير والمقارب ، والاكاذيب والتقصي المفتلة : وقلوب العامة تميل الى الذين يغريهم ويترقبون القلوب ، فيلجؤون الى التحويل في صفة جنتهم والعذاب ، او الجنة والثواب وجزاء الاعمال مما يسيل فمؤع الجهلة ويجعلهم يتواجدون في حلقة القاص ، ولعل كثيراً ممن ينتسبون الى العلم القرعي في ايمانهم وهم جيلة هذا سبيلهم .

و - الزهاد والصالحون : وقد حملهم تديتهم الناشئة من الجيل الى وضع احاديث في الترهيب والترغيب والترهيب ليحثوا الناس بزعيمهم على الخير ولينزجروهم عن الشر - فالزهد والصلاح اذا لم يكن عن علم ومعرفة فهو مجيبة واية مضيية - !! وجوز الوضع

(5) انظر الذهبي : المتفق من يحتاج الاعتدال من 88 ، واكرم البصري في بحوث في تاريخ السنة من 23

(6) قال في القاموس : الزنديق من التنوية : او القائل بالنور والظلمة : او من لا يؤمن بالآخرة ، او

من يبطل الكفر وينلج الايمان او نحو معرب زين دين : اي دين المراد

(7) انظر ابن خبان : المجروحين عن المحدثين 1 .

وسلم كان يلينها ، وكان الأسماء يخفى بسن بعين
موجودا ، ففضحه على رؤوس الأشهاد .

ج - العصبية والشعوبية : وقد لعبت العصبية
والشعوبية دورا بارزا في التشديد على النبي صلى
الله عليه وسلم وتنويه حقائق التاريخ وتزييف
كثير من الأدب والشعر ، وكانت العصبية : إما
للقبيلة ، أو الجنس أو المدينة والقطر ، أو للمذهب
والثقة . ومما أخلق نتيجة لتعصب الجنس : دعوى
من السودان : أنها الأسود ليطنه وقبحه .

ومن أمثلة العصبية المدينية والإقليم بها ورد في
عقل جادة ، وعسقلان ، وعزوين ، والأرض
وخراسان ومن نظر في كتب تاريخ اليمن
وجغرافيتها ككتاب الأملق الثقفي لابن رسته ،
والبلدان لابن الفقيه البغدادي (10) ، وغيرها يجد
كثيرا من هذا الذي لا يقا به . وأما العصبية للثقة :
فأتباع محمد بن كرام مثلا قد وصفوا أحاديث في
فضله ، وهو يهوى به المالكوليا ، وأتباع أبي
حنيفة وصفوا أحاديث في فضل أبي حنيفة وزم
الشافعي ، ومن اتخش هذه الأحاديث التي وضعت :
يكون رجل في امتن اسمه النعمان ، وكنته أبو حنيفة
هو سراج امتن ، ويسمى في امتن رجل يقال له :
محمد بن ادريس ، فتنسبته على امتن آخر من
إلياس (11) .

هذه هي أهم العوامل والأسباب التي في جسد
ذاتها شر ، ولكنها أدت إلى ظهور هذا العلم العظيم
النافع ، إذ حيث كتأب العلماء الاعلام المخلصين
لواجبة هؤلاء الزائفين فتعدوا القواعد ، ووضفوا
الشواهد التي ستعرض لها في بحث مقبل بإذن الله
سبحانه وتعالى .

في الترغيب والترهيب الكراميه (8) وكذا بعض
المتصوفة الذين قالوا : نحن نكذب له . وليس عليه ،
وقد اشتهر من هؤلاء غلام خليل الذي كان زاهدا في
الحياة ، حتى ان مدينة السلام اغلقت أبوابها حين
موته ، ويمن بالبصرة واقعت عليه قبة ، وقد وضع
كثيرا من الأحاديث في الرقائق ، فلما سئل عنها قال :
اضغاثها لترقى قلوب العامة . يقول أبو داود
السجستاني : عرض على من حديثه غلطت في
أربعمائة حديث أسانيدھا ومتونها كلها كذب (9)
ومن أمثله فيسرة بن عبد ربه ، ونوح الخامع ، أبو
عصمة بن أبي مريم ، الذي قيل فيه : أنه جمع كل
شيء الا الصدق . ولعل هذا يلحق بهم في أيامنا من
يريدون الصادق ما يظنونه محاسن بالاسلام ويلتمسون
له الأدلة فان لم يجدوا اختلقوا له من حب في الاسلام
وحيث نية .

و - قوم جعلهم الشجرة ، وحسب الظهور على
الوضع والكذب على الله ورسوله : فكانوا يجعلون
للمؤمن الواهية المصنعة أسانيد صحيحة مشهورة ،
وبعضهم يركب للحديث أسانيدا غير استاده ليقترب
ويطالب .

قال أبو عبد الله الحاكم : ومن هؤلاء السبع بن
أبي حنيفة كان يحدث عن جعفر الصادق وهشام بن
عروة ، فيركب حديث هذا على حديث ذاك : ومنهم
أكرم بن حوشب ، وحماد بن عمار والتخميني ،
وبطلول بن غنيد .

ز - قوم جعلهم الترفق والتعلق ليحفظوا عند ذوي
الجاه ، وينالوا من دنياهم ، ويقيم دينهم وأخربتهم
ومن هؤلاء أبو البخترى وأمثاله : تدم هارون الرشيد
المدينة المنورة ، وأعظم ان يرتقى منار رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعليه قباء ومنطقة ، فيقطع
أبو البخترى بذكر حديث فيه ان النبي صلى الله عليه

فاروق حمادة

الرباط

(8) اتباع محمد بن كرام .

(9) انظر الخطيب : تاريخ بغداد 71/5 .

(10) انظر : أكرم طباطبائي : بحوث في تاريخ السنة ١ : .

(11) انظر ابن الجوزي : الموضوعات 48/2 - 49 .

بخاري

في خلال القرون الثلاثة السابقة للغزو التركي

لأستاذ المهدي البرجالي

حواشينا وراء النهر . وظلت بخاري في فترات من تدهورها السياسي ، مؤثان علم ، ومبعث إشباع إسلامي . لمعق مالها من أخباله في هذا المضمون

وبالنظر لهذا المقام الذي اجتلبه بخاري ، فإن مدونات الرحالة المسلمين الذين جاؤا ما وراء النهر ما قُست برحر بالحديث عنها في تركيز كبير . يستقصى كل ما أمكن استقصاؤه ، وبعضهم كان يذهب في هذا الاستقصاء مذهباً . لا يفل حتى إيراد أسماء محلات المدينة وأزقتها وأبوابها ، وما إلى هذا من التفاصيل . وحتى بعد أن داهمت بخاري داهية التار ، فإنها لم تقصر مع ذلك عن جذب اهتمام الرحالة ، في جوبهم مناطق ما وراء النهر . كما يظهر من رحلة ابن بطوطة مثلاً . وإن لم يكونوا يجدون في وقت من الاوقات - شيئاً ذا بال ينقلونه عنها .

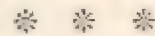
وفي هذه الرؤية لبخاري ، التي نحاولها من خلال مدونات الرحالة المسلمين - ننقضي إلى استبانة سمات من وجه هذه المدينة قبل ان يصيبها الطوفان التتاري ، مستشبين من ذلك ، بعض الصور من البيئة التي عاش في كنفها امام الحديث البخاري ، وهي صور تيفل - بتفاصيل العمران ، دون ان تركز بقدر كاف - على موضوعات الحياة الاجتماعية ، مما يبدو انه أفيد ولا ريب في التعرف على المحيط الحي الذي نشأ فيه الرجل ، وتكيف به في بعض مباحثي تفكيره وشلوكة .

أنجبت بخاري عدداً من اعلام الثقافة الإسلامية ، منهم أبو زكرياء عبد الرحيم أحمد التميمي البخاري الحافظ . من رجال الحديث ، توفي على ما يعتقد في حدود 461 هجرية . وأبو علي بن سينا الفيلسوف والطبيب الاسلامي المرموق ، توفي سنة 428 هجرية ، والامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن عفيف البخاري الجعفي ، مصنف الجامع الصحيح ، والمتوفى سنة 256 .

ولعل هذا الاخير من أشهر المشاهير الذين ابقيتهم بخاري . الا ان شهرة المدينة ، لا ترجع فقط إلى كونها الجب من اجتمع من رجالات . وإنما كذلك ، إلى المشاركة الفعالة ، التي كانت لها في عامة التاريخ الاسلامي ببلاد ما وراء النهر ، حيث لبث طويلاً بعد فتح المسلمين لها ، مركز استقطاب للوجود الاسلامي بتلك الانحاء . ولبثت - خاصة على عهدها بالسامانيين - مركزاً متقدماً من الاردهاز في مناج متعددة .

ومن ثم ، تنجفت حول بخاري - في فترات مختلفة - جملة من تيارات الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية في المجتمع الاسلامي بآسيا الوسطى ، ولها داهمت كاسح التار في اوائل القرن الهجري السابع ، واتي على مجتمعيها وحضارتها ، لم يستطع مع ذلك ، أن يجهد مثلاً الانقباس ، بل انها ما عثت ان استردت بعض ما كان لها من شخصية بين

على أي : فليز المدينة ولو ضمن هذا الاطار المحدود - في ضوء الافادات التي نقلها بعض الرحالة المسلمين - ومن خلال ما سننبه هؤلاء - سنحفظ المدينة في ضوء ما كانت عليه أثناء القرن الهجري الرابع وفي امتداد الزمن بعد ذلك الى قسرو التتار ، وسنرى ان الصورة المتقولة ، تعكس تقريبا نفس المشاهد . مما يظن معه ان أصحاب هذه الافادات قد اقتصروا على ملاحظة العناصر الباقية من المدينة ، ولم يتعدوا الى ما وراء الخلقيات الأكثر تعرضا لعوامل التغيير ، والأكثر دلالة بالتالي على دقائق التطور الذي لاقته بخارى عرفت على الصعيد المادي والبشري ، مثلما تعرفه عادة كل حاضرة ، ذات موقع استراتيجي في مجرى التاريخ ، وتفاعل الحضارات .



إذا كان ذكر بخارى ، أو « بروجكت » أو « بروجكت » كما تدعى كذلك ، خلال العصر الوسيط : ما فتى يملأ الآفاق في آسيا الوسطى : فمن جيع ذلك ، الى عهدنا الإسلامي ، الذي كان منه منطلقا الى ما تالته من مقام اتين بين الخواضر العالمية في تلك الحقبة من تاريخ الإنسانية .

فتى اطار الوجود الاسلامي فيها وراء النهر ، تمت هذه المدينة وترعرعت على الوجه الذي تعرف به في سدونات الرحالة القدماء ، ومن اتجاهات الفكر الحضاري عند المسلمين ، استمدت وجهتها في الفكر والثقافة ، وباتصال بتاريخ الاسلام العام تهيأت ظروف تاريخها ، هي وانضبط نشاطها على متوال معين في مضمون ذلك التاريخ ، وتشكلت لها ملامح معينة في صورتها .

الا ان بخارى الإسلامية لم تقم مع ذلك في محيط فراغ تاريخي ، فالموقع الذي وجدت فيه المدينة ، انطرح طويلا بحركة الناس من الشرق وغرب ، قبل ظهور المسلمين هناك ، وعمرته تيارات ، واتراحت منه اخرى ، قامت فيه عمارة ، واندس فيها - لقد طهر الابرار في المنطقة ، منذ ازمة ميغلة في الماضي ، واقاموا على قبة نهر زرافشان مباني قد تكون اتخذت شكل مدينة او مدن حقيقية ، واستقام للايكندر لقرن في المنطقة . بعدما فتح بلاد فارس ، وقد يكون تهاد هناك بقى الابنية ، وربما

كان لبعض الامم الآسيوية الآتية من الشرق وجود ايضا في تلك الارض أثناء حقبة من الحقب .

والمسلم به ، في اطار هذا التاريخ . انما كانت توجد مدينة ما في موقع بخارى قبل ان تهض المدينة المعروفة في التاريخ الاسلامي ، ومن ثم قائمينة الإسلامية . ثم تنطلق - كما ذكر - من فراغ مطلق في المكان أو في الزمان ، الا ان هذا التواصل في حركة التاريخ غير الحقيقة فيما قبل الاسلام وبعد ، هو بعد من ان يكون مجرد استمرار ، تشابه فيه اتجاهات الحركة التاريخية ، وتماثل الخصائص والاشكال المتولدة عن هذه الحركة ، وهذه بديهية بسيطة . تصدق على بخارى ، كما تصدق على غيرها من الخواضر الإسلامية ، التي نبتت في مواقع كان يوجد فيها تعمير سابق فيما قبل الاسلام .

وأول ما يتبادر من ملاحظة تاريخ موقع بخارى فيها قبل الاسلام وبعد ، غيوض تاريخ الموقع في العصور القديمة ، ووضوحه على التقيض من ذلك - في خلال عهده بالمسلمين ، على الرغم من ان هذا الموضوع غير كاف اذا ابتغينا تفصيلا دقيقا لخلقيات الصورة التي تعرضها علينا المصادر الإسلامية .

ولا يخفى ان نفس غيوض تاريخ بخارى قبل الاسلام وبعد المسافة الزمنية ، والتاريخ يحتفظ لمدن اخرى - بعيدة هي كذلك في صدى الماضي - اثنا مثلا معلومات ضافية تلقى على بعض جوانب حياتها القديمة ضوءا كشافا .

ومن الممكن تفسير الامر في جملة ما قبله بفسر به - احتمال ان تكون بخارى لم تتعد قبل الاسلام ، نطاقا محدودا في طائفتها الاقتصادية ، وتطورها الاجتماعي ، الامر الذي قد يكون ترتيبه . ان فاعليتها في التاريخ بقيت محدودة بقدر ذلك . على ان الذي لا جدال فيه - ان الموقع كان باستمرار موقعا هاما في عصور التاريخ المختلفة ، وقد تضاعفت اهميته هذه في العهود الإسلامية عندما صار الامر فيها وراء النهر الى آل سامان في الحقبة ما بين اواسط القرن الهجري الثالث ، واواخر القرن الرابع .

وقد برز فجر بني سامان هؤلاء ، وكانوا من اصل فارسي ، في عهد الملوك العباسي الذي قلدهم بلاد ما وراء النهر ، وفي ظرف حكم هذه

اتجهت إلى هذا الفن . وبقوا لها بول في العاشرة ، وما ان غادر بخاري ، إلى بلاد العرب لاستكمال ثقافته الدينية ، حتى كان قد بلغ في مخطط رأسه ، مستوى مهما في الحفظ والاستيعاب .

ويعرف عن ابن سينا من جهته ، انه تلقى بخاري قسطا كبيرا من حصيلة علمه في الفلسفة والطب وغيرهما ، وكان له في خزائن الكتب بالمدينة ، مورد قيم ، نول منه الكثير .

وقد برز وزيران في العهد الساماني بخاري ، كل لهما أثر مهم في رعاية الحركة الثقافية بالمنطقة ، أحدهما : هو أبو فضل محمد بن عبيد الله الهميني ، الذي كان « واحد حصره في العقل والرائي » كما ذكر عنه (1) ، ثم أبو عبد الله محمد الجبلي الذي كان وزيرا لنصر بن أحمد ، وكان كلا الرجلين من أهل الكتابة والتأليف .

الرحالة المسلمون الذين تحاول رؤية بخاري من خلال أفادتهم هم : شمس الدين بن عبد الله مخنف بن أحمد بن أبي بكر البناء الشافعي المعروف بالمقدسي ، المتوفى سنة 387 . وواضع كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » وأبراهيم محمد الفارسي المعروف بالإسطخري مصنف كتاب « مسالك الممالك » والذي يظن أنه عاش في النصف الأول من القرن الهجري الرابع .

وشهاب الدين أبو عبيد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البقلاوي صاحب موسوعة « معجم البلدان » والذي ولد في حدود 574 ، وافته المنية سنة 626 . ثم أبو بكر بن جعفر الترشيحي ، المتوفى سنة 348 . ومصنف كتاب « تاريخ بخاري » .

وكما يلحظ ، فإن أغلبية هؤلاء : المقدسي والإسطخري والترشيحي ، تنتمي إلى القرن الرابع للهجرة ، أي إلى نفس الحقبة التي كانت فيها بخاري تحت حكم آل سامان ، وكانت لها بموجب ذلك - ظلال نفوذ مبرزة على بلاد ماوراءالنهر ، بعد أن تضاءلت سمرقند أمامها في أعقاب صراع السلطة الذي نشب حول لابن سامانيي المدينتين ، أما الرابع (ياقوت)

الإسرة ، تبلورت حالة من التنافس السياسي بين سمرقند وبخاري ، على الرغم من أن المدينة الأولى ، كانت هي قاعدة الحكم في بلاد ماوراءالنهر ، وقد انتهى هذا التنافس إلى خلق وضع معاكس ، فصار لحاكم بخاري اسماعيل الساماني الأمر في مناطق ما وراء النهر ، بعد أن ظهر على حاكم سمرقند ، نصر ابن سامان في نزاع طويل بينهما .

وقد افترق نفوذ اسماعيل الساماني سياسيا فسي بخاري ، يتفوق هذه المدينة مستورا على غيرها من جواهر المنطقة ، وسيروزيها محور نفوذ قوي يهيمن عليه السامانيون ، ويستقطبون فيه فاعلية الحياة العامة في جزء كبير مما كان يدعى ببلاد المشرق ، وتحت مظلة هذه الدولة قدامى أمر دولة مؤمنة من دول المشرق . هي الدولة الصفارية ، وحاجت بالبرييين ضربات شديدة ، وفي كسل ذلك كانت بخاري محورا مركزيا أساسيا تدور حولها ، عراجل التجاذب السياسي ، والتطورات الناجمة عنه فيما وراء النهر ، وبحكم ذلك ، كانت هي من جهتها موضوع رجاء قوية في ذلك المقترب ، بحيث تداولتها غير ما مرة أيدي المتصارعين ، إلى أن تم في النهاية اضمحلال نفوذ آل سامان ، أمام قوة القزوينيين ، القوة الجديدة التي ظهرت آنذ في بلاد المشرق ومن ثم ، دخلت بخاري في طور جديد ، صارت فيه مقابلهما إلى المضر الطوراني . بعدد أن قضت نخبا من الزمن في ظل العنصر الفارسي ، وهو أخذ وزد ، لم يكن قريبا عن موقع بخاري ، إذا وضع في الاعتبار ، ما انتاب ذلك الموقع في التاريخ القديم قبل الإسلام ، من توافد موجات آسورية ، وغير آسورية عليه ، وافدة من شرق أو غرب .

وبموازاة النفوذ السياسي الذي أصبح لبخاري فيما بين القرنين الثالث والرابع الهجريين ، شهدت المدينة كذلك مظاهر نشاط ثقافي ، على الصعيد العلم والأدب ، وإن لم تكن تلك النشاط ، متوافقة دائما مع الأحوال التي كانت فيها المدينة متفوقة من الناحية السياسية .

ومنطلق حصيلة الأمام البخاري من الحديث ، كان في بخاري بالذات ، ويذكر في سيرته ، أن حصه

قصر وحيالات الفترة فيها بين القرنين السادس والسابع الهجريين ، ومبدلول هذا ، ان الرجل عايش العصر . الذي هو ك فيه بخارى من قمة ازدهارها القديم . بعد ان اتمسحها الهد التاري ، الذي تركها ردا خويلا من الدهر ، اطلالا شبه خالية ، وقد يسمع الفارق بين العصرين . عصر الترخي والمقدسي والاصطخري من جهة ، وعصر ياقوت من الجهة الاخرى بملاحظة المدينة . فيما نقل عنها ايان ازدهارها . قبل التار . وفي فترة ما بعد سقوطها تحت وطأتهم ، الا ان الذي يلاحظ ان معجم ياقوت . لا يصفنا بشيء من هذا القبيل كما نستطرق اليه بعد .

وفي فصوص المصادر التي ستعرض لها ، يجد المرء أحيانا نوعا من التكرار في المعلومات المدونة عند مؤلف أو آخر ، وقد يغفل هذا في بعض ما يقدر به . يكون المدينة ربما كانت تعرض نفس المشاهد على الرحالة الذين يزورونها ، الامر الذي لم يكن له الا ان يجعل العلماء منهم شيئا متباينة في بعض الحالات ، الا انه لابد ايضا من اعتبار العادة التي ترج عليها بعض المؤلفين الجغرافيين القدماء ، وهي النقل عن بعضهم البعض ، وهذا وحده هو ما يفسر التطابق الحرفي في بعض الإيرادات من هذا القبيل .

والفحير للنظر ، ان ياقوت نفسه ، الذي تخصص جزوا كبيرا ليخاري في معجمه ، قد ذهب أحيانا - هو الآخر - الى تزديده بعض المعلومات التي اعتمدها سابقوه ، على الرغم من انه ، يختلف عنهم اختلافًا شاسعا من حيث الفترة الذي عاشه ، ويتميز بتأخر زمنه الى ما بعد الحين الذي ترقست فيه بخارى لغزو التتار ، الامر الذي يؤزم عنه - لو انه كان قيد زار المدينة بعد مرور التار فيها - ان يكون له المجال موفورا لتسجيل بعض الحقائق الفريدة عن حالة بخاري في تلك الآونة ، وماذا خسارت اليه تنبؤاتها على اثر التدمير الذي منيت به حيثما غير ان ما خصه ياقوت معجمه ، لم يتعرض لشيء من هذا . او ما يتم عنه ، وانما هو - في عدد من النقط - شبه محاكاة لما اشار اليه آخرون ، مع بعض التوسيع في المعلومات المتعلقة بتاريخ المدينة واعلامها . دون ان تنضج من طريقة العرض ، كهيئة استطلاع شخصي للاسور .

على ان وصف ياقوت لبخاري ، يتميز ، متبعا كالم الامر - بما نقله الرجل من تصور شيقه عن مشاهد الاخضرار حول المدينة ، ووفرة الفمران فيها ، وانعكاساته الاجتماعية ، حتى انه ليس بخراسان وما وراء النهر . مدينة اشبه اشباك من بخاري ، ولا اكثر اهلا على قلوبها . . . غلبي جدد التعبير الوارد .

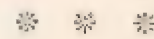
ومدرك هذا ، ان بخاري التي شاهدها ياقوت او سمع عنها ، كانت في مستوى متقدم جدا ، مسن حيث الخضارة والازدهار الاجتماعي ، والمعروف . ان رحلة ياقوت لما كان يعرف ببلاد المشرق ، حصلت في عهد مبايقي لغزو التار للمنطقة . وقد اقام الرجل خويلا في مرو الشاهجان . ومن خزائنها اسنيد كثيرا من معارفه . وفي هذه المدينة بالذات ، ثبتت في ذهنه فكرة تأليف معجم البلدان كما يوضح في تصديده كتيبه (2) وكان ذلك في سنة 615 هـ ، وفي السنة التالية 616 غزا التار بخاري ، واوقعوا فيها ، وساعتها يارج ياقوت بلاد المشرق لا يلوي على شيء . واتجهه مغريا الى السلام حيث اقام بظاهر حلب السى ان واقفة نيته .

وعلى هذا ، مما يؤيد بان الرجل - اذا كان قد رأى بخاري ، قاله يكون راجعا ، والتار لما يطووها باقدايم بعد .

ويبدو من التاريخ الذي تضمنت فيه عند المؤلف فكرة تأليف الكتاب ، ان ياقوت ، قد لا يكون تفزع لتدوين معظم المعجم ، الا في خلال تلك الفترة التي امضاها بالشام في اواخر حياته . ولاشك انه جلب معه من بلاد المشرق - مثل ما جلب من مناطق اخري من العالم - جملة المذكرات والوثائق التي استعان بها في تدوين مصنفه . ومنها ما يتعلق ببخاري - على ما هو ظاهر ، واذا كان ياقوت قد اقبل الاشارة الى اذاعيل التار ببخاري ، فيلوح انه كانت تنقصه - وهو في الشام بعدا عن سرح الاحداث التي فر منها المعلومات اللازمة عن الوضع ، سيما اذا جعلنا نصب العين ، الفارق الشاسع بين امكانيات الاستفلام في عصرنا ، وبين ما كان عليه الامر من هذا القبيل في تصور قديمة . وتجد في معظم البلدان انباءات عن

تخريب البتار - (خوارزم) (على المجرى الأنفل)
 لنهر جيحون) وغروهم - (مرو الشاهجان) قس
 اقليم خراسان (3) بيد انها ايماءات جمة مقتضية
 مما قد يتبي بها كان عليه ياقوت من فقوور العلم
 بالماله هناك ، فبالاخرى ، قصور علمه الواقع بخارى
 فى ذلك الطرف ، وهى ايماء موقفا بالنسبة اليه فى
 الشام . وعلى اى ، فان ما اوردته ضاخب المعجم عن
 بخارى ، يرسم صورة للمدينة ، وعنده استوفت شروط
 ظهورها ، وازدهارها الى انطلقت ببداية عهدهما
 بالسامانيين . وهو نصيح حضارى ، اخذت تقوى
 يد . فى مفارقة اخرى من مفارقات التاريخ - دواعى
 تلوح نحو الانهار . وكما يعلم . فما لبث ذلك الانهار
 ان حصل لها - ولو بصورة مؤقتة - تحت قنريات
 رجال جنكيز خان .

بقى ايز بكز محمد بن جعفر الترسخى . وكفاية
 تاريخ بخارى) من بينهم اهم المصادر الاسلامية
 عن فاضى بخارى وثاقتها . وقصيد تضمن معلومات
 فريدة عن ترى الناحية ومتنجاتها وتقاليدها ، مما
 لا يتيسر العثور عليه فى غيره ، الا انه لستم يأت الا
 الوقوف على بعض الثيف بما فى الكتاب . نقلتها
 الموسوعة الانشائية ، وتنضج هذه الافادات
 المتقولة . بمدى قيمة المعلومات التى تمنها المستف
 كتابه . وهى معلومات مستقاة من مجال شائسة
 موضلة فيما يبدو ، وان كانت هذه المعلومات تشابه
 فى عدة احيان ما نقله عن بخارى ، الرحالة العارون
 الذين كتبوا فى الموضوع .



الصورة التى نستشفها عن بخارى من خلال
 شروخ الجغرافيين المسلمين الذين اسلفنا ذكرهم ،
 هى صورة مدينة : مسورة الجنيات ، متاخلة عمران ،
 كثيفة ، خيعة البيوت ، واسعة المسالك ، كتيرة
 الاسواق ، باذخة القصور ، معمورة الضواحي ،
 تكتنفا يقع اخضراؤها وهالك فى صورة شياخ
 ويساتين ، وتجرى من خلالها ، او من خلال بعض
 قطاعاتها بالاصح - جداول مائية متسعة ، تغذى
 نضرة الاخضرا الذى هو بها محيط ، وتبيت فيها
 على مدى واسع ، طواحين المياه ، متممة بلامح

الذكر . المتكاملة فيه الطبيعة والحضارة : الذى
 كانت تظهر به بخارى لرائها انها صورة مدينة
 قروية - نسبة للقرون الوسطى - على مثال منها
 تتميز به الفواضير المهمة خائضد من مرفسقى
 ومعاله . وتمت خصوصية فى مشهد بخارى نفس عليه
 غير واحد . ذلك هو اعتماد العمران فى المدينة على
 المادة الخشبية . حتى ليدوان بيوتها العمراية فى
 عمومها ، كانت موزونة بنسبة الخشب . بل انسه
 ليكاد يدرك من لفظ الاصطخرى ان بناءها فى عامته
 كان من خشب . وعنده فيما ذكره ياقوت كذلك ، وقد
 ذهب المقدسي . فى تحسبه لطبيعة بنة المدينة على
 هذا النحو . الى القول بانها كثيرة الجريق (والخشيب
 عنصر شديد القابلية للاشتعال كما يعلم) ولعل قى
 هذا . ما يفسر الجطرام المدينة بالجرانق عنه عزو
 البتار لها سواء على احتمال ان استعمال النار فيها
 حيثئذ ، كان متعمدا فى كل الاحوال ، او كان فى بعض
 الاحيان عفويا ، نتيجة الفوضى الشاملة التى خيمت
 على المكان فى فترة الفتنة الفسواء .

وعلى الرغم مما يطبعه فى الذهن ذكر شيبان
 البيوت ، وازدهام العمران من صورة قد يظهر منها
 ان بخارى ، كانت حيثئذ عبارة تجمع سكنى مضطوط
 الامتداد مكنزها فان الواقع ان مساحة المدينة ، لم
 تكن ضئيلة رغم ذلك . بل تحتل حيزا ، يمتد على
 التى من فرسجا فى مثله ، وتتميز فيه ثلاثة
 اجزاء اساسية ، تستخلص عنها اوردته الرحالة قسى
 الموضوع . والجزاء هذه هى :

القنينة الرئيسية ، تم « القهندز » وهو لفظ
 فارسي الاصل ، يراد به ما يقابل ميدول القلعة عندنا ،
 اما الجزء الثالث ، فغرف الرنض ، او الضاحية ،
 وستعص الاسطخرى وياقوت الذى ظهر انه قبل
 بعض ما اوردته من هذا ، فى تمديد الالفاظ المبهمة
 دلالة على عمران هذه الاجزاء ، وما حولها ، وانشار
 مظاهر العيشة النائية فى خلال ذلك ، فناء المدينة
 على ما ذكره اذان ، مع بعض الفارق البسيط قسى
 التعبير ، حافلة بالقصور والبساتين والمعال والشكك
 والقرى المتصلة . بل يشير المقدسي وغيره الى ما
 اوردته مدنا داخل الحائط ولعلها كانت غرى كبيرة
 تتصل بالمدينة ، وعدوا منها خمسة هى :

« القلواؤيس » ولها سوقه يقوم كل سنة ، و « زلندة » وهي كثيرة الضياع لها حصن بنىه الجامع « وحجادي » وعليها حصن به الجامع ، و « سكران » لها حصن ورياض حسن . فقلنا عن « يومجكت » المعروفة .

ويشيد المقدسي خاضعة بجامع بخارى بماله ، من رحبات عدة ، « نظاف كهن » تم يتسود بنساء المساجد عموما . ويرى بذلك على ما يظهر حسن العمارة الظاهرة بها ، ويورد ياقوت والاضطخري ذكر قسبة يقولون عنها ، انها تتحل بقصور ومساجد ومجال وبساتين فعد منها . ثم يوردان الى مدينة زخطة بها سور حصين (وكل ذلك فيما يبدو يشكل المدينة الرئيسية المدمرة شهرستان) ويقيم الترشيحي ان اجم ما كان من بخارى عند الفتح هو شهرستان ولم يكن هناك سواها الا ابنية متبثة خارج المدينة ، لم ياتي بعد ذلك ، ذكر القهنتن او القاعة : الموجود خارج المدينة ، الا انه متصل بها . ويورد البيهقي الجامع ، وفي داخل القينان كانت توجد قلعة اتخذها آل سامان مستقرا لهم ، والمطلون ان بداينة القلعة ترجع الى ما قبل الفتح الاسلامي .

وإذا سلمنا ما نقله الاضطخري من انه كان يوجد على التهر نحو القى يستان وقصر (4) ، نستطيع ان تصور ضخامة طاقة السقى التي توفر للبخاريين آنذ ، والتي ادت بفعل ازدهار الزراعة في المنطقة الى انتشار القصور فيها على هذا المدى الواسع ، وما يرجح في الفن ، ان ذلك كان خاصة قس الرضى ، ولعله هو الذي عتاة المقدسي بالقول ان (به حيايات طيبة ، وما خفيها) (5) اما بعض القطاعات الاخرى في بخارى ، فيقول عنها الاضطخري : يمكن هذا ، انه ليس بها ماء جار ، مثلا الامور ، بارتفاع الموقع هناك 16 روبا لوجوده على رايه سمور من مسرى السهل المقابل

وبمثل السور في مشهد بخارى التي تجددت عليها هؤلاء ، مغلقة بارزة ، ووفقا لما اتى به ياقوت .

فان ذلك السور كان يمتد على بعد 12 فرسخا في ماله ، وهو تقديرا مساحة المدينة في عامتها ، كما يدرك من سياق الكلام في الموضوع عند الاضطخري . ويتشعب القول بحسب المصادر ، في الصورة التي كانت عليها احاطة السور بالمدينة ، وعلى ما نقله صاحب المعجم فان السور بامتداد على الاثنى عشر فرسخا ، كان يحيط بكل بنايات المدينة من قصور وبساتين ومجال وسكك وفري ، فيحيط لك ، ان كل ما كانت تشتمله بخارى . كان يقع داخل هذا السور بكيفية مشتركة ، حيث لا ترى - كما ذكر - مقبرة ولا خرابا ، الا ان ياقوت . ومثله الاضطخري يشير ان الى سور آخر دون السور الأول ، فقلده فرسخ واحد ، ولم يذكر المصدران ماذا كان يحتويه نطاق هذا السور الصغير - وعن الجائر انه كان يوارى السور الأول في بعض قطاعات امتداده . تعريزا لمناحة المدينة في تلك القطاعات .

وعلى الصعيد السكاني ، تظهر بخارى في خلال الحقبة التي نتطرق اليها . مدينة ضخمة كالبا ، يقدر ضخامتها من ناحية عمرانية ، ويورد الاضطخري - بعبارة جدا : ان انتاج السكان لم يكن يفي بحاجياتهم لكثرتهم . وكانت الطرق رغم سعتها تضيق بالسكان ، على ما نقله الموسوعة الإسلامية .

وتداول على السنة هؤلاء السكان ، لغة السخنة ، مع تحريف قليل ، وزيهم الأقبية والقلانس ، على ما يرى حيثل في مفهوم آسيا الوسطى ، وهم على درجة من الادب يفضلون بهما وراء النهر (7)

وفيما يدرك ايضا من المصادر الموعودة . فقد كانت تقوم في بخارى صناعة محلية تتركز خاصة في انتاج بيط ومصليات واصناف من الاقمشة القطنية والصوفية ، التي يظهر انها كانت جيدة القيمة حسبما يقيم من القول الوارد في حقها انها كانت

(4) الاضطخري : ممالك الممالك ص 308 طبعة لندن 1871

(5) المقدسي : احسن التقاسيم ص 281 طبعة لندن 1877

(6) الاضطخري : الممالك ص 307 نفس الطبعة

(7) الاضطخري : الممالك ص 314

(8) نفس المصدر

وقد امتدت، صادرات البخاريين تلك السى المناطق المجاورة على هذه المنتجات بالذات .

هذه نظرية مختزلة عن بخاري على عهديهما بالسامانيين وفق تلامه الى حين ظهور التتار ، وكما هو باد من هذه المعات ، فإن الصورة المعروضة ليست فى مستوى ، يدرك منه دقائق بنية المدينة من الناحية الهندسية . ومسرفة اوسعها الاجتماعية بالتفصيل اللازم ، ومرد ذلك ، محدودية النطاق لنفسه الذى رسمناه لهذه المعالة .

على اننا نستبين من غموم عاربانة فى هذه اللحظة ان بخارى التى انجبت عددا من الشخصيات الاسلامية ، كانت لها ، فى خدائهما شخصيتها المتميزة بين خواضر العالم الاسلامي فى العصر الوسيط . وكنت ألوح عليها من خلال شخصيتها تلك ، سيماء التفاعل العميق الذى حصل بين عدة شعوب وحضارات بآسيا الوسطى . فى بوتقة التفكير والثقافة الاسلامية .

وهو تفاعل اضاف شيئا غير يسير الى تاريخ الحضارة الاسلامية ، وكان له فى مجرى التاريخ الاسلامي القام ، مؤثرات لها شأنها .

بملا : المهدي البرجالي

وام تكن التجارة الداخلية عند هؤلاء باقل نشاطا ، وكانت تستقطبها فى الغالب جملة من الاسواق الدورية ، تعقد بالتوالي على مدار الشهر وتروج فيها الثياب والمواشى وخلاف ذلك ، امنا العملة المتداولة . فكانت الدرهم البخاري ، المربك اساسا من جديده وضفر وآلك ، ويطلق عليه ، او على بعض اقسامه ، اسم الفطريقى ، كما تدعى قطع اخرى من العملة يد « النسيية » و « المنخدبة » (9)

وفى الغموم يروج ان المنوارد الطبيعية لبخارى ، كانت تملك قدرا كبيرا من متطلباتها للاستهلاك ، ويذكر الاصطخرى فى هذا ، أنهم كانوا يستعملون حجارة البناء وطين الاوانى من جبال مجاور ، وأن محتطبهم من باتينهم ، ولهم ملاحات خارج الحائط ، وفواكههم اصنع فواكه ماوراء النهر واللهما طعاما ، الا انه ذكر فى غير ذلك ، ان البخاريين كانوا يستوردون كميات من الطعام من بلاد ما وراء النهر ، لمواجهة حاجاتهم ، وهذا له صلة ولاشك بما اشير اليه آنفا . من ضخامة الحجم السكانى

(9) نفس المصدر

البحاري

كتابات على قبة

للاستاذ محمد المنتصر الريسوني

تلسق القمر إذا علمته الصواتر
راحت تميمي نداوة فضله
ولساعة وروعت بأفياء التقى
وبراعة خيلك لجنس راوية
ومهارة في الحفظ عز نظيرها
علق اللذي سحرا بطيب الزاهر
وعذالة رقت كحللم زاهر
صارت خيلة معب بحرائر
شرقت بها شرقا دنائس داعر
هي منحة أدبت بيمين عاطل
م . . .

ألمى معنى بالحديث دولها
وكردة وأبت بيمين فواشلة
وكنحلة كلفت بشمو بلاسل
وكجدول شالته أخضرة عشبة
بشمو صباينة كواله (غامر)
فتشوقت ليشيع وعمل زاهر
فجكت لها منيات قلب غامر
ففضى يغاوله يشوق غامر
م . . .

قند جاب آفاقا وعلم فؤاده
ومضى يمشى فجاج ليلك بقا
لم يشك من نصب قعره قوة
كتم بك يرقب حمله مطلقا
أضحى بناجي ربه متفاليا
يروى الجوارح في ابتهاج مورق
فيش من الأهل الرضي الباق
وع نائبات في شمامة صابر
تحنوه حمة بامل ومناجر
مترقدا كرم التربة القادر
متضرعا بخشوع عبد ذاكر
فتميش تشوي في وصي بشائر
م . . .

يرقى الى الافق الخضير بالقية ذرايت يباه يهذي الكتاب الطاهر
ووعسى الاله جهاده بجلاله فصبا الخوض مضاعف ومخاطر

• • •

هذا (الصحيح) جوي رقيق تصور متكامل لنباه صرح مفاخر
ضمير العلاء له امن زواة براعنا حلمت بركة عن اقتتالنا شتافور
فتمسرت عنهم الرجال قيته همسات اجلال وحب طاهر
عزفت بانه فيجر خيرات يرقه يسيلاه انسا ناعيا ليصائر
غدا مناهل يرتوي عن دفعها من ايام حكما واعدا بفتحائز
سقم الضلال حباته بجواره فنادى كئيبا في وضاعة خاسر
اعظم به عملا الجاظ (بشرطه) أمل الوضيع الخافي المتأخر
تضييق اليه جوانح تشكو له نرفات الشيطان اتيم مناكر
تلقى الشفاء من الضنى المعاني فتد هل عذب فعلمه وعيشه طاهر
وتمايق الحق الوريق وتهندي لرؤي مجلعة يهدي شعائر

• • •

فلوبت قرون والبخاري العليل سم منارة تجلو وجنة مائل
ما زال حيره ناعيا مدققا يتوى عدى يقرار كين عشائر
عادات عن شغف الغلود يذكره ويجهده الزاوي بكل حائل
غنى الزمان خضير غرضه ففجبا اعجاب برعمة بسجدة طائر
وترفت غير العصور محافل يعطائه المتبرع المتكامل

تطوان : محمد المنتصر الرسولي

معاني التحقير وفكرية العبارة

لأستاذ محمد حمزة

وكما اختلف اليهود حول اعجاز كتابهم وأستنباه فان علماء المسلمين اختلفوا كذلك في اعجاز القرآن . واتخذ البحث عندهم بالتفكير في ماهية الكلام وفي اصل اللغة ، وفي الصلة بين اللفاظ ومدلولاتها ، ووقفوا من اعجاز القرآن مواقف متباينة وسقارب وتناقض وتختلف ، وتوافق وتتباين ، وتقابل وتتناوب :

فأبو اسحاق النظام كان يرى ان « الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الاخبار عن الغيوب ، وأما التأليف والتنظيم فله كان يجوز ان يقبل عليه العباد لولا ان الله منعهم بمنع وعجز احدهما فيهم » (1) وان اعجاز القرآن « من حيث الاخبار عن الأمور الباطنية والآتية ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب عن الاعتماد به جيوا وتعجزوا حتى لو خلاصم لكانوا قادرين على ان يأتوا بسموعة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماء (2) . فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإني العباد قادرين على مثله وعلى ما هو احسن منه من النظم والتأليف .

فالنظام أنكر اعجاز القرآن واعتبر بباطه بياضا عربيا عاديا في استطاعة العرب ان يأتوا بمثله لولا ان الله منعه عنده (3) .

اللغة اقدر الوسائل التي عرفتها الانسانية في تاريخها الطويل . لتعميق عيني الافكار والعواطف والانفعالات وهي على قدرتها تتنازل باليسر والسهولة . وان كانت في بعض الاحيان تثقنها بالذقة ، ذلك لان الطاقة اللغوية عند المستعملين لها تختلف من شخص الى آخر . يقول POTTER : ان المعرفة بقدرة ، ولكن القدرة على اختيار الكلمات التي تؤدي بها هذه المعرفة أقوى وأعظم ، سواء أكانت هذه الكلمات اريد بها الامتياز ام الاخبار ام الاتاحة . كما ان اللغة أمتيق في بجائها اللفظي من حقل الافكار التي ترد على ذهن المستعملين بها ومن الصور والظلال التي ترد على خيالتهم .

واليهود استبق الدارسين الى الكلام عن بناء الاسلوب وعلمية العبارة ، لاوتباط ذلك عندهم بكتابتهم الدينية « التوراة » الذي اختلفوا حول اعجازه . بما يمكن ان يحدد تصوره لهذا الاعجاز وانفساء الكبرى ، وقد دعس العلماء الذين كانوا مع الاسكتندر عند فتحه للهند . لما رأوا ان تقديم اليهود في اللغات التي تسمى بالنظم وأصوله ، واللغة ودلالاتها ثم تطور هذه الدلالة ، وحياة اللفاظ وقا تعرضت له من احياء لبعضها او إفاقة له (4) .

(1) انتمخل الى دراسة البلاغة العربية للدكتور السيد احمد خليل .

(2) مقالات الاسلاميين لابي الحسن الأشعري تالاف في القرآن في تطور الفكر العربي الى عصر النور الرابع الهجري . للدكتور محمد زغلول سلام .

(3) النيل والنحل لاحمد الشهورستاني . المسألة النابعة من كلامه على النظامية اصحاب ابراهيم بن سبار .

(4) اثر القرآن في تطور الفكر العربي الدكتور محمد زغلول سلام .

ويرى عمرو بن يحيى بن يحيى بن يحيى بن يحيى بن يحيى ان حجة القرآن في روعة نظمه ، واعترف به بأنه في الذروة العليا من البلاغة . ولهذا يصلح ان يقاس على منجيحه نسي البيان والاسلوب الادبي العربي ، وان تتوازن قوته في التعبير بثبوته . ولهذا يقدم الجاحظ الشاهد القرآني في حذر كلامه . ثم يأتي بأشكال من الشعر والشعر ، ويقنع هذا المنهج إمام الباحثين فيقول : « ومن خرج عن آي القرآن صار الى الأثر وحتى خرج من أثر صار الى خبر ، ويخرج عن الخبر الى الشعر الى توازن ومن اتواذ الى حكمة عقلية ومقاييس سداده . وقد عني التزويل بالنظم غاية فائقة فاختاره بدقة ليدل على المعاني بدقة ، وقد يشترك لفظان في المعنى لكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة عليه . ولتظم القرآن براعته في تنزيل النظم منزلة في الموضوع الذي أريد له . ويمتاز بروعة نظمه أيضا في الاختيار وعراعاة الفروق بين الالفاظ ، فلا يأتي بالالفاظ المترادفة دالة على معنى واحد ، وإنما للدلالة على معان مختلفة . ويقدّر بدقة في احصاء المعنى يكون الفرق بين الفاظ الناس في كلامهم والفاظ القرآن . »

ويصف أبو الحسن علي بن عيسى الرماني بلاغة القرآن بأنها بلاغة مصحرة لأنها بلغت أقصى ما يمكن ان يصله التعبير باللسان العربي . فبلاغة البلاغة هي بلغت ممكنة ، لكن بلاغة القرآن معجزة ، وليست في مقدور احد . وتظهر وجوه اعجاز القرآن من سبع جهات : « ترك المعارضة مع توفر الدواعي ، وشدة الحاجة ، والتجدي للكفاية ، والصرفة ، والبلاغة ، والاختيار الصادقة عن الأمور المستقبلية ، وتفنن البداة فاما البلاغة فهي على ثلاث طبقات منها ما هو في أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فما كان في أعلى طبقة معجزة ، وهو بلاغة القرآن ، وما كان فيما دون ذلك ممكن كبلاغة الناس . »

ويرى الرماني ان سر الجمال هو الغموض الذي يطلق للنفس العنان فتذهب في الحس كل مذهب ، وتولد آفاق التماس التي يجعلها التعبير . ولو قيد المعنى لفظا لفقد عن وجهه ولم يزد الغرض تمام الاداء . ويعتمد جمال الاسلوب على اشياء يضم بعضها الى بعض فتكسبه جمالا وروفا فتسريح اليها النفس وتظهر الاعجاز يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس ان الكلام من البلاغة في أعلى طبقة . وان كان قبيح

يلتبس فيما قل بما حسن جدا لا يجاده وحسن روافقه وعذوبة لفظه وضحة معناه (5) .

وقد رفض محمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي القول بالصرفة واستبعد الاخبار بالمستقبل ، وراى ان سر الاعجاز هو البلاغة المحققة في ان القرآن جاء بأفصح الالفاظ وأحسن نظام من التأليف للتعبير عن أصح المعاني . ولهذا كان اعظم الكلام تأثيرا في القوم . والكلام ثلاثة اقسام : فتنها البديع الرصين . ومنها التصحيح القريب السهل . ومنها الجازر المطلق المرسى . فالقسم الأول اعنى طبعات الكلام وأرفعها . والتقسيم الثاني أوسطه وأقصاه ، والتقسيم الثالث أدناه وأقربه . فعازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الاقسام حصه ، وأخذت من كل نوع منها شعبة فانظم لها بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة . وعما على الأفراد في نوعيتها كالتضاديين ، لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمناقة في الكلام تعالجان نوعا من العذوبة ، فيكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فسيئة خسي بها القرآن . والكلام ثلاثة اقسام أيضا : لفظ جاهل ومعنى به قائم ورباط لنا ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الالفاظ الفصح ولا اجزل ولا أعذب من الفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتساكلا من نظمه . وإنما صار القرآن معجزا لأنه جاء بأفصح الالفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني . وسر اسرار الاعجاز هو الجمع بين المعاني الرائعة والموضوعات المختلفة الى النظم البديع والتأليف الملائم . ثم اعلم ان عيود هذه البلاغة التي تجتمع أيا هذه الصفات هو وضع كنوع من الالفاظ التي تشمل عليها فصول الكلام موضعها الآخر الا تتركب به الذي اذا بدل مكانه غيره جاء منه اما تبدل المعنى الذي يكون منه قساد الكلام ، واما ذهب الرنونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، وذلك ان في الكلام الفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس انها متساوية في افادة مراد الخطاب ، كالعلم والمعرفة والحمد والشكر .

وينجم الخلاف الدقيق بين بدلولات الالفاظ التي تبدو مشتركة المدلول او متشابهة المعاني اما من فروق في المعاني او فروق في الاستعمال او

التركيبية ، أو مما يدخل في علم النحو ومعانيه ، كان تكون الكلمة متعددة لمفعول واحد أو مفعولين أو لازمة وليس غريب القرآن وحده ، ولغظه هو سر إعجازه . لأن لفظه مما يتكلمه العرب وتلكه الاسئلة . لفظه مبذول للناس ، لكنه مع ذلك معجز في نظمه . وإنما ذلك راجع الى حسن التاليف . «ولم تقتصر على مفرد الالفاظ التي منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه وملايسه التي هي نظوم تاليفه» .

فمناصير الاسلوب هي اللفظ والمعنى والنظم الذي يجمع بين الاثنين . «واما رسوم النظم فالخاصة الى الثقافة والخدمة فيها أكثر لأنها لحام الالفاظ وتعام المعاني ، وبه ينظم أحد الكلام . ويلتزم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان» . وليس العبارة بذوب اللسان وطلاقته كافيًا لهذا الشأن ، ولا كل من اوتي حظًا من بديهة (6) .

ويبقى ابو بكر محمد بن الطيب الباقلائي القول بالضرورة ، ويذكر ان جملة وجوه اعجاز القرآن ترجع الى ثلاثة : احدها يتضمن الأخبار عن الغيوب وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سهيل لهم اليه . الوجه الثاني : انه كان معلوما من حال النبي صلى الله عليه وسلم انه كان احيا لا يكتسب ولا يخسب ان يقرأ . وكذلك كان معروفا من حاله انه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين واقاصيصهم وانبياهم وسيرهم ، ثم اتي بحمل ما وقع وحده عن عظيمات الامور ومهمات السير ، والوجه الثالث : انه بديع النظم عجيب التاليف ممتاز في البلاغة الى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه . وفي بديع نظمه ما يرجع الى الجيلة وذلك ان نظم القرآن علمي يتصرف وجوهه وتبليغ مزاياه خارج عن اليهود من نظام جميع كلام العرب ومباين للمألوف عن ترتيب خطايهم . وله اسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن اساليب الكلام المعتاد ، وفيه ما يرجع الى انه ليس لغريب كلام يشتمل على هذه الفصاحة والقرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة ، والقوائد العزيزة ، والحكم المثيرة ، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا القول وعلى هذا القدر ، ولا تفاوت ولا تباين في عجيب

نظمه وبديع تاليفه على ما يتصرف اليه من الوجوه التي تصرف فيها ، من ذكر قصص وعواظ واحتجاج وسير ماثورة ، وجميع ما يتصرف فيه نظم القرآن على حد واحد في حسن النظم ، وبديع التاليف والبرص ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا اسفاف فيه الى الرتبة الدنيا (7) .

ويقول القاضي ابو الحسن عيد الجبار بن عيد الجبار بان الفصاحة لا تظهر في افراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة . ولا يد مع الضم من ان يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في هذه الصفة ان تكون بالمواضع التي تتناول الضم ، وقد تكون بالأعراب التي له مدخل فيه . وقد تكون بالموقع وليس لهذه الاقسام الثلاثة رابع ، لأنه اما ان تعتبر فيه الكلمة او حركاتها او موقعها . ولا يد عن هذا الاعتبار في كل كلمة ثم لا يد عن اعتبار مثله فسي الكلمات اذا انضم بعضها الى بعض لانه قد يكون لها عنه الانضمام صفة . وكذلك لكيفية اعرابها وحركاتها وموقعها . فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه انما تظهر الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها فان قال قائل : فقد قلتم ان في جملة ما يدخل في الفصاحة حسن المعنى فيلما اعتبرتموه ؟ قيل له : ان المعاني وان كان لا يد منها فلا تظهر فيها المزية ، ولذلك تجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون احدهما اوضح من الآخر والمعنى متفق ، على انما تعلم ان المعاني لا يقع فيها تزايد ، فاذا يجب ان يكون الذي يعتبر التزايد عنده الالفاظ التي يعبر بها عنده ، فاذا صحت هذه الجيلة فالذي تظهر به المزية الابدال «الاختيار» الذي به تختص الكلمات او التقدم والتأخر الذي يختص بالموقع او الحركات التي تختص بالأعراب فلهذا تقع «المباينة بين الكلام» (8) .

فالفصاحة عند القاضي عيد الجبار لا تظهر في افراد الكلام من حيث هي ، والكلمة لا تعد فصحة في ذاتها ، اذ لا بد من ملاحظة صفات مختلفة لها . لا بد من ملاحظة ابدالها ونظامها . ولا بد من ملاحظة حركاتها في الاعراب ، ولا بد من ملاحظتها في التقديم والتأخير .

(6) المرجع نفسه .

(7) اعجاز القرآن لابن بكر الباقلائي بتحقيق السيد احمد صقر .

(8) المعنى للقاضي عيد الجبار فحلا عن «البلاغة تطور وتاريخ» للدكتور شوقي صيف . والنظم القرآني في اكتشاف الزمخشري للدكتور درويش الجندی .

هذه هي بعض مواقف علماء المسلمين من اعجاز القرآن من حيث اخباره بالغيب ، ومن حيث تاليقه ونظمية . يقول الامام الجاظم جلال الدين السيوطي في «معترك الاقران في اعجاز القرآن» :

والضواب انه لا نهاية لوجوه اعجازه كما قال البيهقي في المتفج : اعلم ان اعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفه ، والملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا يدرك تحصيله غير ذوق الفطر السليمة الا باتقان علمي المعاني والبيان والتميز فيهما .

وقال الاصبهاني في تفسيره : اعلم ان اعجاز القرآن ذكر عن وجهين احدهما اعجاز يتعلق بنفسه ، والثاني بصرف الناس عن معارضة ، فالاول اما ان يتعلق بقصاحته وبلاغته او بفعاله ، ان الاعجاز المطلق بقصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى ، فان الفاظه الفاظهم ، قال تعالى : «قرآنا عربيا» «لسان عربي» ولا بمعانيه فان كثيرا منها موجود في الكتب المتقدمة ، قال تعالى : «وانه لفي ذبر الاولين» . وما هو في القرآن عن المعارف الالهية وبيان المبدأ والبعاد والاخبار بالغيب ، فاعجازه ليس يرجع الى القرآن من حيث هو قرآن ، بل لكونها جسيمة عن غير سبق تعليم وتعلم . ولكنسون الاخبار بالغيب اخبارا بالغيب سواء كان بهذا النظم او بغيره موردا بالتعريف او بلغة اخرى ، بعبارة او اشعار . فاذا فانظم الموضوع حيرة القرآن ، واللفظ والمعنى عنصره ، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه بلا عنصره ، كالقرط والخاتم والسوار . فانه باختلاف صورها اختلفت اسمائها ، لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة والحديد . فان الخاتم المتخذ من الذهب ومن الفضة ومن الحديد يسمى خاتما ، وان كان العنصر مختلفا . وان اتخذ الخاتم قرط وسوار من ذهب اختلفت اسمائها باختلاف صورها . وان كان العنصر واحدا . قال : فظهر من هذا ان الاعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص . وكون النظم منعزا يتوقف على بيان نظم الكلام .

ومراتب تاليق الكلام خمس :

الاولى : قسم الحروف المستوطنة بعضها الي بعض لتجصيل الكلمات الثلاث : الاسم والفعل والحرف

والثانية : تاليق هذه الكلمات بعضها الى بعض لتجصيل الجمل المعقدة ، وهو النوع الذي ابتدأته الناس جميعا في مخاطبتهم وقضاء حوائجهم . ويقال له المنشور من الكلام .

والثالثة : قسم بعض ذلك الى بعض خصما له مباد ومقاطع ومداخل ومخارج ، ويقال له المنظوم .

والرابعة : ان يعتبر في اواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقال له السجع .

والخامسة : ان يجعل له مع ذلك وزن ويقال له الشعر .

والمنظوم اما محاورية ، ويقال الخطابة ، واما مكاتبة ويقال له الرسالة . قانون الكلام لا تخرج عن هذه الاقسام ، واكمل من ذلك نظم مخصوص . والقرآن جامع لمحاسن الجميع على غير نظم شيء منها ، بل على ذلك انه لا يصح ان يقال له رسالة او خطابة او شعر او سجع ، كما يصح ان يقال هو كلام . والبيان اذا قرح شفعه فصل بينه وبين ما عداه من النظم (9)

ويذهب الامام عبد القاهر الجرجاني السني ان الاخبار بالغيب لا يفصح ان يكون نسب الاعجاز لان هذا الاخبار ورد في بعض السور دون بعضها الآخر ، كما ان الاخبار بالماضي لا ينهض سببا لانه في بعض السور لا في كلها .

وامتنع ان يكون السور في الاعجاز التمييز عن المعاني الجديدة فسمى التبريع . لان التبريع يعم جميع السور . ورفض ان يكون التشبيه والاستعارة والكناية هو السبب ، لانها اذن بلاغية في آيات معينة ، ولا يمكن ان تجعل الاستعارة الاصل في الاعجاز وأن يقصد اليها ، لان ذلك يؤدي الى ان يكون الاعجاز في آي معينة ، في مواضع من السور الطوال مخصوصة ، واذا امتنع ذلك فبينما لم يبق الا ان يكون في النظم والتاليق (10) . فهو بين رأيه في الاعجاز على النظم لانه محقق في كل آية من كل سورة . ووافي بذلك الخطابي الذي قال بان سر الاعجاز هو البلاغة المحققة في ان القرآن جاء بالفصح الالفاظ في احسن نظام من التاليف للتمييز عن اصح المعاني . وهو بعض رأي الباقلاي . وقرب هذا قاله القاضي عند الجبار

(9) معترك الاقران في اعجاز القرآن للجاظم جلال الدين السيوطي بتحقيق علي محمد الجاوي .
(10) لا تل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني

والواو الكائنة بمعنى منح في التوسط ، وعمل الضرب المستثنى للفعل ولكن يوساطها وعون منها .

والضرب الثاني من تعلق الحرف بها لا يتعلق به العطف ، وهو ان يدخل الثاني في عمل العامل الاول كقولنا : جاءني زيد وعمرو .

والضرب الثالث : تعلق بمجوز الجملة : تعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بها يدخل عليه ، وذلك ان من شأن النعاني ان تتناول ما تتناولها بالتقليد ، وبعد ان يستند الى شيء . معنى ذلك اذا قلت : ما خرج زيد وما زينة خارج لم يكن النفي الواقع بها متناولاً للخروج على الإطلاق ، بل الخروج واعتصام من زيد ومستند اليه . . . واذا قلت : هل خرج زيد ؟ لم تكن قد استغفرت عن الخروج مطلقاً ، ولكن عنه واقعاً من زيد . انه لا يكون كلام من جزء واحد ، وانما لابد من مستند ومستند اليه . وكذلك المسيل في حرف رائيه يدخل على جملة كان واخواتها ، الا ترى أنك اذا قلت : «كان» يقتضى مشيها ومشيتها به . . وكذلك اذا قلت : «لو» و «لولا» وجدتهما يقتضيان جملتين تكون الثانية جواباً للاولى ولا يكون كلام من حرف وقيل فضلاً ، ولا من حرف واسم الا في النداء نحو «يا عبد الله» بتقدير الفعل المضمر الذي هو الخى واريد وادخو «يا» دليل عليه وعلى قيام فعلاه في النفس (II) .

وكل شيء له يدخل في صفة تعلق الكلم بعضها ببعض ، لا يعدو ان يكون حكماً من احكام النحو ومعنى من معانيه ، والادوات من اهم العناصر في اللغة ، ومن انشطها في الربط بين المقدرات والجدول : والاداة مبني تقسيمى خاص باقسام الكلم ، يؤدي معنى التعلق او الكشف عن العلاقات السياقية . والعلاقة التي تعبر عنها الاداة انما تكون بالضرورة بين الاجزاء المختلفة عن الجملة والتعليق بالاداة اشهر انواع التعليق في اللغة العربية الفصحى ، فاذا استثنينا جملة الاثبات والامر بالصيغة (قام زيد ، وزيد قائم) وقم) وكذلك بعض جمل الافصاح فاننا نجد ان كل جملة في اللغة العربية الفصحى على الاطلاق ، تشكل في تلخيص العلاقة بين اجزائها على الاداة ، زيادة على الاداة من وظيفة الربط بين الاواب المقردة في داخل الجملة ، وهو الذي عناء عبد القاهر «بتعلق الحرف» مثل حروف الجر والعطف والاستثناء والمعية

والنظم عند غيد القاهر هو توخى معاني النحو توخياً يجعل التعبير عن المعنى تعبيراً يقتضيه المعنى وتقتضيه قواعد اللغة : ولا يكون النظم شيئاً غير توخى معاني النحو واحكامها فيما بين الكلم . وليس النظم سوى تطبيق النظم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بتسليم من بعض . والكلم ثلاث : اسم وفعل وحرف . ولتعلق فيما بينها طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة اقسام : تعلق اسم باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرفاً بحرف . فالاسم يتصل بالاسم بان يكون خبراً عنه او حالاً منه ، او تابعاً له صفة وتاكيداً ، او عطفاً بيان او بدلاً . او عطفاً بحرف . او بان يكون الاول متصلاً الى الثاني . او بان يكون الاول يعمل في الثاني عمل الفعل . ويكون الثاني في حكم الفاعل له او المفعول ، وذلك في اسم الفاعل كقوله تعالى : « اخرج من هذه القرية الظالم أهلها » وقوله تعالى : « وهم يلعبون لاصية قلوبهم » واسم المفعول كقوله تعالى : « ذلك يوم مجروح له الناس » والصفة التسمية : « يا عبد الله » او « اطلعوا في يوم ذي بسطة » . او بان يكون تمييزاً قد جلاده مختصاً عن تمام الاسم .

وايضا تعلق الاسم بالفعل فيان يكون فاعلاً له او مفعولاً فيكون مصدرًا قد انتصب به ، كقولك ضربت ضرباً ، ويقال له المفعول المطلق ، او مفعولاً به . او ظرفاً مفعولاً فيه زماناً او مكاناً . او مفعولاً معه كقولنا : جاء البرد والظلمة . او مفعولاً له كقولنا : جئتكم اكراماً لك ، وفعلت ذلك ابتغاء عزة الله . او بان يكون منزلاً من الفعل منزلة المفعول وذلك في خبر كان واخواتها والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام مثل طاب زيد نقماً . . ومثله الاسم المنتصب على الاستثناء كقولك : جاء القوم الا زيداً لانه من قبيل ما ينتصب عن تمام الكلام .

واما تعلق الحرف بها فعلى ثلاثة اضرب احتجنا ان يتوسط بين الفعل والاسم ، فيكون ذلك في حروف الجر التي من شأنها ان تعدى الافعال الى ما لا تتعلق اليه بانفسها من الاسماء ، وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى «عج» في قولنا : لو تركت الناقة وقصيلها لوضعها ، بمنزلة حرف الجر في التوسط بين الفعل والاسم واتصاله اليه ، الا ان الفرق انما لا تفصل بنفسها شيئاً ، لكنها تعين الفعل على عملة النصب وكذلك حكم «الا» في الاستثناء ، فانها بمنزلة هذه

وقد تراكمت الاداة معني صيرفيا كالذي نراه في اداة التعريف «ال» (12).

ولا تقتصر مهمة النحو على صحة التركيب من الناحية الاعرابية وحسب ، بل ان من شأنه مراعاة المعاني قبل مراعاة الالفاظ ، وهذا ابن جني يشرح النحاة الى مراعاة الاولوية للمعنى على الاعراب فيقول : «ان امكنك تقدير الاعراب على سميت تفسير المعنى فهو ما لا غاية وراءه ، وان كان تقدير الاعراب مخالفا لتفسير المعنى تركت تفسير المعنى على ما هو عليه وصححت طريق الاعراب» والنحو كما يقول ابو سعيد الخسري - غلط ولكنه مسلول من العربية ، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة ، ولكن لغة حذوها الخاصة ورسومها المعينة ، والنحو تحقيق المعنى واللفظ ، والمنطق تحقيق المعنى بالعقل ، والاغراض المعقولة والمعاني المنذوقة لا يتوصل اليها الا باللغة الجارية للاسماء والافعال والحروف ، واللفظ طبيعي والمعنى عقلي ، واللفظ ياند على الزمان فيقول اثر الفسحة دار آخر من الفسحة ، والمعنى ثابت على الزمان لان فستمل المعنى عقل واللفظ على - ومادة اللفظ طبيعية وكل طين متماثل (13).

فالاستدراك الرفيع يقوم على انظم ، والنظم يقوم على معرفة النحو وما يتضمنه من الكلمات ، حين تغير مواضعها او تبديل ترتيبها ، من المعاني المتجددة المستفادة ، فالاعطاء مقلدة على معانيها حتى تكون الادراك هو الذي يقتضيها ، والاغراض كالسنة فيها حتى يكون عز المستخرج لها ، وهو المعيار الذي لا يتبين بقبضات كلام ووجاهة حتى يعرض عليه ، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسبه ، والا من غلط قس الحقائق نقيضه» (14).

وقد ظل دور اللغويين مستمورا منذ عهد التدوين واستطاعوا ان يسيطروا على مساح الدرس ، ويرفعوا لواء المحافظة على اللغة ، ويردوا المحدثين رمة ذموا اليه . بل ربما كانت آرائهم عن البلاغ الاول في نشوء البلاغة وخروجها الى الوجود ، وفي وقوفها على سابقها علما وقفا . وهذا كتاب «سجارت القرآن» لاسي

عميدة تختلط فيه البلاغة بالنحو ، وان لم يعرف علم البيان بحدوده واضوله . يقول المرحوم ابراهيم مصطفى : ان كلمة والمجاز عند ابن عميدة متناظرة لكلمة «النحو» في عبارة غيره من علماء العربية ، فانهم سموا بحتهم النحو ، اي سبيل العرب في القول ، واقتصروا على ما يحس آخر الكلمة ، وسموا بحتهم المجاز اي طريق التعبير ، وتناولوا غير الاعراب من قوانين العبارة العربية ، ولم يكن ما اكثر سميوية وجماعته ، ولم يتعمق غا تعمقوا ، ولا احاط احاطتهم ولكنه دل على سبيل تبصرة تعرف الناس منها غافلين» (15).

فنحو اللغة هو متحاضا واتجاهيا ورسوميا وادعاعيا في التعبير . يقول ابن منظور في نحو العربية : «ثبت عن اهل يونان ، قبيحا يذكر المتوجهمون المعروفون بلسانهم ولغتهم ، انهم يسمون علم الالفاظ والمعاني بالنحو عنه نحوا ، ويقولون كان فلان من النحويين ، ولذلك سمي يوحنا الاسكندراني يحيى النحوي ، الذي كان حصل اليه من المهرسة بلخسة اليونانيين ، والنحو اعراب الكلام العربي ، والنحو القصد والطريق . ونحو العربية منه ، انما هو التحاء سميت كلام العرب في تصرفه من اعراب وتغيير كالشبهة والجمع والتخفيف والتكبير والاقراف والنسب وغير ذلك ، فيلحق من ليس من اهل اللغة العربية باحليا في الفصاحة فينطق بها وان لم يكن منهم ، وان شد بعضهم عنها رد اليها» (16).

ولا حشاحة في ان ضاحك التقديم والتأخير والاستفهام بنواجه اما النطق في دروس البلاغة عن الدراسات اللغوية والنحوية . يقول ابو عميدة : «ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ، ومن المحتمل من مجاز ما اقتصر ومجاز ما حذفه ومجاز ما كان من خبره ، ومجاز ما جاء بلفظ الواحد ورفع على الجميع ، ومجاز ما جاء بلفظ لفظ الجميع ورفع معناه على الاثنين ، ومجاز ما جاء بلفظ خبر الجميع على لفظ خبر الواحد ، ومجاز ما جاء بالجميع في رفع الواحد اذا اشرك به وبين آخر فبرر . ومجاز ما خبر عن اثنين او عن اكثر من ذلك فجعل

(12) اللغة العربية معانها ومبانيها للدكتور تمام حسان .

(13) معجم الادباء لياقوت الحموي ، ترجمة الحسن بن عبد الله الجوزي (النحوي) .

(14) دلائل الاعجاز للافهام عبد القاهر الجرجاني .

(15) نقلا عن «مناهج بلاغية» للدكتور احمد عطلوب .

(16) لسان العرب مادة «نحو» .

الخبر الواحد أو المتخالف وكف عن خبر الآخر . ومجاز ما خبر عن اثنين أو أكثر من ذلك فجعل الخبر للاول منهما . ومجاز ما خبر عن اثنين أو عن أكثر من ذلك فجعل الخبر للآخر منهما . ومجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموت على لفظ خبر الناس ، والحيوان كل ما أكل من غير الناس . وهي الدواب كلها . ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة القاب ومعناه مخاطبته الشاهد . ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد . تركت وتحولت مخاطبته إلى مخاطبة القاب . ومجاز ما يزداد من حروف الزوائد ويقع مجاز الكلام على الفائتين . ومجاز المظهر استغناء عن اظهار . ومجاز المكور للتوكيد . ومجاز المجل استغناء عن كثرة التكرير . ومجاز المقدم والمؤخر . ومجاز ما يحول من خبره إلى خبر غيره بعد أن يكون من سببه فيجعل خبره للذي من سببه ويترك هو ، وكل هذا جائز قد تكلموا به (17) .

وذكر سببونه الإيجاز والاختصار والبدء في باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى . لا تسامح العرب في الكلام . وذلك نحو قوله تعالى : « واسأل القرية التي كنا فيها والغير التي قبلنا فيها » إنما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعل في القرية . كما كان عاملا في الأهل لو كان غنيا . ومثله « سئل مكر الليل والنهار » وإنما المعنى : سئل مكركم في الليل والنهار . وقال تعالى : « ولكن البر من آمن بالله » إنما هو ولكن البر من آمن بالله . ومثله في الاتساع قوله عز وجل : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي يبيع منا لا يسمع إلا دعاء ونداء » فلم يشبهوا بما يبيع . وإنما شبهوا بالمتعوق به . وإنما المعنى : مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل المتعوق والمتعوق به الذي لا يسمع . ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى . وقال الخطيب :

وشر المنايا ميت وسط أهله
كذلك الفتى قد أسلم الحى حاضره

يزيد منية ميت . وقال الخجدي :

وكيف تواصل من أصبحت
خلالته كإبسى مرحب

يزيد خلالة إبسى مرحب (18)

والجذخ جائز في العربية بعد عن جملة الفصاحة والبلاغة وهو في رأي عبد القاهر الجرجاني : « باب دقيق المسند ، لطيف المأخذ ، عجيب الافر ، شبيه بالسحر » . فإنك ترى به ترك الذكر افسح من الذكر والضم من الافادة الزيد للافادة وتجذخ انطق ماتكون اذا لم تنطق . وأتم ما تكون بيانا اذا لم تبين . ومن لطيف الجذخ قول بكر النطاش :

العين تبلى الخيب والبغضا
وتظهر الإبرام والنقضا

درة ما انقضت في الهوى
ولا رحمت الجسد البغضا

فغضبى ولا والله بنا اهلبا
لا اطعم البارد أو تروغى

يقوله في جارية كان يحبها وسعى به إلى اهلبا فمنعها عنه . والمقصود قوله « فغضبى » وذلك ان التقدير هي « غضبي » أو « فغضبى هي » لا محالة الا انك ترى النفس كيف تتغاضى من اظهار هذا المحذوف . وكف ناس إلى اضارده . وتروى الملاحه كيف تذهب ان أنت رمت التكلم به . وحذف المفعول به اجل فان الحاجة اليه أمس واللطائف كانها فيه أكثر . ومما يظهر بسببه من الحسن والرواق أعجب وأظهر . من ذلك قوله تعالى : « هل يستوفى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . المعنى : هل يستوفى من له علم ومن لا علم له . من غير أن يقتضيه النص على المعلوم . وكذلك قوله تعالى : « والله هو أفسح وأبكى والله هو أفاض » . والمعنى هو « وأجبا » . وقوله : « والله هو أغنى وأقنى » . المعنى هو الذي منه الأحياء والإماء والإغناء والإقناء . وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه فعلا للنسب وإن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه أو لا يكون إلا منه أو لا يكون منه . فإن الفعل يبدى هناك لأن عديته تنقض الغرض وتغير المعنى . وقد يجز استقاط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله . ولا يدخلها شوب . انظر إلى قوله تعالى : « ولنا وزد ما » . مبدون وجد عليه أمة من الناس يستقون ووجه من دونهم امرأتين تفرقان . قال ما خطبكما : قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى

(17) نقلا عن «مناهج بلاغية» للدكتور احمد مطلوب.

(18) كتاب سيبويه .

ومنه قوله تعالى : «اذعوب بكتابي هذا قاله اليهم
ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون» . اي اذعوب بكتابي
هذا قاله اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم (21) :
والتقديم والتأخير « باب كثير القوائد » جسم
المحاسن ، وامنح التصريف ، بعيد العاية . ولا تزال ترى
شعرا يروقك تنسسه ويلطف لديك موقعه ثم تنظر
فتجد سبب ان راقك ولطف عندك ان قدم فيه شيء
وحول اللفظ عن مكان الى مكان .

والحذف وصحة المعنى والاستفهام الذي يراد
به التوبيخ وتوقع اضرب الخبر مما يضرب بخبره
في اعماق المباحث النحوية «واعلم ان جهنا فروقا
خفية تجهلها العامة وكثير من الخاصة » ليس انهم
يجعلونها في موضع ويعرفونها في آخر : بل لا يدرون
انها هي ، ولا يعلمونها في جملة ولا تفصيلا . روى
ابن الاثير انه قال : رتب الكندي المتفلسف الى
ابن العباس وقال له : اي لاجد في كلام العرب حسوا
فقال له ابن العباس : في اي موضع وجدت ذلك ؟
فتناك احد العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون
ان عبد الله قائم ، ثم يقولون ان عبد الله
لقائم فالفاظ متكررة والمفهوم واحد .
فقال ابو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف
الالفاظ . فقولهم : عبد الله قائم : اخبار عن قيامه ،
وقولهم : ان عبد الله قائم : جواب عن سؤال . وقولهم
ان عبد الله لقائم : جواب عن انكار متكرر قيامه . فقد
تكررت الالفاظ لتكرر المعاني . قال فما اثار
الفيلسوف جوابا (22) .

وتفسير ابن العباس عما يؤيد البعد القائل :
ان الزيادة في المعنى زيادة في المعنى .
فعبد الله قائم : خبر ابتدائي ، وذلك ان المخاطب
بهذه العبارة خالي الذهن من الحكم فأتى اليه الخبر
خاليا من أدوات التوكيد . ومن ذلك قول المتنبي :

سبقنا الى الدنيا فلو عاش اعلمنا
بمنها بها من جملة وذهب
تملكها الآتي تملكك سائب
وفارقتها الماضي لراقي سائب

لهما ثم تولى الى الظل (19) فيها حذف مفعول قسى
اربعة مواضع . اذ المعنى : وجد عليه امة من الناس
يسقون اغنامهم او مواشيهم وامراتين تدودان عنهما
وقالتا لا تسقى غنمتنا فسقى لهما غنمتها . ثم لا يخفى
على ذي بصر انه ليس في ذلك كله الا ان يترك ذكره
ويؤتى بالفعل مطلقا . وما ذاك الا ان الغرض في ان
يعلم انه كان من الناس في تلك الحال سقى ومن
المرأتين دود . وانهما قالتا : لا يكون منا سقى حتى
يصدر الرعاء ، وانه كان من موسى عليه السلام من
بعد ذلك سقى : فاما السقى اغنما ام ابلا ام غنير
ذلك ؟ فخارج عن الغرض ومعرض خلافه . فذلك انه
لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تدودان غنمتها جاز
ان يكون لم ينكر الدود من حيث هو دود . بل من
حيث هو دود غنم حتى لو كان مكان الغنم ابل لسم
ينكر الدود . كما انك اذا قلت : مالك تمنع اهلك ؟
كنت منك المنع ، لا من حيث هو منع . بل من حيث هو
منع أخ . فاعرفه تعلم انك لم تجد لحذف المفعول
في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت الا ان
في حذفه وترك ذكره قائدة جميلة وان الغرض لا يصح
الا على تركه (20) .

ومما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع
قوله تعالى : «وانزل معهم الكتاب بالحق» يعني الكتاب
لانه لا يجوز ان يكون لجميع الانبياء كتاب واحد .
وقال : «ان ظن لكم من شيء منه نصا» اي
انفسا .

وقال : «وحسن اولئك رفيقا» اي رفقاء .

وقال : «وما لنا من شافعين ولا صديق» اي
اصدقاء .

ومن مجاز التقديم والتأخير : «فلا أقسم بمواقع
النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم» . التقدير : فلا
أقسم بمواقع النجوم ، انه لقرآن كريم ، في كتاب
نكتون لا يمس الا الميطرون . وانه لقسم لو تعلمون
عظيم ، وفصل بين الفسفة والموصوف بالجملة . وهو
ولو تعلمون وييسن القسم وجوابه بقوله : «وانه
لقسم» .

(19) الآيتان 23 - 24 من سورة القصص .

(20) دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني

(21) اعراب القرآن المنسوب الى الزجاج بتحقيق ودراسة ابراهيم الايباري

(22) دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني

وقوله :

ومن تأخير «ان» في الجملة انها تغني اذا كانت فيها
عن الخير في بعض الكلام كما في قول الاعشى :

ان محسلا وان موحلا

وان في السفر ما مضوا بهلا

انا الذي نظر الاعشى الى اعشى

واسمعت كلياتي من به صمم

انام مرة جملتي عن شواذها

ويسهر الحاف حراما ويختصم

اي ان لنا حلولا في الدنيا وان لنا ارتجالا عنها
الى الآخرة ، وان في الجماعة الذين ماتوا قبلنا امهلا
لنا لانهم مضوا قبلنا وبقينا بعدهم (23) يقول الامام
عبد القاهر الجرجاني : «التوكيد بان اقوى من
التوكيد باللام . واكثر موافقا بحسب الجواب لسؤال
ظاهر او مقدر اذا كان السائل فيه ظن » فالتوكيد
يحسن بنا اذا كان المتحدث ظن على خلاف حكمة ،
وله تشوف الى الوقوف على الحقيقة ، فيحسن تقوية
الحكم له بان ليتمكن المعنى المراد في نفسه وي طرح
الخلاف وراءه » . «ولذلك تراها تزداد حسنا اذا كان
الخبر بامر بعد مثله في الظن » وبشيء قد جرت عادة
الناس بخلافه كقول ابي نواس :

عليك باليأس من الناس

ان عني نكث في اليأس

انا الذي بفقال الزور يضجكنسى

مثل السدى ييقن الحق ينكئ

وقوله :

ان السدى الوحشة في داره

تؤسسه الرحمة في لحداه

فقد ترى حسن توقعها ، وكيف قبول التمس لها
وليس ذلك الا لان الغالب على الناس انهم لا يميلون
أنفسهم على اليأس ، ولا يدعون الرجاء والطبع ، ولا
يعترف كل احد فلا يشك ان الغنى في اليأس - قلما
كان كذلك كان الموضوع موضع فقر اليأس التأكيد ،
فلذلك كان من حسنها ما ترى ، ومثله سواء قول محمد
ابن وهيب :

أجارتنا ان التمسف اليأس

وصبر على استدرار دنيا بأشمان

حريان ان لا يقدنا بمسدة

كريا وان لا ينجوا الى الناس

أجارتنا ان القداح كنواذب

وأكثر أسباب النجاح مع اليأس

هو كما لا يخفى كلام مع من لا يرى ان الامر كما
قال ، بل يشكوه ويعتقد خلافه ، ومعلوم انه لم يقله الا

وان عبد الله قائم : خير ظني ، وذلك ان المخاطب
متردد في قيام عبد الله شك في حصوله ، فآراد
الوصول الى اليقين في معرفة الحديث ، فحسن توكيده
له ليتمكن من نفسه ، ويحل قنينا اليقين محل الشك ،
وجنه قول ابي العلاء المعري :

انا الذي بفقال الزور يضجكنسى

مثل السدى ييقن الحق ينكئ

وقوله :

ان السدى الوحشة في داره

تؤسسه الرحمة في لحداه

وان عبد الله قائم : خير انكاري لكون المخاطب
شكرا الحكمة معتقدا لما يخالف الخير ، فوجب توكيده
له بقدر انكاره قوة وضعفا ، فكذلك استند انكاره وزيد له
في التوكيد . ومن ذلك قوله تعالى : «واشرب لهم مثلا
اصحاب القرية اذ جاءهم المرسلون اذ ارسلنا اليهم
اثنتين فكذبوهما فعرزنا بباليت فقالوا انا اليكم مرسلون
قالوا ما اتم الا بشر قتلنا وما نقول الرجمن من شيء
ان اتم الا قتلهم » قالوا ربنا يعلم انا اليكم مرسلون
وما علينا الا البلاغ المبين (24) .

فقوله تعالى : «انا اليكم مرسلون» يؤكد ان
وحدنا ، وذلك لان كلام رسل المسيح الذي اصيل
انطاكية كان للنبوة الاولى . اما قوله : «ربنا يعلم انا
اليكم مرسلون» فالتوكيد مضاعف فيه بالقسم وان
واللام .

والكلام قد يؤكد بما الزائدة ويقوى بها كقوله
تعالى : «فينا رحمة من الله لنت لهم» وقد يؤكد بقدر
او بقدر واللام او بان . الا ان التوكيد بان اقوى وأحسن .

(23) سورة يس ، الآيات 13 - 17

(24) معنى التلميح عن كتب الاعراب لجمال الدين ابن هشام الانصاري ، بتحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ومراجعة سعيد الأفغاني .

والمرأة تخدوم وتبعثه على التمرقش للناس وعلى
الطلب (25) .

والاستعارة والكناية والتشبيه وسائر صنوف
المجاز من مقتضيات النظم ، ومنها يحدث ، وبها
يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء فيها في الكلام ،
وهي اقراء لم يتوخ فيها بينها حكم من احكام النحو .
فلا يتصور منها فعل او اسم قد دخلته الاستعارة من
دون ان يكون قد الت مع غيره . ولا وجهه لحسن
الدلالة وتبرجها غير ان يؤتى المعنى من الجهة التي
هي اصح لثابتته . ويختار له اللفظ الذي هو اخص
به وانسب عنه واتم له . فالبلغة في النقل والمفنى
معاً ، لأنها حسن دلالة الكلام على جتماع بصورة رائعة
من الاسلوب .

والعرب قد تعتقد ان في الشيء من نفسه شيئاً
آخر ، كانه حقيقته ومقصولة ، وقد يجري ذلك الى
الفاظها لما عتدت عليه معانيها . وذلك نحو قولهم :
لئن لقيت زيدا لآتين منه الاسد ، ولئن سألته
لتسأل عنه البحر . فظاهر هذا ان فيه من نفسه اسداً
وهو عينه هو الاسد والبحر ، لا ان هناك شيئاً منفصلاً
عنه ومعتزلاً منه .

والعلم ان لهذا الضرب اتساعاً وتفتيحاً لا الى غاية
الا انه على اتساعه يدور في الامر الاعم على شيئين :
الكناية والمجاز . والمراد بالكناية : ان يريد التكلم
ايات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع
له في اللغة ، ولكن يحى الى معنى هو كاليه وردفه
في الوجود فيجوز : اليه ويجعله دليلاً عليه . مثال ذلك
قولهم : هو طويل المجاد (26) يريد طويل القامة :
و « لخير رماح اعداء » . يعنون كثير القسرى (27)
وفي المرأة : « نؤوم الضحى » (28) . والمراد انها عترة
مخدومة ، لها من يكفها امرها ، فقد ارادوا في هذا
كلام معنى لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توعدوا

اليه بذكر معنى آخر من شأنه ان يردفه في الوجود .
وان يكون اذا كان ، الا ترى ان القامة اذا طالت طال
النجاد ، واذا كثر القرى كثر رماح القدر . والما كانت
المرأة عترة لها من يكفها امرها ردف ذلك ان تمام
الضحى .

واما المجاز فقد عول الناس في حده على حديث
النقل ، وان كل لفظ تقل عن موضوعه فهو مجاز ، ولا
يتحقق مجاز ولا استعارة الا بالنظم . « ولا نظم للكلمة
ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض وينسج على بعض
وتجعل هذه بسبب من تلك ، ولا معنى لذلك الا ان
تعيد الى اسم فتجعله فاعلاً او مفعولاً او تعمد السمى
استمين فتجعل احدكما خبراً عن الآخر ، او تتبع الاسم
اسماً على ان يكون الثاني صفة للاول ، او توكيدا له
يدلا منه ، او تحيى بعد تمام كلامك على ان يكون الثاني
صفة او حالا او تمييزاً . او سوجى في كلام هو لانيات
معنى ان يصير ثانياً او استغنياً او تمثيلاً فتدخل عليه
الحروف الموضوعية لذلك .

وان من وجوه البلاغة ومحاسن الكلام ما لا يمكن
ثمينه الا من بعد العلم بالنظم ، والوقوف على حقيقته
واسرارها فالمزية في الاستعارة - مثلاً - لا تعود الى
كوتها مجرد استعارة ، وانما تعود الى المعنى بها
على طريق ما يستند فيه الفعل الى الشيء ، وهو في
المعنى لما هو من سببه فيرفع بالفعل ما يستند اليه
ويؤتى بالذي له الفعل في المعنى منصوباً بعمه فبينما
ان ذلك الاستناد وتلك النسبة الى ذلك الاول انما
كان من اجل هذا الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال

والفرق ان تكون المزية في اللفظ ، وبين ان
تكون في النظم بان يكثر فيه اللفظ ، فلا تزال ترى
مستحسنات قد اخطأ بالاستحسان موضعها فيدخل اللفظ
ما ليس له ، ولا تزال ترى التنبه قد دخلت عليك

(25) دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني

(26) منه قول الخنساء في اخيها صخر :

طويل النجاد رفيع العنقا يد ساد عشيرته اميردا

والنجد في الاصطلاح : حائل السيف لانه يعلو العائق .

(27) القري بكسر القاف : ما يقدم للضيف . ومار القري : نار كان العرب يوقدونها لمن يلتمس الضيافة
فكلما كان موضعها ارفع كانت اقوى .

(28) منه قول امرئ القيس في معلقته :

وتضحى فحييت المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تمتطى عن تفضل

في الكلام قد حسن من لفظه ونظمه ، فطنت ان حسنة ذلك كله للفظ منه دون النظم . سأل ذلك ان تنظر الى قول ابن المعتز :

وانني على اشتاق عيني عن العبدى
لتجمع عنى نظرة ثم اطرق

فتري ان هذه النظرة ، وهذا الطرف ، انما هو لان جعل النظر يجمع وليس هو لذلك ، بل لان قال في اول البيت : «وانني» حتى دخل اللام في قوله : لتجمع تم قوله . حتى ، ثم لان قال : نظرة ، ولم يقل النظر مثلا . ثم لمكان . ثم في قوله : اسم الطراق . والليفة اخرى اصرت هذه اللطائف وهي اعتراضه بين اسم (ان) وخبرها بقوله : «على اشتاق عيني من العبدى» .

وتعجب من ذلك قوله

سألت عليه شعاب الحى حين دعا
أصاره بوجود كالدنانير

فانك ترى هذه الاستعارة على لفظها وغرابتها انما تم لها الحسن وانتهى الى حيث انتهى بما توحي في وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدعا قد ملحت واطقت بمعاونة ذلك ومؤازرته ليا(29) .

ومن دقيق ذلك وحفيه انك ترى الناس اذا ذكروا قوله تعالى : «واشتعل الرأس شيبا»(30) لم يزدوا فيه على ذكر الاستعارة . ولم يسموا الشرف الا اليها ولم يروا للمزية موجبا متواخا ، هكذا ترى الامر في ظاهر كلامهم . وليس الامر كذلك ولا هذا الشرف العظيم . ولا هذه المزية الجليلة ، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند الكلام لمجرد الاستعارة ولكن لان يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه الى الشيء وهو لهما هو من سميته فيرفع به ما يستند اليه ، ويؤتى بالذي افعل له في المعنى متصلا بعده مبينا ان ذلك الإسناد وتلك النسبة الى ذلك الاول انما كان من اجل هذا الثاني لما بينهما من ملازمة ، كتبولهم : طاب زيد نفسا وفر عمرو عينا . - وأشياء ذلك مما تجد الفعل فيه متقبولا عن الشيء الى ما ذلك الشيء من سميته .

وذلك انما تعلم ان «اشتعل» للشيب في المعنى ، وان كان هو للرأس في اللفظ ، كما ان «طاب» للنفس . و «قر» للفين ، وان استند الى ما استند اليه يبين ان الشرف كان لان سلك فيه عذا المشبك ، وتوحي به هذا المذيع : ان تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسند الى الشيب صريحا فتقول اشتعل شيبه الرأس والشيب في الرأس . ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها . . وسبب المزية في استعارة «اشتعل» للشيب هو انه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو اصل المعنى الثمولى . وانه قد شاع فيه وأخذ من تواخيه ، وانه قد استقر له وعم جملته ، حتى لم يبق من السوان شيئا الا لم يبق منه الا بالاعتقاد به . ووزان ذلك ان تقول : اشتعل البيت نارا ، فيكون المعنى ان النار قد وقعت فيه وقوع الشمول . وانها قد استولت عليه وأخذت في طريقه ووسطه . . وفي الآية شيء آخر من حسن النظم ، وهو تعريف الرأس بالالف واللام ، وإفادة الأضافة من غير اضافة وهذا ما اوجب المزية .

ولا يخفى اليون الشاسع والفرق الكبير بين صورة المعنى في قوله عز وجل : «واشتعل الرأس شيبا» وصورته في قول من يقول : وشاب رأسي كله ، وايض رأسي كله .

وانظر الواو في قول امرئ القيس :

فقلت يمين الله ابرج قاعدا
ولو قطعوا رأسي لذيك ولوضالي

فاذا كان امرؤ القيس ملازما لحبيته مع تقطيع الاوصال ، فملازمته مع الحبة واللفة تكون ادخل لا محالة ، وهذه الواو في المطلعة على الاسرار فاذا قدر زوالها زالت البلاغة(31) .

ولا يتصور ان تعرف للفظ معنى موصفا من غير ان تعرف معناه ، ولا ان تتوحي في الالفاظ من حيث هي الالفاظ ترتيبيا منطويا ، وانما تتوحي الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك ، فاذا تم لك ذلك اتبعته

(29) دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني

(30) من الآية الرابعة من سورة مريم .

(31) الطران ليحيى بن حمزة العلوي نقل عن «النقد الادبي الحديث» للدكتور غنيمي خلال .

أشارت بطرف العين خيفة أهلها
أشارة محزون ولم تتكلم

فايقنت ان الطرف قد قال مرحبا
وأصلا وسهلا بالحبيب الميم

قائما بقي الكلام اللفظي ، لا فطلق الكلام ، ولو
أراد بقوله «ولم تتكلم» بقى غير الكلام اللفظي لانتقض
بقوله : «فايقنت ان الطرف قد قال مرحبا» لأنه انبت
لطرف لولا بعد أن بقى الكلام ، والمراد بقى الكلام
اللفظي وأثبت الكلام اللفظي .

والدليل عليه قينا تطلق به لسان الحال قول
نصيب :

فعاوجوا قائتوا بالتي أنت أهلها
ولو سكتوا أنت عليك العقائب

يريد أن هؤلاء الناس الذين لقيتهم وسألتهم عنك
قد اتنوا عليك وذكروا عن كرمك ومحاسن أخلاقك
وشريف سجاياك ما أنت أهل له . ولو أنهم لم يمدحوا
بالسهم لكلمة حقائب ، كونها عملة بعباءة .

وقال تعالى : «قالتا اتينا طائعتين» (35) فزعم قوم
من العلماء أنها تكلمتا حقيقة ، وقال آخرون : أنها
لما اتقادتا لأمر الله عز وجل نزل ذلك منزلة القول (36)

وإن العرب كما تعنى بالفاظها فتقبلها وتلذذها
وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها بالشعر نارة ، وبالخطب
أخرى ، وبالإسجاع التي تلزمها وتكلم استمرارها ،
فإن المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأقبح قدرا
في نفوسها .

فأول ذلك عنايتها بالفاظها ، قائما لما كانت
عنوان معانيها ، وطريقا إلى أظفار أغراضها ومرامها ،
أصلحها ورثوها ، وبالقوا في تحبيرها وتخصيبها ،
ليكون ذلك أوقع لها في السمع ، وأذهب بها فني
الدلالة على القصد . . . فإذا زابت العرب قد أصلحوا

الالفاظ ونحفت بها أفرعها ، وألك إذا فرغت من ترتيب
المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في
ترتيب الالفاظ بل تجدها بترتيب لك يحكم أنها خدم
للمعاني وتابعة لها . وتقاليد السماع في الكلام يحكم
قديمها وحدانة تقاليد الكتابة جعلت الكلام المستوع
يبدوا أكثر أهمية من الكلام المنظور ، ذلك لأنه أدخل
في الحياة من الكتابة وأدخل في سلوك الفرد والمجتمع
حتى لقد زعم بعض العلماء أن التفكير لا يتم بدون
الكلمات ، والحروف وحدات من نظام ، وهذه الوحدات
أقنم ذهنية لا أعمال لفظية على نحو ما تكون الأصوات
والفرق واضح بين العمل الحركي الذي للصوت وبين
الأدراك الذهني الذي للحرف أي بين ما هو هادئ
فيحسوس وبين ما هو معنوي فيفهوم . يقول الاستعري
وقال آخرون : الكلام حروف والقراءة صوت والصوت
عندهم غير الحرف » . واختار أنه يقصد بالكلام الكلمات
غير المكتوبة أي الكلام النفسي الذي ينظم بنظام
عبد القاهر (32) ، فهو ما في النفس مما يعبر عنه
باللفظ البعيد ، وذلك كأن يقوم بنفسك معنى «قام
زيد» أو «بعد غمرو» ونحو ذلك فيسمى ذلك اللفظ
تخليته كلاما ، قال الإخطل :

لا يجهنك عن خطيب خطبة
حتى يكون مع الكلام أصيلا

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وهو ما تفصيل به الفائدة ، سواء كان لفظا ، أو
خطا ، أو إشارة أو ما تطلق به لسان الحال ، والدليل
على ذلك في الخط قول العرب : «العلم أحد اللسانين»
وتسميتهم ما بين دفتي المصحف «كلام الله» . وهو ما
نطق به أيضا ، يقول تعالى : «وإن أحد من المشركين
استجارك فأجرة حتى يسمع كلام الله» (33) والدليل
عليه في الإشارة قوله تعالى : «آيتك ألا تكلم الناس
ثلاثة أيام إلا رمزا» (34) . فاستثنى البرزخ عن الكلام ،
والأصل في الاستثناء الاتصال ، وأما قوله :

- (32) اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان
(33) من الآية السادسة من سورة التوبة .
(34) من الآية الواحدة والأربعين من سورة آل عمران
(35) من الآية الحادية عشرة من سورة فصلت
(36) شذور الذهب لجمال الدين ابن هشام الانصاري

المعاني وحسنوها وحسوها حوائثها ومذهبها ، وجعلوا غروبها وأوهفوها ، فلا ترى أن المعاني إذ ذاك إنما هي بالالفاظ ، بل هي خدمة للمعاني وتشریف منها ، ونظر ذلك اصلاح الوعاء وبخشيته وتركيبه وتقديره وإنما المعنى بذلك منه الاحتياط للمعنى عنه ، وجوازها بما يعطى بشره ، ولا يعز جوعه ، كما قد تجده من المعاني الفاخرة السامية بما يهجنه ويفض عنه كثرة لفظه وسوء العبارة عنه .

وبذلك على يمكن المعنى في أنفسهم وتقدمه للفظ عندهم تقديم لحرف المعنى في أول الكلمة ، وذلك بقوة العناية به ، فقدموا دليله ليكون ذلك إيمارة لتمكين عندهم . وعلى ذلك تقدمت حروف المضارعة في أول الفعل ، إذ كن دلائل على اتفاعلين ، عن هم وما هم وكم عدتهم ، نحو الفعل ، وفعل ، وفعل ، وفعل .

الآن ترقى إلى حروف المعاني : كلف بابها التقدم وإلى حروف الاتحاق والصناعة . كلف بابها التأخر ، فلو لم يعرف سبق المعنى عندهم ، وتقدم في تصورهم إلا بتقدم دليله ، وتأخر دليل تقيضه لكان معنيا عن غيره كافيا .

ومنى هذا خشيوا بحروف المعاني فيحسوها بكونها حسوا ، وأفتوا عليها ما لا يؤمن على الاطراف المصرفة لجذب والإحجاف ، وذلك كالف التكسير ، وباء التفسير . وقرروا المعنى ورخوهوا بشرقه عندهم وتقدمه في تفوسهم .

فكان العرب إنما تجلى المفاظ وتذبحها وتسميها وتزخرها غناية بالمعاني التي وإرضا وتوضلا بها إلى ادراك مطالبها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الشعر لحكما وإن في البيان لسحرا فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء القوم ، التي جعلت مصاندة وإشراكا للمعنى وسبب وسلبا إلى تحصيل المطلوب ، عوف بذلك أن الالفاظ خدم للمعاني والمخدوم – لا شك – أشرف من الخادم (37) .

والعلم بمواقع المعاني في النفس يسدى العلم بمواقع الالفاظ الدالة عليها في النطق ، والملفظ خارجا عن السياق أو عزولا عن النص لفظ يعيّن بدون

قريب ، ويظل دون دلالة ، وبقدر ما كان اللفظ تابعاً لغيره في الجملة كان أشد تلاخذا وأصل سبكاً في نظام الكلام . ولهذا كانت الالفاظ الخاصة من حيث التركيب للتطابق النحوي : أكثر مقاومة لأي عدوان خارجي على مضمون النص ومعنى الجملة .

والالفاظ هي الأدوات المادية لإيضاح المعاني . والمعاني ظلال الالفاظ ، ونتيجة التجزية ، ولا يتم التناسق بين اللفظ وظله إلا بتوجيه معاني النحو .

يرى BOAS أن النحو يختار ويصنف ويبين الصور المختلفة للتجزية ، زيادة على قيامه بوظيفته هامة ، تلك هي تحديد الصور لكل تجربة أريد التعبير عنها .

ويشير BOAS إلى أن الخاصية اللازمة للمقولات النحوية هي السمية الفارقة التي تميزها عن المعاني البديهية ، فعندما تقول : « قتل الرجل الثورة » فإنه يتبادر إلى أذهاننا أن رجلا وحيدا معينا هو الذي قتل في زمن ما مضى ، نورا وحيدا معينا ، ولو شككنا في شخص موجود أو في شخص ما أو في نور محدد أو في نور ما أو في شخص أو أشخاص عديدين ، أو ثيران ، فسي حاضرا أو ماض ، فإنه يستحيل علينا أن نعرب عن تجربة القتل هذه ، ولزمنا أن نختار من بين الصور أحد، إما أن مبدولاتها إنما تجود السوى الانساني النحوية (38) .

ومؤلف الكلام يفكر في المعنى الذي يريد أن يتصوره ، ويرتب هذا المعنى في نفسه ، ثم يختار النظم المناسب لأدائه ، يقدم فيه ما تقدم في نفسه ، ويؤخر ما تأخر فيها ، ويرتب عبارته حتى تتفق مع المعنى الذي يريد ، ويوازن بين الالفاظ ليختار أحدها بالمعنى وأكثرها كشفا عنه ، ويضع الكلمة في موضعها اللائق بها ، لأنه لا فضل للعلم بمعاني الكلم ، وإنما الفضل لحسن التعبير ، وفهمه الوضوح ، ومعدن الاعجاز ومعانيه هي معاني النحو ، ولا يستتبط لها سراها ، ولا وجه له فيمادها ، وما الكلام إلا تسلسلة من الصيغ اللفظية تعرف عناصرها عند تحليله .

«واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه على النحو ، وتعمل على قواعده وأحواله

وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها . وتحفظ رسومه فلا تخل بشيء منها . وذلك إذا لا تعلم شيئا بتبنيها النظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه (39) .

والنحو ليس بحثا في الجملة من حيث تغيير أواخر كلماتها بتغيير ترتيبها فحسب ، وإنما هو بحث كذلك من حيث اسرار الجمال التي تكمن وراء نظم كلماتها وترتيبها الترتيب الذي يتطلبه هذا العلم وإذا كانت المحركات ذات غموض ومحددة بحيث أن الضمة علم الاستناد والكسرة علم الإضافة ، والفتحة علم الخفة ، فإن ذلك راجع إلى اختلاف المعاني النحوية ، والعلاقة الإعرابية ليست أكثر من واحدة من قرائن كثيرة يتوقف عليها فهم الأعراب الصحيح ، بل أن الاستناد نفسه قرينة من القرائن المعنوية ، فيعتبر هو نفسه كاشفة صاحب دلالة معينة على الأعراب الصحيح ، وجميع ما يسميه المعاني النحوية هو وظائف للمباني التي يتكون منها المبني الأكبر وهو السياق ، والملازمة المنطوقة أو المكتوبة ليست من نظام الفنون ولا من نظام النحو ، ولكنها جزء من الكلام ، والعلاقات السياقية قرائن معنوية تفيد في تحديد المعنى النحوي لعلاقة الاستناد مثلا ، وهي العلاقة الرابطة بين المبتدأ والخبر تم بين الفعل والفعل وثانيه ، تصبح عند فهمها وتصورها قرينة معنوية على أن الأول مبتدأ والثاني خبر ، أو على أن الأول فعل والثاني فاعل أو نائب فاعل ، ويوصل المعرب إلى قرائنه عندما يفهم العلاقة الرابطة بين الجزئين ، ولكن علاقة الاستناد لا تكفي بذاتها للوصول إلى هذا القرائن ، لأنها يمكن أن تكون استنادا في جملة اسمية أو استنادا في جملة فعلية ويمكن أن تكون استنادا خبريا أو استنادا انشائيا ، ومن هنا تحتاج إلى قرائن أخرى لفظية نعينها على تحديد نوعها فتليها أي مبادئ التقسيم لتري أن كان طرفا الاستناد اسمين أو اسما وصفة أو اسما وفاعلا أو فعلا واسما (40) .

ومعاني النحو تمثل العلاقات بين معاني الكلام في النقص ، وإليها يستلزم ترتيب هذه المعاني ، والمعاني ترتيب في النفس ، والالفاظ ترتيب في النطق ترتيبا

يتحكم فيه ترتيب المعاني ، ألا ترى أن المثال إذا كان عسجورا لذ لمسمعه فحفظه ، وإذا هو حقله كان جديرا باستعماله ، ولو لم يكن عسجورا لم تأسس النفس به ولا القيت (41) لمسمعه ، وكذلك الشعر ، النفس له احفظ ، والنية أسرع ، ألا ترى أن الشاعر قد يكون راغيا جلقا ، أو غلاما عسيفا تغير صورته وتمجج جملته فيقول ما يقول من الشعر ، فلاجل قبوله ، وما يورده ، عليه من طابوته وغذوبة مستمعه بما يصير قوله حكما يرجع إليه ويفتأس به (42) ، فهذا نظم معنوي في النفس يقابله على اللسان نظم لفظي يشبهه بعبارة مطلقة ويقدر بالضرورة أنه .

وليس الغرض من نظم الكلام أن ثوانت الفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اغتضاه العقل ، ولو كان الغرض إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالالفاظ على حدودها لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو تخير الحسن فيه لأنها يحسن بتوالي الالفاظ في النطق إحياسا واحدا لا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يحمله الآخر ، فالنظم هو تصور العلاقات النحوية بين الأتواب كتصور علاقة الاستناد بين السيند اليه والمسنود ، وتصور علاقة التعدية بين الفعل والمفعول به وتصور علاقة السببية بين الفعل والمفعول لاجله . يقول عبيد القاهر : « وقد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والقروء التي من شأنها أن تكون فيه ، فاعلم أن الوجوه والقروء كثيرة ليس لها غاية تغف عندها ونهاية لا نجد لها ازديادا بعدها .

ثم اعلم أن ليست الميزة بواجبة لها في نفسها ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأعراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض ، وإنما كان القرآن معجزا بين الأسلوب بآثار النظم لمعاداة العلاقات السياقية ولنظمه على معاني النحو وعلى الوجوه والقروء التي من شأنها أن تكون فيه ، ولمناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، منسقة المعاني ، منظمه

(39) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني

(40) اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان

(41) أثق بكسر التون : فرج وأعجب بالشيء

(42) الخصائص لابن جني بتحقيق محمد علي النجار

الحبائي (43) . وأكثر لطائفه مودعة في الترتيبات والروابط .

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : المناسبة علم حسن ، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر يمتدح مرتبط أوله بالآخر . والقرآن كله كالسورة الواحدة ، ولهذا يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى (44) تجزئ : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر أنك لمجنون (45) » وجوابه « أما أنت بتعبد ربك بمجنون » (46) .

وقال الإمام الرازي في سورة البقرة : ومن تفكر في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة الفاظه وشراف معانيه فهو أيضًا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا أنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، ألا التي رأيت جهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأسرار ، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل :

والنجم تستصغر الإحصاء ضروره
والذنب للعطف لا للنجم في الصغر

وخرج المناسبة في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي

(43) يقول الحافظ جلال الدين السيوطي عن الاختلاف وتجزيه القرآن عنه ، في كتابه « معترك الاقران في اعجاز القرآن » :

« قال الغزالي : الاختلاف لفظ مشترك بين معان وليس المراد نفس اختلاف الناس فيه بل نفس الاختلاف عن ذات القرآن ، يقال : هذا كلام مختلف لا يشبه بعضها ، أولا يشبه أوله آخره ، أو بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا ، وهو مختلف النظم ، فبعضه على وزن الشعر وبعضه منقح وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة وبعضه على أسلوب مخصوص يخالفه ، وكلام الله عز وجل عن هذه الاختلافات فإنه على منهاج واحد في النظم يناسب أوله آخره ، وعلى درجة واحدة من الفصاحة فليس يشتمل على الغث والسمين ، وميسوق بمعنى واحد ، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى ، وصرفهم عن الدنيا إلى الدين ، وكلام آدميين يطرق اليه هذه الاختلافات ، إذ كلام الشعراء والرسائل إذا قيس عليه وجد قية اختلاف في منهج النظم ، ثم اختلاف في درجات الفصاحة ، ثم في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين ، ولا تتساوى رسالتان ولا قصيدتان بل تشتمل قصيدة على أبيات فضيحة وأبيات سخيفة ، وكذلك تشتمل القصائد والإغراض على أغراض مختلفة ، لأن الشعراء والفصحاء في كل واحد يهيمون ، فتارة يمدحون الدنيا ، وتارة يمدحونها وتارة يمدحون الجبن وتارة يمدحونه ويستنبهونه حزمًا وتارة يمدحون الشجاعة ويسموونها صرامة ، وتارة يمدحونها ويسموونها تيورًا .

(44) معنى النبي عن كتب الاعراب لجبال الدين ابن هشام الانصاري

(45) الآية السادسة من سورة الحجر .

(46) الآية الثانية من سورة القلم .

(47) بسط أو بسط بالسين والفاء .

أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهني ، كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضمدين ونحوه . والمناسبة هي التي تجعل أجزاء الكلام بعضها أخذًا بإعتاق بعض ، فيقتضى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف خالصة خال البناء المتحكم المتلائم الإجزاء . والكلام إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق بعضه ببعض وعدم تمايزه في الأول ، أو لكون بعضه تابعًا لبعض على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل ، وإما ألا يظهر الارتباط ، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به ، فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم ، أولاً ، فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكون بينهما خبة جامعة ، كقوله تعالى :

« يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » وقوله : « والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » ، للتقارب بين القبض والبسط (47) والولوج والخروج ، والنزول والخرج ، وشبه التقارب بين السماء والأرض .

ومما العلاقة فيه التقارب ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرغبة ، وإن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام . وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط ، والربط له أسباب :

اجدها : التنظير ، فإن الخلق النظير بالتقليد من شأن العقلاء ، كقوله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » عقب قوله : « أولئك هم المؤمنون » فإنه تعالى أمر رسوله أن ينصي لأمره في إخراجهم على كره من أسديده ، كما مضى لأمره في إخراجهم من بيته لطلب الخير أو القتال وهم له كارهون . والقصد أن كراهتهم لما فعله من قسم العالم ككراهتهم للخروج . وقد تبين في الخروج الخيز من النصر والظفر والغنيمة وعن الإسلام . فكذا يكون فيما فعله في القسمة : فليطعوا ما أمروا به وليركوا هوى أنفسهم .

الثاني : المضادة كقوله في سورة البقرة : « أن الذين كفروا سوء عليهم آياتهم أم أم تميزهم لا يؤمنون » . قال أول السورة كان حديثا عن القرآن ، وأن من شأنه الهداية لقوم الموقنين بالإيمان . فلما اكتم وصف المؤمنين عقب بعديت المنافقين . فبينما جافع وعسى بالتضاد من هذا الوجه ، وحكمته التمييز والتبويب على الأول ، كما قيل : وبضمها تيسر الأشياء .

فإن قيل : هذا جامع بعيد ، لأن كونه حديثا عن المؤمنين بالعرض لا بالذات ، والمقصود بالذات الذي هو خصال الكلام إنما هو الحديث عن القرآن لأنه مفتتح القول .

قيل : لا يشترط في الجامع ذلك ، بل يكفي التعلق على أي وجه كان ويكفي في وجه الربط ما ذكرنا ، لأن الفصل تأكيد أمر القرآن والعمل به . والحث على الإيمان ولهذا فرغ من ذلك قال : « وأن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا » فرجع إلى الأول الثالث : الاستطراد ، كقوله تعالى : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير » ذلك بين آيات الله لعلهم يتذكرون .

قال الزمخشري : هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر يدو السوءات ، ونقص التورق عليها : اختيارا للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما غنى العراء وكشف العورة عن الشهادة والتضيعة ، واستعار بأن الستر باب عظيم من أبواب التقى .

وقد خرجت على الاستطراد قوله تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون » . فإن أول الكلام ذكر فيه البرد على النصاري الزاعمين بقوة المسيح ، ثم استطراد الرد على العرب الزاعمين بقوة الملائكة (48) .

ومعاني النجوم وأحكامه التي هي خواص العلاقات السباقية هي مرجع الصحة والفساد والمزية والفضل في الكلام . فليست بواجب شيئا يرجع جوابه إن كان صوابا أو خطأ إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو عن معاني النجوم قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو غفل بخلاف هذه المعاملة واستعمل في غير ما ينبغي له . فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو قساده أو وصف بمزية أو فضل فيه الاوانت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النجوم وأحكامه ووحدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه . وهذا النظم الذي يتواصفه المبلغ ، وتفاضل فرائب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة . وإذا كان كذلك فإنه ينبغي أن ينظر في الفكر بماذا تلبس بالمعاني أم بالالفاظ ؟ فأي شيء وجدته الذي تلبس به فكرت من بين المعاني والالفاظ فهو الذي تحدث فيه صنعتك وتقع فيه ضياعك وتطمك ، وتصويرك . فمحال أن تفكر في شيء وأنت لا تصنع فيه شيئا ، وأما تصنع في غيره ، أو جاز ذلك لجاز أن يفكر البناء في الغزل لتجعل فكره فيه وسيلة إلى أن يصنع من الآخر وهو من الإحالة المتفرقة خذ إليك بيت الغزواني الذي يضرب به المثل فيني تعسف اللفظ :

وما مثله في الناس إلا مثلك
أبو أمه حتى أبوه يقاربه

فانظر التصور أن يكون ذلك للفظه من حيث أنك اتكزت شيئا من حروفه ، أو صادقت وحشيما غريبا ، أو سوقيا ضعيقا . أم ليس إلا لأنه لم يرتب الالفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر . فكذلك ، وضع السماع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدم ويؤخر . ثم اسرف في إبطال النظام وإبعاد المرام ، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة ، ولكن بعد أن تراجع فيها بابا من الهندسة لفرط ما عاين بين أشكالها ، وشدة ما خالف بين أوضاعها (49) وإذا وجدت ذلك أمرا بيتا لا يعارضك فيه شك ولا يملكك معه امتراء ، فانظر إلى الأشعار التي اتوا عليها من جهة الالفاظ ووضعوها بالسلاسة ، ونسبوها إلى الدماعة . وقالوا كانوا الجاء يجري جريانا والهوة لطفا ، والرياض حسنا ، وكانت المسيم ، وكانت

(48) معتزك الاقران في اعتجاز القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي بتحقيق محمد علي البجاوي .

(49) اسرار البلاغة للامام عبد القاهر الجرجاني .

الرجيق مزاجيا التسنيم ، وكانت الذباج التخنرواني
في مزاجي الابصار ووشى اليمن منشورا على ذراع
التجار كقوله : (50)

ولما قضينا من متى كل حاجة
ومسح بالاركان من هو غاشح

وشدت على دهم المياري رحالنا
ولم ينظر الغادي الذي عز رائج

أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا
وسالت بأغصان القطي الاباطح

فقد تروى الى طو هذا اللفظ ومائه : وصقاله
وتلايح احواله ومعناه مع هذا ما تحببه وتراه : انما هو
لما اترفتا من الحج ركننا الطريق راجعين وتحدثنا على
ظهور الابل ، ولهذا لقائنا كثيرة شريفة الالفاظ رفيعتها
مشروفة المعاني خفيضتها .

فان قلت : فاننا نجد من الفاضل ما قد يفتوه
ورخفوه ، ووشوه ودبحوه ، ولست نجد مع ذلك
تحته معنى شريفا ، بل لا تجده قصدا ولا مقاربا .

قيل : هذا الموضع قد سبق الى التعلق به من
لم يتم النظر فيه ولا رأى ما اراد القوم منه : وانما
ذلك لجفاء طبع المناظر ، وجفاء غرض الناطق (51)

فهل تجد لاستحسناتهم وحيدهم ولذاتهم ومنهجهم
متصرفا الا الى استعارة وقعت موقعا ، واحيايت
غرضها ، او حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل
المعنى الى القلب ، مع وصول اللفظ الى السمع ،
واستقر في الفهم فص وقبوع العبارة في الاذن ،
والا سلامة الكلام من الحشو غير المفيد ، والفصل
الذي هو كالزيادة في التمديد ، وشيء داخل المعاني
المقتضودة مداخله الطفيلي الذي يستقل مكانه ،
والاجتنبي الذي يكره خضوعه ، وسلامته من التقصير
الذي يقتصر معه السامع الى تطلب زيادة بقيت في
أعين التحكم فلم يدل عليها بلفظها الخالص بها ،
وامتدد دليل حال غير مقصود ، او زيادة مذكور ليس
لذلك التباينة بمستصلح . وذلك ان اول ما يلقاك من
محاسن هذا الشعر انه قال : «ولما قضينا من متى كل
حاجة» ففسر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من
فروضها وسببها من طريق امكنه ان يقصر لغة اللفظ

وهو طريق الغموض . ودل «بكل حاجة» على افادة اهل
النسب والرفقة وذوي الاهواء والمقبة ما لا يقدره
غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم . وقد يكون من
حوائج «متى» اشياء كثيرة غير ما الظاهر عليه ،
كالتلاقي والتشاكى . وكأنه صانع عن هذا الموضع
الذي اوجأ اليه وعقد غرضه عليه بقوله : «ومسح
بالاركان من هو غاشح» وتب على طواف الوداع الذي
هو آخر الامر . اى انما كانت حوائجنا التي قضيناها
وأرابتنا التي قضيناها من هذا النحر الذي هو مسح
الاركان وما هو لاحق به ، وجاز في القرية من الله
مجرأ . اى لم يتعد القدر المذكور الى ما يحتمله اول
البيت من التعريض الجارى مجرى التصريح .

ثم قال : «أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا» فوصل
بذكر مسح الاركان ما وليه من زم الركاب وركوب
الركبان ، ثم دل بلفظه «الأطراف» على الصفة التي
يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في قسوت
القول وشجون الحديث ، او ما هو عادة المتطرفين من
الاشارة والتلويع والاياء . وانما بذلك عن طيب
النفس ، وقوة النشاط ، وفضل الاعتباط كما توجه
الفة الاسحاب : وانبة الاحباب . وكما يليق بمن
وقف لقضاء القيادة الشريفة ، ورجا حسن الاياد
وتنسم روائح الاحبة والاطوان ، واستماع التماسي
والتحايا من الخلال والاعوان : ولو قال : «أخذنا في
احاديثنا» ونحو ذلك لكان فيه معنى يكسره اهل
النسب ، وتعد له معة المامى الضريب ، وذلك
أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر
الحديث بين الالفين ، والفكاهة بجمع شمل
المواصلين .

وقد زان ذلك كله باستعارة لطيفة طليق فيها
مقصل التشبيه ، وأفاد كثيرا من القوائد بلفظ الوجي
الخفي والرمز الحلو ، فخرج أولا بما اوجأ اليه بالاخذ
بأطراف الحديث ، ودل بذلك على ما يتعاطاه ويتقاضيه
ذو الصباية البهيمون ، من التعريض ، والتلويع ،
والاياء دون التصريح ، وذلك احلى وأدمت وأغزل
وأنسب من ان يكون مشافهة وكشفا ، ومصارحة
وجهرا . وأخير اهتم تنازعوا احاديثهم على ظهور
الرواحل ، وفي حال التوجه الى المنازل ، وأخير بعد
بسرعة السيل ووطاة الظير ، اذا جعل سلاسة سيرها

(50) الايات لكثير عزة وكثيرا ما تحدث عنها نقاد العرب الاقدمون ، وقد ذكرها قدامة بن جعفر في نعم
اللفظ في الفصل الثاني من «نقد الشعراء» .

(51) الخصائص لابن جني بتحقيق محمد علي التاجر

بهم كائنات تسيل به الاباطح ، وكان في ذلك ما يؤكد ما قبله لان الظهور اذا كانت وطيفة وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك في نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا . ثم قال « يا غياث البطلاني » ولم يقل بالبطلاني لان السرعة والبطء يظهران غالباً في اجناقها ، وبين امرها من هوائها وسدورها ، وسائر اجزائها تستند اليها في الحركة وتتبعها في الثقل والخفة . ويعبر عن المرح والنشاط اذا كان في نفسها بافعال لها ، خاصة في العنق والرأس ، ويدل عليهما بمسائل مخصوصة في المقادير (52) . واذا كان كذلك فمعنى هذه الابيات عال رفيع ، شديد التقدم في النفس ، والفضل فيها يعود الى كونها مقرونة بحسن النظم الذي يؤدي الى تاليف الصورة المرادة . والذي يعود اليه جودة دلالات الالفاظ في مواقعها من الجمل . وبذلك حسنت الجمل في الابيات بتجاورها بعضها مع بعض ، فاكتسبت بها جودة التاليف المهيمنة على توضيح الصورة واتقانها . وتلك هي الغاية من حسن النظم وتوخي معاني النحو ، فالجمال للنظم من حيث تصويره للمعنى او للصورة من حيث هي مدلول عليها فيه .

وبهذا قواعد النحو ليست جافة مقصورة على الاعراب او التحليل النحوي ، وانما هي من وسائل التصوير والضيافة ، ومقياس يهتدى به في البراعة ، ويتفاوت في التسابق فيه الشعراء . وما سبيل المعاني النحوية الا لتبديل الاصباح التي تحمل منها الصور والنقوش فكما انك ترى الرجل قد تهدي في الاصباح التي عمل منها الصورة والتفنن في ثوبه الذي نسج الى ضرب من التخيير والتدبير في انفس الاصباح وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبها ايها الى ما لم يهتد اليه صاحبه فجاء نقشه من اجل ذلك اعجب وصورته اقرب . كذلك حال الشاعر والشاعر في توضيحهما معاني النحو ووجوه الشيء عن مختصلي النظم الذي يقرب فهم الشيء وتدقيقه . وان للذة الفهم الخالي من العناء هي احدى اللذات الطبيعية لبني الانسان وان الكلام الذي يعطينا مدلوله في يسر يهب لنا اكبر مقدار من اللذة العقلية . وتلك هي مزية توخي معاني النحو والعمل على تركيب الالفاظ في الكلام حسب وزود نظامها في النفس مع النظر بالقلب والاستيعان

(52) استراخ البلاغة والخصائص .

بالفكر ، واعمال الروية ، ومراجعة العقل والاستبعاد بالفهم ، فاذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا ، او يستجده نثرا ، ثم يجعل الثناء عليه منسج حيث اللفظ فيقول : حلو وشيق ، وحسن اتيق ، فاعلم انه ليس ينشك عن احوال ترجع الى اجرام الحروف ، والى ظاهر الوضع اللغوي ، بل ان الامر يقع من المرء في قواده ، وفضل يقتدحه العقل من وزاده ، وذلك ان الالفاظ لا تفيد حتى تؤلف قصرياً خاصياً من التاليف ، ويعود بها الى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، فلو انك عجلت الى بيت شعر او فصل تترددت كلماته عدا كيف جاء واتفق ، وابطلت تضاده ونظامه الذي عليه بلى وفيه افرغ المعنى وأجزي . وغيت ترتيبه الذي يخصوصيته ابقادكما كما افاد وينسقه المخصوص ابان المراد : نحو ان تقول في « قفا نيك عن ذكرى حبيب ومزمل » « منزل قفا ذكرى من نيك حنين » اخرجته من كمال البيان الى مجال الهذيان ، وانسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منسجه . بل احلته ان يكون له اضافة الى قائل ونسب يختص بمشكلم . فالمعنى الذي كانت له هذه الكلم بيت شعر ، او فصل خطاب انما هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التاليف مخصوصة . والاختصاص في الترتيب يقع في الالفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس المنظمة فيها على قسبة العقل ولذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة وأقسام الكلام البدئية ، فقليل من هذا ان يسبق ذلك ، ومن حكم ما هيئا ان يقع غيبك . كما قيل في المبتدأ والخبر والمفعول والفعل حتى حطر في جنس من الكلام بعينه ان يقع الا سابقا . وفي آخر ان يوجد الا مبنياً على غيره وبه لاحقاً . ولذلك يقال الاستفهام له صدر الكلام ، والصفة لا تتقدم على الموصوف الا ان تزال عن الوصفية وليس شيء تأخرت فيه علامة معناه الا لعذر مخرج . وواضع الكلام كالمصانع الذي يأخذ قطعاً من الذهب او الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تضيق قطعة واحدة ، ولحام الكلام هو النظم ، والمعاني النحوية هي هندستها الروحانية .

محمد حمزة

الرباط

الشعر الجاهل

رأي
طه حسين
في

للدكتور محمد عبد المنعم صفاحي

كتاب في « الشعر الجاهلي » للدكتور طه :

في عام 1344 هـ / 1926 م كان الدكتور طه حسين رحمه الله عضواً في هيئة التدريس في كلية الآداب بالجامعة المصرية - جامعة فؤاد الأول - ثم جامعة القاهرة فيما بعد - وكان يقوم بتدريس مادة « تاريخ الأدب العربي » .

وفي العام نفسه اختار كتابه الدكتور « في الشعر الجاهلي » الذي طبع في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة في 183 صفحة .

وأثار الكتاب ضجة أدبية وسياسية كبيرة كان لها أثرها الضخم في الحياة الأدبية والفكرية ، ومن غير تلك كان الكتاب أساساً للدراسات الأدبية الحديثة ، بل أننا نعدّه نقطة جديدة في دراسة الأدب العربي . ولقد عزز الكتاب المنهج الحديث الاستشراقي في دراسة الأدب ونقده ، وألغى الباب على مناصرة لثأر كبير في مجال الدراسات الأدبية بالمنهج الجديدة ، وقد صدر في نقد الكتاب كتب كثيرة كان في مقدمتها :

1 - النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي للأستاذ محمد أحمد الفتواوي .

2 - الشباب الراجد للأستاذ محمد لطفي جمعة - صدر عام 1926 ،

3 - نقض كتاب « في الشعر الجاهلي » للشيخ محمد الخطر حسين شيخ الأزهر فيما بعد .

4 - وقد صدر عام 1345 هـ عن المطبعة السلفية في القاهرة .

5 - محاضرات في بيان الأخطاء التي اشتمل عليها كتابه « في الشعر الجاهلي » للشيخ محمد الخطر - نشرت في مجلة القضاء الشرعي .

6 - نقد كتاب « الشعر الجاهلي » لمحمد قزويني وحده بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر - في أكتوبر 1926 .

7 - نقض مطالع في القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة .

8 - الشعر الجاهلي والسرد عليه لمحمد حسين .

9 - مع وعيم الأدب العربي في القرن العشرين ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي .

10 - نظرية الانتحال في التفسير الجاهلي - للدكتور عبد الحميد السوت .

وعرض لنظرية الدكتور طه حسين في انتحال الشعر الجاهلي كثيرون من دارسي الأدب الجاهلي -

وفي مقدمتهم المذكورة : محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي (1) » ، ناظر الدين الأسد في كتابه « مصادر الشعر الجاهلي » ، وشوقي شبيب في كتابه « تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي » - كما عرض لها كتاب كثيرون نشرها بحوثهم في مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية .

ولاشك أن هذه النوجه الضخمة من الكتب التي صدرت في دراسة الكتاب والتعليق عليه وتلخيصه ، كانت اعترافا بأهمية الكتاب وأثره وبمدى ما أثاره من قضايا أدبية تاريخية .

وقد صدر كتاب « في الشعر الجاهلي » وطبع من جديد بعنوان « الأدب الجاهلي » بعد حذف فقرات منه كانت هي السبب الجوهرى في مصادره وهذه الفقرات كانت من قصة ابراهيم واسماعيل - حيث ذهب الدكتور طه الى أنها « قصة متكلفة ومصنوعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية » وراى أن ورودها في الكتب الدينية لا يكفي لإثبات صحتها التاريخية (2) . وكانت هذه الفقرات بمثابة التحدى ، بل كانت مخالفة جريئة في ميدان البحث العلمى أيضا وقد سبق إن جهر بعض المستشرقين بهذا الرأى من قبل ، وذلك من مثل « القرزوفير » الذى ترجم الى العربية كتاب « مقالة في الاسلام » لمؤلفه جرجيس صال - الانكليزى ، والحق به ذىلا ردد فيه (فى ص 10 - 25) القول بأن قصة اسماعيل وسكناء حكة دسيسة لفقها قدماء اليهود للعرب ، تولفا اليهم ، وتذرعا بهم الى دفع الروم عن بيت المقدس او الى تأسيس مملكة لهم فى بلاد العرب . ولما ظهر الرسول محمد رأى المصلحة فى اقرارها فأقرها (3) . . . هكذا قال زويمر وهو مبشر معروف فى الأوساط التبشيرية .

إن كتاب الأدب الجاهلى يمثل كل آراء ونظرية الدكتور طه فى الشعر الجاهلى ، ويحتوى على نظرية الانتحال التى ذهب اليها ، وعرضها بتفصيل ، مبينا ادلائها ونتائجها التطبيقية ، حيث افاض الدكتور فى شرح ذلك كله افاضة واسعة .

شرح الدكتور طه لنظريته فى الانتحال :

يرى الدكتور طه حسين أن الكثرة المطلقة مما يسمى ادبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شيء انما هى متشعبة بعد ظهور الاسلام ، فهى تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ، وما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدا ، لا يمثل شيئا ، ولا يدل على شيء والعصر الجاهلى القريب من الاسلام انما يمثل القرآن ، وتمثله الاساطير (4) وعلى هذا فلا يصح الاستشهاد بهذا الشعر المنحول ففى تفسير القرآن بل يجب العكس (5) . . . والشعر الذى يضاف الى الجاهليين يمثل حياة فاضحة جافة بعيدة عن الدين ، والقرآن يمثل لنا حياة دينية ومقلية قوية مما كان عليه المستقيمون من الغرب ، ويمثل لنا القرآن الكريم أيضا اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة كما يتصور حياة الغرب الاقتصادية من حيث تغلب الشعر الجاهلى من ذلك كله . (6) والأدب الجاهلى أيضا لا يمثل اللغة الجاهلية لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، والمأثور من شعر الشعراء النحطاليين مروي باللغة - العدنانية مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ، ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام . كما حدث بعد الإسلام فبمنا يدل على انتحال هذا الشعر وسواء من قسوى الأدب على هؤلاء النحطاليين (7) . كما أن اختلاف اللهجات العدنانية أمر ثابت لا شك فيه ، ولا نجد أثرها لهذا الاختلاف فى الشعر الجاهلى المأثور ، مما يدل على انتحال هذا الشعر ، وأنه قد حصل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام (8) .

(1) ص 389 - 404 الحياة الادبية فى القصور الجاهلي - طبعة 1948 .

(2) 25 - 29 فى الشعر الجاهلى .

(3) النص عن كتاب « مع زعيم الأدب العربى » ص 25 - 48 .

(4) 64 و 65 و 70 الأدب الجاهلى .

(5) 66 المرجع نفسه .

(6) 70 - 71 الأدب الجاهلى .

(7) 81 - 95 المرجع نفسه .

(8) 96 وما بعدها المرجع نفسه .

ثم يخلص الدكتور طه حسين في كتابه أسباب انتحال الشعر الجاهلي ، فيذكر النزاع الديني والسياسي ، والرقص والقصص والشعرية والرواية في هذا الانتحال (9) . ثم يستعرض الشعراء مؤكدا ما ذهب اليه من ان اكثر ما يضاف الى هؤلاء الشعراء الجاهليين منحول ، رافضا الشعر المنسوب الي شعراء من اليمن ، لان اليمن لغة تخالف لغة قريش ويقول : ان هجرة اليمنيين الى الشمال يشكك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا ، بل الشعر الذي يضاف الى « جرهم » - وسواهم من الذين عاشوا في الشمال - منحول ، وليس لليمن في الجاهلية شعراء . اما ربيعة وهي من عدنان ، وتبطن في الشمال . فشعرها دون شعر المضمرين ، واما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر قدا ، فالشعر اصل في مضر دون اليمن او ربيعة - ففكرية تنقل الشعر في القبائل غير صحيحة . فالشعر انما كان في مضر ثم انتقل الى اقرب القبائل العربية اليها . وهم ربيعة ثم الى القبائل البعيدة كاليمن ، ثم الى الموالي وليس كما يقول علماء العربية من ان الشعر كان في اليمن ، ثم انتقل الى ربيعة ، ثم الى قبس من مضر ، ثم الى تميم ، وشعراء المدينة ليسو يمينيين ، بل هم مضريون . (10)

ان جملة آراء الدكتور طه حسين تتركز على اساس واحد ، هو انتحال الشعر الجاهلي ، وتاكيد هذا الانتحال بأدلة كثيرة ، اهمها : -

1 - ان هذا الشعر المنسوب الى الجاهليين لا يمثل الحياة الجاهلية

2 - وانه لا يمثل اللغة نفسها .

3 - كما انه لا يمثل اللهجات القريية .

(9) 122 - 186 الادب الجاهلي .

(10) راجع 193 - 208 الادب الجاهلي للدكتور طه حسين ،

(11) الاغاني لابن الفرج 172/5 - طبعة الساسي .

(12) المرجع السابق ايضا - وقد سبق الى ذكر ذلك محمد لطفى جمعة في « الشهاب الواحد » ص 25

و 26 - ويذكر د . المسيلوت في كتابه « نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي » ايضا ص 71 و 193

و 194 وينفي رواية ان حمادا جلس في مجلس الخليفة المهدي ، لان هذا الخليفة لم يجلس على

عرش الخلافة الا عام 158 هـ ، بينما توفي حمادا عام 155 هـ في رواية ابن خلكان او عام 156 هـ في رواية

ابن النديم في « الفهرس » وقد ذكر ذلك نقلا عن الخضر حسين في كتابه « تقصص كتاب في الشعر

الجاهلي » ص 271 .

(13) ص 6 من مقدمة كتاب « طبقات الشعراء » بتحقيق الأستاذ محمود شاكر .

هذه هي نظرية الدكتور طه في انتحال الشعر الجاهلي كاملة ، وهي نظرية كان لها دورها الشديد ، وكان لها كذلك طابع الثورة العقلية ، التي استبعد اصولها الدكتور من دراسته في فرنسا ، وعلى ايدى الكثير من المستشرقين ، وقد اعتمدت على ما تعتمد عليه مثل هذه الثورة من ادلة خطافية كثيرة .

نظرية الانتحال قبل الدكتور طه :

وبلا ريب فان لهذه النظرية مقدمات طويلة كانت في مصادر الدكتور طه فيما ذهب اليه حولها : -

1 - فالفضل القبلي (289 هـ) كما يروي ابو الفرج في كتاب الاغاني يذكر عن حماد انه « راجل عالم » بلقات العرب واشعارها وبها ذهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه سديب رجل ، ويدخله في شعرة ويخل ذلك منه في الامام فنخلط الشعر القديم ولا يتميز الصحيح منها الا عنه عالم ناقد ، وابن ذلك (11) .

ويروي ابو الفرج ان حمادا (- 155 هـ) اعترف في مجلس الخليفة المهدي المباسي بأنه زاد في شعر زهير ، وان خلفاء الاخضر (- 181 هـ) وغيرهم اخترعوا من الشعر ما لم يكن موجودا في الجاهلية وكذبوا على الشعراء (12) .

2 - وبعد محمد بن سلام الجعفي البصري (- 231 هـ) من قدامى الذين عرضوا للشعر الجاهلي وانتداله في كتابه « طبقات الشعراء » فقال (13) « وفي الشعر المسموع مخرج كثير ، لا خير فيه ، ولا حجة في غريبته ، ولا ادب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مدح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا نعر معجب ، ولا توبيخ منطرف ، وقد تداوله قوم من كتاب السبي

للانتحال في الشعر الجاهلي وأسبابه عرضاً
تفصيلياً (15) .

6 - وكذلك عرض الدكتور أحمد خفيف في
كتابه « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » الأصول
نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي وأسبابه ،
مستنداً بكلام ابن سلام ، وسائر أفي ضوئه (16) .

7 - ومن آثار البحث فيها من المستشرقين :
« تولدكه » ، و « رينيه بسية » « جيب كليمية
الآداب بجامعة الجزائر سابقاً » في رسالة
له عنوانها « الشعر العربي الجاهلي » - طبع
باريس عام 1880 ، وكذلك نيكلسون في
كتابه تاريخ آداب اللغة العربية (17) .

8 - وذو مرجليوث إلى أن الشعر الجاهلي منحول
كله بعد الإسلام وأضيف إلى أسماء جاهلية ،
(18) ، ويقول : أن في لغة القرآن مثابته
كثيرة من لغة الشعر الجاهلي (19) . كما يرى
أن الشعر الجاهلي في عظمه مصنوع ، وضع
على مثال القرآن (20) . وقد أكد ذلك في مجلة
الجمعية الآسيوية الملكية عام 1916 (21) .
وقد تصدى الرد عليه السير تشارلس جيس
ليال في مقدمة ترجمته « المفضليات للأصم
المفضل الضبي » - 189 هـ المطبوعة عام
1918 ثم عاد مرجليوث وكتب في مجلة الجمعية
الآسيوية الملكية عام 1925 مقالاً ذكر فيه أدلته
على الانتحال الشعر الجاهلي (22) .

فهذه عيسى جملة الآراء التي
فيلت عن انتحال الشعر الجاهلي قيل
أن يصاد الدكتور فلاح حين كتابته « في الشعر
الجاهلي » وينتهي هذه النظرية ويقصدها ،

كتابته ، ثم يأخذوه من أقل البادية ولم يفرضوه
على العلماء « ويذكر ابن سلام أن ما حصل
على طريقة وعيند بن الأبريس من الشعر
كثير (14) . ويرجع سبب الانتحال إلى : غفلة
العلماء أو جهلهم بوضع الشعر وانتحاله ، أو
اختلاط الأمر على بعض الرواة ، أو محاولة
بعض القبائل إلى التزيين من الشعر إذا قيل
في حاتمهم ، أو كذب الرواة وتلفيقهم بقبيلة
في الجوائز ، على أن أبا عبيدة (- 208 هـ) ،
والمفضل (- 189 هـ) والأصمعي (- 216 هـ)
كانوا من ذوي العناية والتدقيق والضبط ،
وكان حماد (- 155 هـ) من موالي بكر ، ولم
يمنعه ذلك من رواية متعلقة عمرو بن كلثوم في
مفاخر قبيلته نعلب ، وكما تعلم فتان نعلب
وتكرأ كتاب في الجاهلية من أشد الأذى بعضهما
لبعض .

ثبت محمد بن سلام إذا الانتحال ، ويرجعه إلى
أسباب مقبولة . ولا يصرح في أمر هذا
الانتحال فيجعله في مواضع خاضة لا يتغناها ،
ومناسبات معينة لا يتجاوزها .

3 - وابن هشام (- 218 هـ) صاحب السيرة يذكر
الكثير من المنحول على حسان وغيره من شعراء
الرسول والسيرة .

4 - وكذلك يذكر ابن الفرج الأصفهاني في كتابه
« الأغانى » الكثير من المنحول على الشعراء
القدماء والمحدثين .

5 - وعرض مصطفى صادق الرافعي في كتابه
« تاريخ آداب العرب » المطبوع عام 1911

(14) من 22 المراجع نفسه .

(15) 265 - 285 تاريخ آداب العرب الرابعي

(16) 50 - 62 مقدمة لدراسة بلاغة العرب لخصيف خد 1921 بالقاهرة .

(17) ص 113 و 128 - 131 - 135 طبعة عام 1914 .

(18) مادة محمد من دائرة معارف الأديان والمقاتل .

(19) كتاب محمد وخامور الإسلام لمرجليوث المطبوع عام 1905 .

(20) راجع ص 352 مصادر الشعر الجاهلي .

(21) ص 397 - راجع ص 17 من كتاب نقش كتاب في الشعر الجاهلي للشيخ الخضر حسين .

(22) 352 مصادر الشعر الجاهلي ، 17 نقش كتاب في الشعر الجاهلي « للخضر حسين » 75 نظريته

الانتحال في الشعر الجاهلي للمسعود .

ويتوضح في ذكر أدلتها في كتابه « الأدب الجاهلي » .

- 4 -

أهم أدلة الدكتور طه حسين على نظريته :

أولاً : لا يمثل الشعر الجاهلي حياة الجاهليين الدينية ، ولا العقلية ، ولا يصور لنا ما كان بينهم وبين غيرهم من الأمم المجاورة لهم من صلات سياسية ولا يصور لنا حياة العرب الاقتصادية (23) .

وقد يكون رأي تولدكة المستشرق المعروف مناقضاً كل المناقضة لرأي الدكتور طه ، حيث ذهب إلى أن السبع الطوال أو البسقات خالية بالأكيد من التزييف أو التزوير فلا يشك في صحتها .

ويؤكد رينان (24) صحة الشعر الجاهلي وثبوت صدقه بلا قيد ولا خسر ، فإن التعليقات وديوان الحماسة وكتاب الأغاني وديوان الجاهليين قد قبلها العلماء ، وسلموا بأنها سابقة في سنها وقيمتها ليغت محمد ، أي أن العلماء أقرروا صحتها شكلاً وموضوعاً ، وأقرروا انعقادها اليها من العهد المتقدم على الإسلام . أما فيما يتعلق بالمعاني فلا يجوز الشك فيها لأن هذه الأشعار تمثل لنا الحياة الجاهلية كما تمثلنا مرآة كاملة وهذه القضايا تتعلق بشخصيات وجوالات حقيقية ولا يوجد ما يبيح لنا أن نفترض - كما افترض شولتزر - أن المسلمين قد إبادوا الأدب الجاهلي بسبب عدوانهم للوثنية ، فإن افتراضاً كهذا يتنافى مع النتيجة الدائمة التي تدل على أن الكتابة لم يشع استعمالها عند العرب إلا قبل محمد بقرن واحد تقريباً ، ويجب علينا أن نفتح درجة أعلى من التصديق والصحة للمقطوعات الشعرية الصغيرة المتبعة في كتب التاريخ والشعر الجاهلي ، فإن هذا هو في الحق أقدم أنواع الشعر العربي ... ثم يقول رينان أيضاً وفي الحق نستدل أن العرب لم يتفروا في الشعر الجاهلي

شيئاً عن قصد ، وإن الاختلافات التي وجدت في النوع الذي لا يمكن اتقاؤه في حالة تداول النصوص بين أفراد الخافطين لها ، دون معونة التقويم بالكتابة . (25)

قال نيكلسون في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ص 131 كان (26) الشعر الجاهلي محفوظاً بالتواتر الشفوي ، وتناقل عن شبر المكان ذلك وأجاب عن هذا السؤال في قوة وتأكد لصحة هذا الشعر .

والحياة الجاهلية في كل صورتها والوائضا لا يمكن أن نجد وثيقة كبيرة تدل عليها إلا الشعر الجاهلي .

يقول « تين » في مقدمة كتاب « تاريخ قصون الأدب عند الإلمير » أن الآداب صورة كاملة صحيحة من الأساطير والزمن الذي يعيشون فيه (27) . ويقول نيكلسون إن آداب اللغة العربية في جامعة أكسفورد سابقاً ومؤلف كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ص 11 - من مقدمة الكتاب المطبوع عام 1914 : « إن الشعر الجاهلي مرآة الحياة العربية » . ويقول أيضاً في ص 26 أن عزابا المصير الجاهلي مرسومة صورها بأمانة ووضوح في الأغاني والأناشيد التي نظمها الشعراء الجاهليون - ويقول كذلك في صفحة 27 : « إن الأدب الجاهلي المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام - الجاهلية - تصويراً أقرب ما يكون من الدقة في مظاهره الكبرى » .

ويقول ثوريك المستشرق الألماني في كتابه « فترة أحد شعراء الجاهلية » (28) لا تلك مصادر موثوقة لها لتدوين تاريخ تلك الفترات البدوية بموت القصائد والمقطوعات المخفوظة عن شعراء الجاهلية .

وقال أيضاً في كتابه ص 79 : « يمكن تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف يزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأكازها » .

(23) 70 - 81 الأدب الجاهلي طه حسين .

(24) 354 و 355 تاريخ اللغات السامية لرينان نقلاً عن ص 302 في كتاب الشباب الراشد .

(25) 362 المرجع السابق .

(26) هذا النص منقول عن كتاب الشباب . الراشد ص 304 .

(27) ص 39 الشباب الراشد - مجلة لطفى جبهة .

(28) راجع ص 14 من الكتاب .

ويقول توليدكه المستشرق البولندي في كتابه
الشعر العربي القديم - الجاهلي - (ص 17 : 29)
ان عادات العرب الجاهليين واحوالهم معلومة لنا بدقة
عن اشعارهم ، وفي الشعر الجاهلي ما يقين القارىء
من اوصاف الحياة والعادات في البادية .

ان الشعر الجاهلي في رايه نحن وبقة خطيرة
لتصور حياة الجاهليين والوان معيشتهم . ونصف
البيئة الجاهلية بما فيها من خيوان ونبات وارثين وحيال
واشجار ووديان وقرى وصفها دقيقا وتعبير تعبيرا
واضحا عن الامطار والرياح والخبز . وهي سجل لتاريخ
الجاهليين واثامهم - واخبارهم . يقول محمد لطفى
جمعة في كتابه « الشهاب الراصد » (30) : « يدل
الشعر الجاهلي » على تفوق نظميه وحياتهم - بل
انه اصدف مثال لحياة العرب أنفسهم .

الشعر الديني الذي يمثل الحياة الدينية عند
الجاهليين كثير ومثبت في مختلف المصادر القديمة .
ويرى جورجى زيدان ان محفوظات العرب الجاهليين في
الناحية الدينية قد ضاعت في اثناء الاجيال لعدم
تدوينها لاستقبالهم عنها بالحماسة والفخر . فلما جاء
الاسلام اقتصى الرواة عنها لانها وثنية والاسلام يحجر
ما قبله .

وفي الشعر الجاهلي دلالات واضحة كثيرة على
اتصال العرب بغيرهم من الأمم وعلى السوان الحياة
الاقتصادية التي كانت تظلمهم ، ولكن هذا الشعر مفرق
في مختلف المصادر ، وليس مجموعا في كتاب واحد .

ثانيا : ما ذكره الدكتور طه بن ثعلب وحسبود
شعراء يمنيين ومن عكته ما ذهب اليه الباحثون
القديما حول نظرية ثقل الشعر في القبائل ... وهو
انما يعتمد في ذلك على أدلة هي تصورات لا ترتفع الى
درجة الحقيقة .

ثالثا : الشعر الجاهلي واللفة :

يستدل الدكتور طه على اتصال الشعر الجاهلي
بانه لا يمثل اللغة العربية فالدكتور يرفض الشعر
المشتوب الى الشعراء من اليمن لان لليمن لغة

تخالف لغة قريش ، ويشك في هجرة اليمنيين الى
الشمال . وليس من المعقول عنده ان يكون كل الشعراء
قد هاجروا من اليمن ، ويقول : انه ليس لليمن قس
الجاهلية شعراء ، وكل ما يضاف الي « جرهم » -
وسواهم منحول . ان العالوم من شعراء الشعراء
القططانيين مروى باللغة العدنانية الفصحى . ومع
انهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخلوها لغة ادبية لهم
قبل الاسلام . مما يدل - في رأي الدكتور - على
اتصال هذا الشعر على القططانيين .

ولا تنس مع وجود قوارق بين الحميرية والعدنانية
انهما لقتان متميزتان . بل لا يزيد الخلاف بينهما على
انه اختلاف ليجات . والقوارق الكبيرة التي يجسمها
بعض العلماء بين الحميرية والعدنانية يمكن حملها
على انها صورة لحياة قديمة جدا قبل عمل غواميل
التهديب اللغوي في الجزيرة العربية . ولي سلمتنا
بيده القوارق الكبيرة بين اللقيتين القططانية
والعدنانية قائم لا يرتب على ذلك وجوب تمثيل
القططانية في شعراء الشعراء القططانيين المروى
شعرهم ، لان القططانيين فرقتان :

سبيون وخميريون . فالسبيون لوخوا من
الجنوب الى الشمال قبل الاسلام بعد سبل العرم ، كما
ؤكد ذلك جميع الوثائق التاريخية ومصادر كتب
اللفة والادب ، ومنهم اللخميون المأذرة ملوك الحيرة
والغساسنة ملوك الشام . والاوز والخزرج سكان
المدينة . وسواهم اما « حمير » فهي التي كانت
بارضها في ظفار وصنعاء وما جاورها . وهي التي قال
فيها ابن عمر بن العلاء (- 124 هـ) : « ما ليمان
« حمير » واقاضي اليمن بلناسا » ولا عريتهم
يعريتنا .

لقد قربت عوامل التهديب اللغوي بين لغات
الجنوب والشمال وجعلت هجرة السبيون الى
الشمال اللغة العدنانية لغة لهم ، وسكان الجنوب على
أية حال انما يرجع أكثرهم الى هجرة شمالية ، فقد
ثبت للباحثين من امثال مولر - وجلاز ان المعيين
اصلهم من عمالة العراق يدو الاراميين الذين كانوا
في اعالي جزيرة العرب قبل الاسلام وقبل ظهور
خزرجي بحيلة قرون ، والدولة الحميرية حكمت

(29) طبع عام 1864 في هانوفر - نقلا عن ص 40 من كتاب الشهاب الراصد لمحمد لطفى جمعة .

(30) 4 الشهاب الراصد .

سنة قرون ونصف قرون « 135 ق م - 525 م »
وعبد ملوكها ثلاثون ملكاً وقد فتح الاحباش اليمن في
عهد الملك الحيمري ذي نواس « 515 - 525 م »
وقد قام الأمير الحيمري سيف بن ذي يزن بتحويل
اليمن بمساعدة القرين .

أما دولة سبأ فهي التي كانت قبل الدولة
الحيمرية وقد عاشت من القرن الثامن قبل الميلاد حتى
أواخر القرن الثاني قبل الميلاد وقبل التفت
خسارة هذه الدولة وسيادتها بفعل عاملين كبيرين :-

الأول : انتقال التجارة الى الطريق البحري
وانقطاع مروزها سبأ .

والثاني : سيل العرم الذي حطم سد مأرب
فأغرق البلاد . وحاجر أهلها عنها ، وتفرقوا في أرجاء
الجزيرة العربية .

وقد كتب هناك عوامل عديدة قرنت على اينة
خسار اللغة السبئية والحيمريين من لغة
العبدانيين ، واستمرت هذه العوامل تسيل عملها الى ما
قبل ظهور الإسلام ، والا فكيف كان يفهم ولاء رسول
الله على اليمن لغة أهل اليمن وكيف فهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم لغة وفد اليمن الذي قدم المدينة
عام الوفود ليسلم بين يدي الرسول صلوات الله
عليه ؟

إن القحطانية والعبدانية في الأصل لغة واحدة .
والخلاف بينهما لا يرتفع عن مستوى كونه خلافا
في اللهجات .

والكار شعر شاعر مثل امرئ القيس - بحجة
أنه يعني وأن لغته تغاير اللغة العبدانية التي روي بها
شعره لا يمثل لنا متطقا تاريخيا يرد على ما نعرف من
الاصول العبدانية لقبائل اليمن ، ومن هجرة قبيلة
كندة الى الشمال ونشأة امرئ القيس في مواطن
بني أسد العبدانيين ، وليس من المعقول أن يكون
ملكاً على المسلمين ويتكلم بلغة غير لغتهم وهو
بين أظهرهم . ويقول سيدي في كتابه المشهور
« خلاصة تاريخ العرب » : كان بين الاسمايلية
- العبدانية - والقحطانية تنافس المعاصرة المؤدى

الى اختلاف الكلمة ثم مالوا الى الوحدة السياسية
ورأوا الأشعار وسيلة لانتشار فخرهم ومسيلا الى
وضول مآثرهم وأعمالهم الى أحفادهم فأحبوها وعكفوا
عليها . لكن كلام شعراء نجد والحجاز لم يفهمه شعراء
اليمن ، بل لم تفهم قبائل بلاد واحد على لغة واحدة .

رابعاً : الشعر الجاهلي واللهجات :

يؤكد الدكتور طه نظريته في اتحال الشعر
الجاهلي بان اختلاف - اللهجات العبدانية امر
ثابت لا شك فيه . ونحن لا نجد اثر هذا الاختلاف
في الشعر الجاهلي القائل ، مما يدل على اتحال هذا
الشعر ، وأنه قد حمل حملاً على هذه القبائل بعد
الإسلام (31) . ويرى أن شعر الشعراء الذين ينسبون
الى زبيدة متحول لأنه لا يمثل لهجاتهم التي كانوا
يتكلمون بها .

وتجدرى على ذلك بان اختلاف اللهجة لا يؤثر
على وزن الشعر وقافيته ، لان اللهجة هي طريق اداء
الكلام الى السامع ويتمثل ذلك في التفعيم والترقيق
والامالة وعديدها ، والجهل والهمس ، مما لا يؤثر في
ذات الحرف ولا يستلزم العدول عنه او عن الكلمة
الى غيرها ، فالجملة الواحدة تستطيع النطق بها
بمختلفة الهيئة مع بقاء حروفها وكلماتها في كل صورة
من صور النطق ، كما في تلاوة القرآن الكريم بالقراءات
المعددة .

على ان المتباين المتناكر من اللهجات قد أزالته
عوامل التهذيب اللغوي العديدة في جزيرة العرب ،
وسيادة لغة قريش ولهجتها قبل الإسلام ، وكان
لمكانة قريش ولتغلها بين القبائل والامم ، ولشهودها
مواسم الحج واستواق العرب وكثيراً من حروبهم ، كان
لكل ذلك اثره في صفاء لهجة قريش وعلوية لغتها ،
وتخيرها من لهجات ولغات غيرها ،
مما جعل لهجتها تسود قبل الإسلام
جميع لهجات القبائل وصارت القبائل المختلفة
وشعراؤها يحاكونها في بلاغتها وقصاحتها وسجعها
لهجتها ، وكانت صلات الحضارة والمحاورة والاختلاط
بين القبائل تغطي على كل خلاف لغوي وتقضي على كل
فرقة لغوية بينها .

إن الاختلاف للبحاث القبائل العربية أمر متكرر به ، ولكن هذا الاختلاف لا أثر له إطلاقاً على الشعر ولا يخرج القبائل عن وظيفتها بأنها ذات لسان واحد ، ولغة واحدة .

- 5 -

وبعد : فإن نظرية الدكتور طه حسين فنى انتحال الشعر الجاهلى تعد من الخصيبات النظرية الأدبية الجديدة ومن أشدها تكاملاً ، ومن اقواها إثارة ، وأكثرها حواراً وجدلاً .

وقد اجتمعت أثرها فى تطور الدراسات الأدبية والنقدية ، وفى التمييز للمناهج الجديدة فى دراسة الأدب ونقده ، وفى قيام حركة حوار رائعة خصية لم تشهد الحركة الأدبية الحديثة والمعاصرة مثيلاً لها من قبل ولا من بعد .

ومعها قيل فى نقد هذه النظرية وفى التعليق عليها ، فإنها بلا ريب تعد جدلاً أدبياً فريداً فنى عصرياً ، وتعد ظاهرة أدبية جديدة جذيرة بالتسجيل

والفهم . وتعد علامة على طريق البحث الأدبى والتجديد فيه ...

وقد كان الدكتور طه رائعا فى أسلوبه وتفكيره وجميعه بين الآراء البنيانية ليؤاقت منتها وحيدة متكاملة . وكان فى آثاره ، وفى جدله وحواره ، وفى نقده وتعليقه شيئا فريداً غريباً .

وكان له من ملكاته ومواهبه وثقافته ومن ذكائه والعبقريته ، ومن ذوقه الأدبى الرفيع ، ما جعله يصعد إلى القمة ، ويسمو إلى الذروة ، ويجلس على أعلى مكان فى صرح الأدب ، حتى القى بعميد الأدب العربى وكان هو فى الشعر الإدىنى والدراسة الأدبية كشوقى يسكن الشعراء ، كل منهما احتل منزلة العبادة ، هذا فى الشعر ، فالرعية ، وذلك فى الشعر فسار أميره .

وعلى جملة فإن طه حسين ونظريته فى انتحال الشعر الجاهلى سيظلان موضع الأثارة والاهتمام على مرور الأيام ، وتوالى العصور ...

القاهرة : د. محمد عبد المنعم خفاجي

- تفاسيل -

تفقد المأمون جنده يوماً ... فرأى أحدهم يسأله عن اسمه فقال :
عمر ، عمر لك الله ، فقال له المأمون : ابن من لا فقال : ابن سعد اسعدك
الله ، فقال ابن من لا فقال : ابن سالم سلمك الله ..

فقال له : أنت تحرس الليلة ، فقال : الله يحرسك يا أمير المؤمنين ،
وهو خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين ، فأمر له بجائزة ثم مضى المأمون
وهو يقول :

إن أخطأ البيهقياء من رضى معك
ومن يرضى نفسك يرضى الله
ومن إذا رضى الزمان صدقك
شمسك فيك شمسك ليجمعك

الزحاور

الأستاذ عبد القادر زمامة

الخيمي . وهو من أبنائ الخالة المقربي ابن رشيد .
ذكر راعته الزينة التي بن جملتها هذا البيت :
يا بارقا يا عاتق الرقيتين يدا
لقد حكيت ولكن فالك الشنب

قال ابن رشيد نبئت ان شيخنا شهاب الدين
ابن الخيمي اتفق له في هذه القصيدة ما يستطرف
حتى صار في اثناء القصيدة « لقد حكيت ولكن فالك
الشنب » مثلا عند المصريين سنائرا وعلى السنتهم
لعنونه دائما ...

616 - في ظلال الحضارة العربية الاندلسية ...!

وجدت في كتاب « الترميز والتقليد في الشعر
العربي » للدكتور عبد الكريم اليافي الأستاذ بجامعة
دمشق ص 31 عن كلامه على الشاعر العبري
الاندلسي : يهودا الجزيري من شعراء القرن الثالث
عشر الميلادي . وكتابه « تحفوني »

« ومن المعلوم ان اللغة العبرية قد بلغت قسما
ظلال الحضارة العربية الاندلسية عصرها الذهبي وذلك
بتضل محاكاة الادياء والشعراء اليهود لنماذج الادب
العربي واوابده ...! »

ويهودا هذا هو الذي اعلن في كتابه الانف . ان
الشعر الجميل اليديع الحافل بالآلي كان مقصورا على

وجدت في مخطوطة كتاب « سلسلة الذهب
المعقود » للمؤرخ ابن ابراهيم الدكالي المشرقي
عندما تكلم على اصل شبيهم الى « مشنواة »
بإياتي :

« قال الفقيه السيد الكبير بن عيسى الكرم
الساوي المراكشي في جواب له : « المشنواني »
نسبة الى « مشنواة » وهي قبيلة من قبائل عرب
ذكالة . كان لها السوكة والصيت العالي بين القبائل .
وكان سكانها بالمدينة التي يقال لها « مشنواة » سميت
بهم من باب تسمية المنزل باسم الخال فيه . ويقال
انها من بنائهم . يتوها في اول الاسلام وتحصنوا بها
حين تضايق البربر مع الفرنج وبين غريب
الاتفاق ما قيل ان هذه المدينة على شكل مدينة
المصطفى على الله عليه وسلم . ولم يبق منها الآن
الا آثار ورسوم الديار بالبلاد القربية . يوسط حقل
بلاد ذكالة . واتصل سكنى قبيلة مشنواة بها الى ان
اندرست غاراتها في القرن السابع في اوائل دولة
بني مرين . وبها مات الواثق المعروف بابن دويش
آخر ملوك الموحدين . ففرضوا في اقتلار الارض
وانتقل اكبرهم الى مدينة مراكش وحضروا بها .
ومازال منهم بها الجع الفقير من اعيانها من العلماء
والصلحاء والاولياء واهل الخير رحمهم الله . . . »

615 - فالك الشنب ...!

وجدت في درة الخيال ج 1 ص 156 من طبعة
الرباط سنة 1934 م اثناء ترجمة الاديب الصوفي ابن

العرب وحدهم !... وإن شعراء العرب يفوقون شعراء العالم قاطبة !... وإن جميع شعر الأمم لا قيمة له في مقابل شعر العرب !...

617 - أم الحسن في ويسلن !...

وجدت في ذرة الحجال لأبي العباس ابن القاضى ج 1 ص 49 من طبعة الرياض هذه القطعة وهي للفقير ابن عرشون يخاطب بها صديقه أبا العباس أحمد بن يحيى العلمي الشافعي

« إذا القلب مئى دهاه شيخى
واجفان غشنى جفاها الوسى

وخمر الغضاقي الغشى لبيت
حشت المطي النى « ويسلن »

فسرحت طرفي وأجريت طرفي
ومست فتاقت وجوه الحزن

كثائب نوره . وكائب طير
أمير الجميع . ذراه سكن

وهذا الخميس . الأزهية
يطعالد يا سليل الحسن

تدر كؤوا للى قروما
بترجيع أولار . أم الحسن

وأم الحسن بلغة المغاربة هي المتدليج
والشحور والابل ... »

618 - المتقانة !...

وجدت في الجزء الثاني حقه الدكتور محمود
مكي من تاريخ ابن حبان (المقتبس) ص 282

« وعمل عباس بن فرانس الآلة المسماة المتقانة
لنفرة الأوقات . فاجعلها ورفعها إلى الأمير محمد
ونقش فيها هذه الأبيات

الا اتبى للدين خير أداة
إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
... الخ ... »

619 - لا يعود إلى صغير !...

وجدت في كتاب (جذوة المقتبس) للحميدى
ص 252 من شعر يحيى بن حكيم النبال هذه
القطعة :

« وخيرها إرفا بين شيخ
كثير المال أو حدث فقير

فقلت : خطا خشف وما إن
أرى من خطوة المستخبر

ولكن إن عرفت فكل شيء
أحب إلى من وجه الكبر

لأن العود يعد الفقير يشري
وهذا لا يعود إلى صغير !...

620 - يحمل خبرته إلى القرن !...

وجدت في الجزء الذي حقه الدكتور محمود
مكي من تاريخ ابن حبان (المقتبس) ص 49

« كان عبدنا بقرطة قاض يعرف بيسرور وكان
من الزهاد . استاذن من خضره من الصوم يوما
في أن يقوم بالحاجة يقضيها فأذتوا له . فقام عنهم تحي
منزلة . ولم يلبث أن خرج وفي يده خيرة ليلة . فذهب
بها إلى القرن . فقال له بعض من زاده :

- أنا اكفيك أيتها القاضي .

فقال له :

- فإذا أثار عزلت عن القضاء
« قرب الله تعالى مني » تراني

أجده كل يوم تكفيني حملها !...
بما أراك تشط لملك !...

بل الذي حملها قبل القضاء ...
يحفظها بعد القضاء !...

621 - القضاء في رأيه !...

وجدت في ترجمة العالم الزاهد سيدي العربي
الفيستاني من كتاب (السلوة) ج 2 ص 228

« وسئل عن تحفة القضاء ، فأجاب :

الذي يظهر لي أنه ضراخ في الرأس ... وسم قاتل في الجوف ... وسلسلة في العنق ... وسنارة في الحلق ... وقد طمت الرءوس المقامد مقدم على جلبه الفضال ... »

622 - بين الحزاق ... وابن ادريس

وجدت في كتابية حقلية رسائل للشيخ الحزاق رحمه الله من جملة رسالة إلى الوزير أبي عبد الله ابن ادريس « ويظهر أنه كتبها أيام مجتبه المعروفة » جاء في أوامها :

« كل ذلك شامل عام على الأبحر في الله العالم العلامة الأديب البليغ الدراكة الثمينة . المذكر المجيد الأفضل . والجامع بين الحقيقة والشرعية الأمثل . ناظم الدر النفيس . أبي عبد الله سيدي عزراي ادريس »

وجاء في آخرها :

« وإن كتب القاء . سأوضح لكم الأمر . انضاحا شافيا إن شاء الله . وقد يلشأ طينكم طيب الله بذكركم الكون . ويسارو فيكم وفي ذريتكم والسلام ... »

623 - الوصل بالرقميتين ...!

وجدت في أوراق كانت في ملك عالم خليل من علماء المغرب ما يأتي :

« الحمد لله : لكتابية سامحة الله :

رايت الفزال يسيل الدموع

باسود من كحل المقطين

فقلت : أصبحت ذاك الكحل

أفاضت سوادا على الوجنتين

أم ذاك بكاء على غريسة

تذكرك الوصل بالرقميتين ... ؟ »

624 - مروج القصار من ...!

وجدت في توافل أبي السفود الفاسي ج 2 ص 101 عند ذكر الأشياء التي فيها الانتفاع دون المنفعة .

« ومن هذا المعنى مروج القصارين التي يفتي وادي ناس . قائما فيها الانتفاع لا المنفعة . فإذا وقع فيها تباع أو عقد قائما ذلك لرفع اليد بسبب الأبيقية على الوجه المذكور . إذ ليس في ذلك ملك رقية ولا منفعة وإنما فيها الانتفاع وقضي السابق . وأما لجانب أو ادخالها في الحبس جور . إذ ليس الحبس إلا ما حبسه عليه أرباب الأملاك . ولا مالك هنا ... »

625 - الأسطوان

وجدت في مخطوطة كتاب « إيراد اللال من انشاء الضوال لابن خاتبة :

« والأسطوان أيضا : المدخل وهو الممر من باب الدار لوسطها يقال بالصيد والسين »

626 - بورائية

وجدت في هذه المخطوطة :

« بورائية : لبعض الأطعمة متبوية إلى بوران بنت الحسن بن سهل . زوج المايون لأنها أول من ابتدعها ... »

627 - بابة

وجدت في هذه المخطوطة

« بابة : معناها غاية تقول : هذه بابة فلان أي غايته . وبابة الشيء أيضا ما يصلح له . تقول : هذا من بابة كذا . أي يصلح له ... »

628 - المنجنونات

وجدت في هذه المخطوطة عند الكلام على الثاغرة « وكل ما يقرق بالدور فهو المنجنونات والواحدة منجنون ومنجنين ... »

629 - هداوة ...!

وجدت في كتابه أحد العلماء بها قوانين تاريخية جاء في بعض أوراقها ما يأتي ملخصا :

« وفي سنة سبع مائة ومائتين والف اتقبل
الى رحمة الله تعالى سيدي المهدي بن محمد بن
سيدي ابراهيم العلوي السجلاني وكان رحمه الله
يعرف عند الناس بسيدي اهدي واليه تشب طائفة
الهداوة وقد ولد بالصحراء ودفن في قبلة بمشي
عروس بجبل العلم قرب فريخ القطيف سيدي عبد
السلام بن مشين وعزيجته معروف مزار عتاله ... »

وجدت في كتاب المملك السهل للفرنسي ص
199 من المظبية الحجزية بقاس سنة 1324 هـ

« ورأيت في تحبير النيابة لأبي عبد الله ابن
الأورث القرطبي ... لو رأى اسطاليس ما حدثه
البراني من السكون مع البرانس . لا قرطبي نفقته
انه لا يحسن شيئا من الطيب ... ! »

قاس : عبد القادر زمامة





مساجد المغرب في روعة المعمارية

للمستاذ عبد العزيز بن عبد الله

وقد خلفه بنو مريم الموحدين قسرى الربوع
الأفريقية فكان الفن المغربي يسمي خاص إذا قورن
بالفن عند بني عبد الواد في تلمسان والخصصيين قسرى
توانس في حين وأصل بنو نصر في غرناطية تغاليد
الفن الأندلسي .

غير أن الطابع العام لم يتغير وكذلك الاختصاص
الفتي الذي انصرف عنه بنو الأحمر إلى زخرفة
القصور في حين تجلى عند المرينيين في إقامة المدن
المحصنة والمساجد والمدارس .

وقد لاحظ ابن مرقوق في مستنده « أن إنشاء
المدارس كان في المغرب غير معروف حتى انتشرت
مدرسة الحفّافيين بمدينة فاس (مدرسة الصقارين)
عام 760 هـ ثم مدرسة العطارين ومدرسة المدينة
البيضاء ثم مدرسة الصنوبريين ثم مدرسة الواديين ثم
مدرسة مصباح .. ثم إنشاء أبو الحسن قسرى كل بلد
من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط
مدرسة « . فقامت عند ذلك مدارس لانواء الطلبة في
تارة ومكناس وبسلا وطنجة وسبتة وانفا وأزمور
وآسفي وإغيمات ومراكش والقصر الكبير والعيصاد
« تلمسان » والجزائر وقد أقام بنو مريم كذلك « من
أسس إلى جزائر بني مزغانة وأول أفريقية محارس
ومناظر إذا ظهرت النيران في أغلاها تتصل العرائلات
بينها في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة » .

ولكن ما هي مميزات الفن المريني ؟ إن الجامع
الكبير في تارة وكذلك مسجد أبي يعقوب المريني قسرى

ولعل أول بؤفة اشتهرت فيها مع الأيام مظاهر
الفن المعماري المشرقين المغربيين من مدينة فاس التي
أقامها المولى إدريس عام 192 هـ بالوضع المنفردة
بجراوة وقد أحاط عبدة الأندلس بسور فتح فاس
جوانبه عدة أبواب وجهر المدينة يخافح للخلفة وهو
جامع الأشباح .

وقد اتجه المرابطون خاصة نحو بنو غندسة
المساجد التي لم يعد يخلو منها ريف ولا زقاق
لا سيما في فاس لما أهتموا ببناء القلاع على غرار
الخصص الأمازيغية مع الاقتباس في آن واحد من
الأندلس . وأول ما تجلى هذا الاقتباس قسرى فاس
حيث استقدم يوسف بن تاشفين من قرطبة جملة من
صناع طوروا مساجد المدينة وسقاياتها وحماماتها
وخاناتها كما استقدم على حسن يوسف المهندسين
الأندلسيين لبناء قنطرة تاشيفت .

ثم جاء الموحدون فاستطاعوا بفضل ما أبدعوه
من روائع تبيؤ المقام انساني في تاريخ الفن الإسلامي
لا سيما في عهد يوسف الذي عاش في أشبيلية حيث
زدها بأروع البنايات والمؤسسات العمومية ثم جاء
ولده يعقوب المنصور فكان أبداع بناء في تاريخ المغرب
الفتي وقد تجلّت هذه البدائع خاصة في أشبيلية
والرباط ومراكش ومناراتها حيرت ألبان وحسان والكتيبة
وأصبحت مراكش بناياتها وقصورها وحدائقها أشبه
ببغداد في الشرق كما اشتهرت مدينة فاس بتمشيق في
روائها الفتي وطبيعتها الخلابة .

الرومانية في فرنسا ، وظهرت آثارها فيما شيده بها
من معابد خلال القرون الوسطى .

نعم يقال ان ذلك الاسماع الفني الاسلامي لم تنعد
آثاره نطاق الجزريات (ريكار) ولكن كم يكون فن
القرون الوسطى المسيحي خافا وبارذا كما يقول الامتداد
ريكار نفسه لو انه خلا من هذه الجزريات ومن روعة
الوانها وجمال خطوطها .

وأول نمطية عربية تركزت اذن
في المغرب هي مملكة تكوير الواقعة بالريف على شاطئ
البحر الأبيض المتوسط وذلك في عصر الوليد الاثوي
بإمارة صالح ابن منصور الحميري (1) .

وقد غزا الاسلام منذ العقود الاولى للفتح قلوب
صنهاجة وشمال قاصية الجيود الى بناء رباط قس
عبد الأمير حميد بن صالح يحتوي على مسجد يرافقه
يتوحي تصميمه الهندسي من جامع الاسكندرية وكان
الاسلوب المعماري يسيطر تبعا للفن الشرقي الاسلامي
الذي كان لا يزال اذ ذاك في فجر انبثاقه فجامع عمرو
بن العاص (عامل مصر) مثلا خلا من كسل زخرفة
وتشويق كالمقريصة والمقريصين الخشبي والمصري
وسائر العناصر المعمارية الدقيقة التي امتاز بها
الفن العربي في العصور التالية .

ومن هذا الطراز مسجد اخبات فيللة الذي اسس
عام 85 هجرية والذي يظهر انه اول مسجد بناه المسلمون
بالمغرب بعد ان حوت المعابد التي بناها المشركون
الى مساجد وجماعات الينابر في مساجد الجماعات (2)
وبدأت افرقيا تتطور روحيا وفنيا على نسق الشرق
الاسلامي .

وقد لاحظ الكاتب الفرنسي جورج مارسي . وهو
من كبار مؤرخي الفن الاسلامي - انه ببلاد اليرير
اصبت منذ القرن السابع الميلادي عبارة عن مرحلة
في الطرق الكبرى التي تصل الهند بجبل البرانس
باسبانيا والتي يطرؤها علاوة على رسل الخلفاء
وسقرائهم ثلة من الحجاج والطلبة والعلماء والتجار
(3) فلا يعبأ والحال هذه ان نستبين آثار عهد

وجدة يحتفظان احيانا بتلك الفخامة التي يتسم بها
الفن الموحدى ولكنهما يضيفان رقة الانكاس ونسج
الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقريصات
والزليجات ويلاحظ في المدرسة الثانية بغاس تمايه
واضح في الهندسة والترسيم مع مدارس الشرق .

وهذه المدرسة هي مدرسة فاسجد قس آن
واحد بجيزة بشارة وعبر للجمعة ومنجاسة ذات
ثلاث عشرة من الطوبس « ليعاد كل ساعة فيها ان
تسقط صنجة في طاس وتفتح طاقات » .

ومن خواص الفن المريني النقش على الخشب
والجص والادمان البديعة والشماسيات الملونة
والنحاس المنقود وترصيع المنارات بالزليج .

اما في عهد السعديين الذي بدأ الفن المعماري
يتحجر فيه شيئا فانه يمتاز (بقصر البديع) الذي
وصفه الافرائي بأنه يفوق بفاد روعة وجمالا وزخرف
هذا التحجر لا يمكن ان يعتبر هذا الفن سوى امتداد
للفن المغربي الاندلسي مع مميزات جديدة حيث ان
المنصور اللجيني استخدم الصناع والمهندسين من
مختلف البلاد وحتى من أوروبا .

ومن الآثار السعدية الباقية بعض مساجد
حراكن (الحواسين والقصبة وباب ذكالة) وقبور
السعديين الرائعة وجناحان في جامع القرويين .

وقد كفل العاويون امتداد هذه التقاليد الفنية
فجهز مولاي رشيد مدينة فاس بالحضون على غرار
بني مرين وأقام مدرسة الشراطين .

أما دراسة المساجد فقد كانت مزيجا من هندسة
الدول الصالفة .

ومن حيث هندسة البناء الدينية يظهر ان الفن
المسيحي لم يترك أثرا يذكر في البلاد حيث ان المغرب
نقل عن المشرق طريقته في الزخرفة التي تزدان بها
مساجده ومختلف مؤسساته الدينية . وهي الطريقة
الاسلامية التي انازت انجذاب مهندسي الكنائس

- (1) صالح بن منصور الحميري افتتح إقليم تكوير من الوليد بن عبد الملك ونزل تميمان وعلي بن يدره
أسلم بزورها من صنهاجة وشمال ، وسعيد بين ادريس هو الذي بنى مدينة تكوير المغرب في ذكره
بلاد افرقيا والمغرب الكبرى الجزائر 1911 م ص 91 - 92
- (2) المغرب لابن عذاري ج 1 ص 37
- (3) مقدمة كتاب الفن الاسلامي .

الإسلام المهدية والمنبعة بواسطة هذه المسالك ومن أبرز عظماء هذا الأشعاع الفني اثنا عشر مساجد وجوامع تسم بطابع عربي أصيل وتوجد خاصة بأفريقيا العناصر الأولية للفن الإسلامي .

ويمكن أن يعتبر مدينة فاس أول مركز عربي تفتق في البلاد المغربية وأصبح بعد ذلك - حسب كوتس - مظهر اعجاز في ميدان التكيف بالطابع الشرقي - ذلك أن الفن اتخذ منافع جديدة منذ العصر الأموي في كل من الشرق الأدنى والمغرب العربي بفضل مرونة جسمية العرب ومداركهم الابتداعية . فهناك عوامل حدثت بالعرب في الأندلس والمغرب وكذلك بعصر إلى الاستيعاب في زخارفهم من تعقيدات الهندسة وهذه العوامل هي إقبالهم للإشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعميقهم في دراسة الرياضيات وسعة مواهبهم وذواتهم .

وقد تبلور هذا الاتجاه مع مرور الأعمار وتهدبت أطرافه ورفقت حوائطه وثبتت معالمه . وكان لفاس أثرها القوي حتى في إفريقيا وبذلك أسس معهد علماء الإسلام بأفريقيا تابعا لمدرسة برايرة الغرب الإسلامي (4) ويرجع فضل هذه النهضة إلى المولى إدريس الثاني الذي أمد حاضرة العالم بأولى مؤسساتها .

وقد أقام المرابطون عددا كبيرا من المؤسسات الدينية في المغرب الأوسط (جوامع جزائر بني مزغنة ونندومة وتلمسان (5) وكذلك في المغرب (مدروسة الصابرين بفاس وجامع ابن تاشفين بمراكش (6) وتدل الحفريات الأثرية الأخيرة على أن في الإمكان تحديد موقع هذا المسجد العتيق في وسط المدينة وقد كتبت مصلحة الفنون الجميلة والآثار الإسلامية التابعة لإدارة التعليم العالي عن قبة مرابطية هي قبة البردعيين قرب جامع ابن يوسف .

أما في فاس فإن جامع القرويين المؤسس عام 245 هـ قد وسعت جنباته في عهد المرابطين على الشكل الذي ما زال عليه إلى الآن كما يتجلى ذلك من الوصف الوارد في القرطاس وزهرة الأس وقد بنى جامع القرويين طبقا لتصميم أصيل فصوحته موازية للقبة على غرار مسجد الشرفاء الذي بناه المولى إدريس بفاس وكذلك جامع ابن طولون بالقاهرة وجانفي بعلبك ودمشق .

والمواد الأساسية للبناء كانت تشكل في القرن الثالث الهجري من الحجر والجص والطوب والطوايى فسور جراوة (7) مثلا بنى بالطوب عام 257 هـ وكذلك بقيادة بأفريقيا عام 294 والبصرة المهدي عام 368 هـ هذا منها استفعل البنائون الجص والمرمر والأجر في جامع القرويين لدى تجديد بنائه عام 252 هـ على يد الأندلسي محمد بن حيدر (8)

وقد أكد المؤرخ المغربي طيراس (9) لدى حديثه عن الفن المرابطي أن علي بن تاشفين قاض والده بكثير في المؤسسات المعمارية مع أن يوسف نفسه كان من كبار البناء والمؤسسين . وقد اندثرت أعلام جميع ما أقامه من قصور ومساجد في مراكش بإسبانيا قبة البردعيين (قرب جامع ابن يوسف) ومسجد التلمسان (عند مئذنته) ومعظم أروقة جامع القرويين الزاخر بروائع الفن الأندلسي المقتبس طبق الأصل من الفن الأندلسي الذي ينطوى عليه في القرن الخامس الهجري من رقة ورشاقة وروعة وخرف ومنع ذلك فإن أسهام المرابطين في الفن كان مهما لا يخاف من تجديده فالفنان لا يمكن أن يستسيغ ويقتبس إلا ما تمكن تقريبا من الكشف عنه (10) ولنا على ذلك دليل قوي في النقود الصايخ الذي ينطو على المرابطون في الأندلس وأفريقيا وذلك في العمل البناء الذي حققوه في هذا الجزء من المغرب الإسلامي وقد

(4) الفن الإسلامي = جورج مارسي ج 2 ص 469

(5) هذا الجامعان الأخيران هما نهاية في السيادة الخلافة وهما خاليان من كل كتابة تتم عن مؤسسيهما غير أن تأنيدهما يرجع في القالب إلى ابن تاشفين (الهندسة المعمارية الإسلامية في المغرب مارسي ص 191) .

(6) ورد في معجم ياقوت (ج 6 ص 384) أن عدد الحمامات 180

(7) تقع جراوة حسب الإدريسي قرب مليلية على مسافة ستة أميال من البحر (مختصر النزاهة ص 54)

(8) وبني استواره ابن الأشعث عام 246 هـ البيان لابن عذاري ج 1 ص 85 .

(9) تاريخ المغرب ج / ص 252

(10) مقدمة كتاب الفن الإسلامي لمارسي .

لاحظ كودار (11) عن حق أن إقامة المرابطين لصروح أكبر أمبراطورية انضمت في العالم حيث امتدت من الأندلس إلى جزر البليار إلى نهر النيل النيجري لدى الفاتح المرابطي عن تفتح مدارك قونية .

وبعد انهيار الدولة المرابطية اعتلى أزليكة العرش زعيم المصامدة الموحدين المهدي بن تومرت المتحدر من الأطلس الكبير ثم خلفه عبد المؤمن بن علي الذي وضع بعض المؤرخين الأجانب بأنه أعظم شخصية بدون منازع طوال العرون الوسطى المغربية .

فأدب الموحدين الذين ركزوا الصرة الأولى وخذة الإسلام السياسية من حدود قشتالة إلى ليبيا قد شاعروا في تأصيل نوع من التوحيد بين عناصر الفن الإسلامي في المغرب (12) .

وقد استمر نفوذ الموحدين أزيد من قرن ، كان لهم في غضونهم اعتنى الأندلسى عن الدولة الأندلسية المتزامنة الأطراف ، فالتصان يعقوب المتصور فسن الأندلس قد أضفى على الفن طابعا خاصا وحقق بتألق مع مدرسة القيروان التجانس الفني بين الشرق والغرب .

وقد احتل الموحدون في تاريخ الفن الإسلامي مكانة مرموقة تفوق ماكان المرابطين في هذا الحقل ، وذلك بالرغم عن معارضة المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسماع والزخارف والنقوش .

وكان ابن يوسف هذا يقطن في اشبيلية التي زخرف معمارها بأبهى وأروع مما زين به حاضرة مراكش ، أما ولده يعقوب المتصور فإن بدائعه الفنية تشهد بأنه ازدهر في العصر الموحدي (13) مثال ذلك المؤسسات المقامة في اشبيلية والرباط ومراكش .

وبفضل الموحدين تجلّى القرن السادس لبعض علماء الآثار كمصر بلغ فيه الفن الأوج في الشرق الغربي من العالم الإسلامي (14) . وقد شرع عبد المؤمن في آن واحد في بناء مسجد تازة والفندسة نفسها وكذلك مسجد تينمل معبد الدولة الموحدية الذي لم يبق منه سوى مقابله ، أما في مراكش فسان كسبه الأولى هدمت وقد تمكنت مصلحة الآثار الإسلامية والفنون الجميلة من الرسم الأول لهيكل المسجد ثم بنى أولاده الكتبة الحالية محاذية للأولى ومتموجة بدقة نحو القبلة ، غير أن جالبا من هيئته البنايات لم يتم إلا في عهد يعقوب المتصور .

وتبدو الهندسة المعمارية الموحدية في أجلى وأجل معالمها في مباحيد مراكش وجنان (المرابط) (ومرصد الخالدة باشيلية) . (15) .

منارة الكتبة :

ففي منارة الكتبة توجد طبقات متوالية من الفرقب المقوسة السقف فضل بينها درج مركزية لا مرقاة لها ، ويلاحظ وجود نفس التصميم في كل من النحر المدوجمان ، فالجدر مطلية بجص أصفر أكس أي ضارب إلى اللون الرمادي ، وما زال هذا التليط جاريا به العمل في مراكش الآن ، ويمكن على ميفحته تموجات ونساء تنسل إلى داخل المنارة من النوافذ المفتوحة في عرض الحائط وتؤدي الدريج آخر المطاف إلى الجزء العلوى من المدينة المغطى بالمدينة وتتمدد النقوش نسطراتها من أشكال الزهر والسقف الجامعة بين القوة والرفعة (16) . أما في الطبقة الأرضية فإن القبة مخروطة الشكل تبعا للأنلوب الإسلامي الأسباني بينما تحوى القاعدة المادسة والأخيرة على أثني قبة ثمانية الاستخدام ذات اضلاع تتكون منها مجموعة هندسية رائعة ولكن لا يلاحظ في مجموعة أجزاء المنارة أي عنصر جديد

(11) في كتابه وصف تاريخ المغرب ج 1 ص 314

(12) مارسى - الفن الإسلامي ص 305 .

(13) مارسى - الفن الإسلامي ج 1 ص 303 .

(14) الهندسة المعمارية الإسلامية في المغرب ص 200

(15) يوسف هو الذي شرع عام 567 هـ في بناء المسجد الأعظم بآشيلية (القرطاس) لابن أبي زرع - طبعة سيل - ج 2 ص 186 .

(16) مجلة هنديريسي التي تصدرها كتبة الآداب بالرباط ، المجلد السادس عام 1926 ، ص 107 .

يمس الأسلوب أو البندام العام الشائع في المغرب اللهم إلا إذا استتبنا ضخامة برج المئذنة وقبعتها والناسق الاصيل في الزخرفة والتنسيق ، وقد أكد كل من طيراس وباسي أن الكتبية أجمل بمقد إقائنة الخلافة الإسلامية في المغرب ، وأنه يعادل في جودة أسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبة والانطباع التي ترسم في نفس الزائر لهذا المسجد هي الزوعدة والتأثير اليلع ذلك أن مساجد الموحدين أكمل وأروع المساجد الإسلامية ، فهي عبارة عن جميلة من الأساطين تتجلى في غصونها جلالة الضحون والأزوقة الضمدة بين الأعمدة والحنايا وصفاء الأقواس فسي رسومها المتناحية والجاس الأخاذ بين العنصر المركزي والضحون الجانبية بأفواسها المقرصة وفيها البديعة وسقوفها الخشبية السامقة تتلأأ في منتهى الصحن الذي تحده عليه أشعة خاتمة - وضوء المصراع الناعية وقبوض المراج المصفرة فسي تضاريس المر ولعمري الفناء بحيث تنشق من هذه المجموعة المعمارية الخلافة عظمة تجمع بين الزوعدة والتعونة ، فتجاسق قرطبة وعم تختل لا يتم بنفس الطابع من التجانس والناسق ومسع ذلك كان غدا كبيرا من رؤوس الأساطين في الكتبية هو أصل اندلستي ، فالأعمدة الأربعة التي تسند قوس المصراع من مختلفات الفن الأموي ، وتوجد أيضا في المسجد الموحدي بقبة مراكش أعمدة أموية عن الضعب وجودها علشمة في قرطبة نفسها ، فجامع الكتبية يشكل نموذجا حيا للأعمدة الموحدية التي يتف عددنا على الأربعمائة والتي مازالت تحتفظ بأصالتها المثجلة في عبقورية الفنان الاندلسي الموحدي ومهارة يسه الصناع وقد اكسب في بناء رؤوس الأعمدة جلالة من الضعب الذي لا ينضب بعينه لم يسبق له نظير في الغرب الإسلامي ، وأن يستمع الزمان بمثله (17) .

أما مثبر الكتبية فقد تحدث عنه ابن خرووق في مسنده (18) فأشار إلى ما أكده أهل الفن من جودة وأتقان ترسيخ شبري جامع قرطبة ومسجد

الكتبية في حين أن المشاركة لأعلم لهم نفس النقش على الخشب برقة وأناقة ، ويرجع تاريخ صنع هذا المثبر إلى عبد المؤمن بن علي (19) .

ويرى كيل من طيراس وباسي (20) أن هذا المثبر هو أجمل مثبر في المغرب الإسلامي بل أبهى وأروع مثبر في العالم الإسلامي أجمع وما زال قائم الذات إلى عصرنا هذا في الكتبية ، إلا أن بعض أجزائه تميل إلى التداغى وقد تغيرت عيلبي في كتابه عن الموحدين (ص 128) التي انصارت الثلاث ، فذكر أن قيمتها لا تركز على ضخامتها وتوازنها فحسب بل أيضا على فخامة هندامها ونسبها الوافية بمقتضيات الأناقة مع بساطة في الزخرفة والنقش وإضافة في اللبوق الذي يطوق بها ويحويها دون مساس بوحدة هذه المخطوعة التي تسرى في فعالها آثار السلطان المؤسس لها حتى الملة والدين وحاضن التقاليد ، بل مدغم الإسلام في دبرع المغرب .

وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران في عهد بني مرين الذين أصبحوا أقوى ملوك إفريقيا الشمالية (21) إذ بالرغم من معنتهم الصحراوى فإن هؤلاء الرجال استطاعوا بفضل اتصالهم المزدوج ببني نصر ورتة الحضارة الاندلسية والموحدين - التكيف والانساق في مجرى الحضارة تبعاً للمقتضيات المدنية مع استمداد من مقتضيات الفكر الإسلامي والمجالي الطريقة في التجديد ، وقد تباور اتجاههم في إقامة المدارس المحصنة والمساجد وفيباب الأضرحة والفنادق المخرنة والمدارس الفخمة التي ألفت إلى المغرب المربى طابعا خاصا من الزوعدة والبهاء .

وقد لاحظ الأستاذ الفريد بيل عن حق أنه خلافا لتقاليد الشرق كان الملوك في طليقة من بني تأسيس المعاهد ، في حين تكفل بذلك الوزراء في المشرق (22) .

- (17) طيراس وباسي - هيريس مجلد 6 - عام 1926 ، ص 107 .
- (18) مقتطفات نشرها ليقى بروكسفال في مجلة هسبريس عام 1925 ، ص 65 .
- (19) الحللى ، طبعة تونس ص 109 .
- (20) هيريس مجلد 6 عام 1926 ، ص 169 .
- (21) راجع تاريخ إفريقيا الشمالية
- (22) الجريدة الأسبوية - الكتابات العربية بقاس عام 1917 و 1918 ج 10 ص 152

وقد اتسمت هذه الحركة المعمارية بتأثير
 ديني في كثير من الأحيان حيث أقيم المربيتون
 مجموعة رائعة من المساجد في تازة ووخدة (23)
 وتلمسان (24) وقد تم ذلك خاصة في عهد أبي الحسن
 بفاس والمتصورة (قرب مينة) وطنجة وسلا
 ومكناس وفراكش : كما أقيمت شعابد حول أضرحة
 الملوك مثل مقابر المرينيين في سالة (بالقرب من
 رباط المجاهدين) هذا الملوك منذ عهد ابن يوسف
 إلى عهد أبي الحسن إلى اختيار هذا الحدث الطاهر)
 وقد أضفى أبو الحسن على هذه الأضرحة السلطانية
 منحة من الزوغة والجلال بتتويجها وزخرفتها
 وإقامة مسجد ثان حولها : وكان هذا الأمر إذ ذاك
 في طليعة رضاء الإسلام بالمغرب حيث توحدت
 أفريقيا الشمالية لأول مرة منذ عهد موسى الموحدي
 تحت راية أمير واحد من فاس إلى المحيط الأطلنطي
 ولطمت الدولة المرينية أوج عظمتها كما بلغت
 حضارتها قمة روعتها وأسس أبو الحسن - كما يقول
 اندري جوليان - أقوى ملك في المغرب خلال القرن
 الرابع عشر (25).

وفي عهد المرينيين أسست زاوية شالة (26) التي
 تعبد فيها الشاعر الوزير ابن الخطيب السلمي والتي
 أضافها أبو الحسن إلى جناح الأضرحة بهذه المدينة
 الأثرية وهي بساحتها الداخلية وصورتها وأزقتها
 وفريقا اتبه بمعبد تجلى فيه نفس المعالم الزخرفية
 المدرسية كالترخيم والتقش والزايج والغشيقاء
 والتبليط المرمرى ، وقد بنى أبو عثمان زاوية
 تلك بسلا التي مازالت بيابا المنحوتة من الحجر
 البديع قائمة إلى الآن مع بقايا غرفها الثلاث حيث كان
 يقطن شيخ الزاوية وطبقها الأول ويخزن يتوسطه

صهرج ويحيط به أحد عشر مراحضا الوضوء
 وتعتبر المدارس المرينية مساكن للطلبة وكرزا
 لدراستهم التي كانت تتألف في المساجد القريبة منها
 وأحيانا كانت المدرسة نفسها تحتوي على مسجد
 صغير بمحارية ومناورة .

وقد رسم التصميم العام لهذه المدرسة
 المقرية منذ القرن الخامس الهجري فهناك صحن
 تقوم في جوانبه الثلاث سلسلة من البيوت - وعلى
 الجانب الرابع قاعة للعبادة ، وتقوم في الطابق الأول
 في بعض الأحيان مجموعات أربع من الشرف تتصرف
 على الصحن الداخلي .

ويمكن أن نعتبر توافر المدارس والمعاهد قسي
 عهد المرينيين بمثابة رد فعل ضد الحركة الدينية
 الموحدية وذلك بإقرار برنامج يندفع إلى نشر آراء
 جبهة أهل السنة الذين نصب بنو مرين أنفسهم
 للدفاع عنهم ، وكان المرينيون متضامنين في ذلك مع
 جميع طبقات الصوفية التي ساندتهم في دعم هذه
 السياسة .

وقد أسست أول مدرسة مرينية عام 670 هـ بأمر
 من أبي يوسف (27) وهي تحتوي على مسجد ومناورة
 وهي المؤسسة الوحيدة التي يراجع تأسيسها إلى
 هذا القرن .

وفي القرن التالي أقيمت مجموعة من المدارس
 منها مدرسة فاس الجديد عام 720 هـ وهي تضم
 أيضا مسجدا وضوفا ومدرسة العطارين ثم مدرسة
 الصهرج الكبرى (ومدرسة السباعيين الصغرى)
 وكانتا متصليتين ثم أخيرا المدرسة المصاحبية (28)

(23) أبو يعقوب هو الذي بني مسجد وخدة عام 696 هـ حسب القرطاس ، وقد لاحظ مؤلف الدخيرة
 السنية (ص 150) أن أبا يوسف هدم وخدة عام 670 هـ

(24) راجع مقتطفات المسند لابن مرزوق - فاس هبرس ج 5 ص 32 عام 1925 حيث لاحظ ابن مرزوق
 أن الرحالين مجمعون على اعتبار هذا المسجد كجامع هو الأول من نوعه ، وقد أسس أبو الحسن
 آخر في مدرسة هين التي اندرست معالمها منذ قرون .

(25) تاريخ أفريقيا الشمالية (1931) ص 446 .

(26) توجد لفظة الزاوية مكتوبة على الرخامة المرمرية وعلى خرفه عشر عليه عام 1930 - خلال
 الحفريات (الهندسة المعمارية الإسلامية ص 283) .

(27) راجع المسند لابن مرزوق (مقتطفات ليفي برونسفال - همبرس ج 5 ص 35 عام 1925) .

(28) نص ابن مرزوق على أنها من بناء أبي سعيد في حين أن الكتابيب الموجودة بها تدل على أن مؤسسها هو
 أبو الحسن (راجع الاستقصا ج 2 ص 87 وكتابات فاس لألفريد بل ص 229) .

هذه المدارس الثلاث الأخيرة بنيت بأمر من أبي الحسن الذي روى بالمدارس كبريات مدن المغرب الأقصى والأوسط (تازة ومكناس وسلا وفاس وسبتة وإفيا وأزمور وآسفي وأغفالت وفراكش والقصر الكبير والعباد بلمسان وعاصمة الجزائر) . أما ولده أبو عثمان فإنه أسس المدرستين الخاضعتين لاسمته بفاس وسكناس .

ويلاحظ أن هذه المدارس كانت تشمل أول الأمر على مشاركة وتبجلي كمسجد علاوة على عيتمها كباوي العلوية وكان تصميمها مزدوج المعالم عبارة في آن واحد عن مسجد مدرسي (كالقرويين) وعن جناح سكني ثم تبلورت في التصميم بعد ذلك مظاهر المدرسة فالعت الصوسعة ، مثل مدرسة الصهرج ثم تقلصت مساحة المسجد الذي أصبح لإسكان قاعة كبرى للصلاة دون زخرفة خارجية وحسين المحراب صار يقام رخصيا في شكل فوس اسم محاط بإسطواناتين دقيقتين .

وقد استمر هذا الاتجاه فانسقط المحراب تماما بعد بضع سنوات من المدرسة المضاجية إلا أن مدرسة العطارين وهي آخر مدرسة بناها أبو سعيد تحتوي على محراب ولعل ذلك راجع لضرورة تبرير مزيد الزخرفة والتفصيل (29) بمظهر ديني خاص ، كما أن مدرسة سلا احتفظت بمسجدها ومحرابها نظرا لصفتها الاستثنائية كمركز ضوئي لا يحتوي على أي غرفة سكني الطلبة . ومدرسة أبي عثمان في مكناس تمثل مرحلة انتقالية بين نوعين من المدارس يرجع عباها لأبي الحسن وولده أبي عثمان مسجد مربع وأروقة في الجوانب الثلاثة من الصحن (أما المدرسة العتانة بفاس فهي تسم ببيكلها الضخم وروعها الإخاذة لجامع مزود بمئذنة ومئذنة لخطبة الجصنة .

الجامع الكبير بالرباط :

ولنشرط مثلا للفن المغربي الرائع ببعض الآثار التي مارالت قائمة برابط الفتح ومنها : الجامع

الكبير « الواقع قرب باب شالة الذي تحده في الجنوب الشرقي مقبرة إلى السور الأندلسي وقد كتب على إحدى أبوابه تاريخ 1299 هـ (1882 م) وهو تاريخ تجديد البناء في عهد الحسن الأول ، كما أن لوحة التحسيس المرينية وهي صفيحة مزينة من الرخام مغروزة في إحدى الأساطين المحيطة بكنان العترة هي نفسها التي كانت على ضريح السلطان أبي الحسن بشالة ، ونقلت إلى المسجد في عهد مولاي يزيد العاوي إلا أنها لا تشير إلى الجامع الكبير ، كما يوجد بالمراستان العزيري قبائله . ويكون إحدى أدخلها على المسجد جلالة الملك المقدس المرحوم محمد الخامس ، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ إنشاء هذا المسجد فأكد مؤرخ سلا محمد بن علي الدكالي أنه من مؤسسات الأندلسيين الذين وردوا على المغرب في عهد السعديين أي في القرن الحادي عشر مستندا إلى ما استنتجه من كتاب « وصف إفريقيا » للحسن الوزان من عدم وجود أي أثر لبناء بالرباط في قصوره أي في القرن العاشر إلا أن مؤرخ الرباط محمد بوجندار (30) يرجح أن المسجد ضمن مائزر المرينيين ونقل ذلك بوجود المراستان العزيري قبائله . ويكون إحدى الأبواب قد دمت في عهد السلطان العزيري أبي الربيع وهي وجهة نظر جديدة وأن كانت التعديلات اللاحقة قد غيرت معالم الأصل ويبلغ عرض المسجد على طول جدار القبلة 47.5 م ويتركب من واحد على مرقه بأدراج مقصورة الإمام إلا أن شكله الهندسي غير مربع نظرا لعدم تساوي أضلاعه أما مساحته البالغة نحو 1800 م . م فإنها تجعل منه أعظم مسجد بالرباط بعد « جامع السنة » وهو يحتوي على ساحة صحن موزاة للقبلة وعشرة عمودية ، أما الساحة فشكلها مربع محراب مرقه أكبر من طوله تحيط به ثلاثة أبواب أقيمت في أحدها مقصورة النساء وبالجانب الشمالي الغربي المئذنة ، والمسجد مئة أبواب وعلى طول جدار القبلة عدة مرافق تحل بفرع المكتبة العامة بالرباط - يفصل اليوم المسجد عن المقبرة - وهذه المرافق هي صندوق المئذنة ومقصورة الإمام وجامع الجنائز ، أما الأقواس فإنها ذات أشكال وأحجام مختلفة إلا أن الجنائز التي يستند إليها الرواق أمام المحراب تلفت

(29) هذه المدرسة هي أبي وأروع مدرسة من حيث الزخرفة حتى في نظر العنايين الأجانب الهندسة المعمارية الإسلامية في المغرب ص 288 .

(30) الاقتباط من 114 : مخطوط المكتبة العامة بالرباط (عدد 1287) ،

الانظار من زواياها الخاصة اذ هي عبارة عن جنايا مفصصة قد تحتت فيها قوسيات تصل الى ثلاثة عشر متشابهة عدا قوسى الانطلاق وقوسى الانفتاح ، اما الاقواس الاخرى فمعظمها جنايا مكسورة وحدوية (على شكل جلدوة الفرس اى نعل) او مشرعة (اى ان سهمها اكبر من نصف الانفتاح) كما ان معظم السلوح ذات الجدار المزودج فى شكل برشلات او خيلوثينات دون قرميد ولا تمشيق ، اما المحراب فان قوسى انفتاحه حدودى الشكل كتعل الفرس الحديدى متقارب المركزين غير بارز الكمر يستند الى عقدتين عاليتين ، وقد ازدوج بقوس آخر خارج عن المركز فى جوف قد نجحت نقوش رائعة فى حبه اللامع وعلته قبة متمثلة بتغدد اليها النور من ثغرة مشماتها مع المجموع .

اما الضويفة فانها مربعة الشكل تبلغ اضلاعها 10 و 5 م وقد زيد فى ارتفاعها عام 1939 فبلغت من العلو 15 و 33 م بينما لم تكن تصل من قبل الى اكثر من 27 م ، وتحتوى الضويفة على ست غرف مربعة الواحدة فوق الاخرى تغلبا اقية متتالية الروافد تؤدى احداها الى مخدع الوقت الواقع فوق المجرية (اى العلبة) وهي من مصطلحات المقرب الاقصى (31) ويتخذ الضوء الذى دورات الدوج من ثقافته واسعة مقوسة وملتوية فى انحاء مستقيم ويسم المجموع بطابع البساطة الذى يريده روعة . اما ملحقات الجامع الكبير فانها لا تتنازل بأهمية خاصة فالى جانب منبر ضيق يؤدى الى جامع الجنايز على طول جدار القبلة توجد مقصورة الامام وهي تضم غرفتين تتصل احدهما بمسودع المنبر .

واذا استثنينا التحنن على الحجر فى خصوص الابواب فان النقش على الجبس يتوافر فى المحراب وفى الوجه الداخلى للباب الكبيرى وفوق الجنايا المفصصة امام المحراب مع رسوم زهرية متكافئة تحيط بها خطوط هندسية وانضاد متراكبة . من الوردات بين الاقواس دون انضاع مع خالة القروش الخشبية ، وتبرز فى مواضع اخرى سقايك «موردة» او كتابات بالخط النسخى ، اما المنبر فهو من صنع علوى عادى برسوم الخشبية المنحوتة على لوحات « ماطورة » : تلك جيرة عن الجامع الكبير كما هو الآن واليابان الشارعتان الى زققة باب شالة قد اضيفتا كمتمم خاص الى رواق النساء وكذلك الباب

المؤدية الى زاوية سيدى الملمسان والسقايتان القوارتان فى البهو الحديد شمالى غربى الصحن . ومن الزوائد الطريقة فى المسجد نقوش المحراب ورواق الجنايز وترخيمات بعض الحنايا بما حفظ للجامع هيكله العام دون كبير تعديل ، ويظهر ان الجامع لم يكن فيه اكثر من خمسة محون طويلة مركزية بسبل جشرة بجانب الصحن السبعة الموجودة الآن ، وكانت المساكن تحنن به من جهتين وهذا التخطيط متناسق الاجزاء بالنسبة للتصميم الحالى الذى يخلو لوها ما من التوازن والانتظام اضاف الى ذلك ما كانت تمتص به الحنايا المفصصة والمكسورة والحدوية من تنوع ويذكرنا الهندام المعماري فى الجامع الكبير بالمساجد المربوية فى تلمسان وخاصة فى مدينته « العباد » حيث يمدن الى مدين القوت فعدد الصحنون الطويلة واحد قهبا مع ثمانية محون موازية للقبلة هناك بدل سبعة بالرباط ومن مظاهر الفتافة فى الجامع الكبير ضخامة الاقواس المفصصة امام المحراب وهي من خواص المساجد المرابطية والموحدية بكيفية عامة مع وجودها احيانا فى عهد المرينيين كما هو الحال فى جامع قاسم الجديد .

ولم يعد المهندسين المعماري يستعمل حننا النوع من الترخيمات فى العصر العلوى وحتى بالنسبة لنقوش الحنايا يمكن التقليل بين المشبكات الهندية فى الجامع الكبير ومثيلاتها فى غير المدرسة العنانية يقابن وباب العنانية ايضا بمكانس ومع ذلك فان جامع الرباط لا يوحى فى مجموعته بلقاس الالتزامات التى يشتمل بها الزاوي لمدارس قاسم ومساجد تلمسان المرينية التى تمتاز بمدة طواخر جزئية كيقظ الاشكال الصنوبرية (على شكل ثمرة الصوبر) او الزهيرات (اى زخارف يورية الشكل) تلك معالم تشهد بان الجامع الكبير يرجع تاريخه الى العهد المريني وذلك بالإضافة الى بعض الخصوص التاريخية التى تغزو هذه النظرية لاسيما وان مؤرخي الموزين مثل الضعيف والزباني والناصري لم يدسجوا هذا المسجد فى لائحة المساجد العلوية وربما كانت المجموعة المركبة من المسجد والسقاية والمارستان العزى هي نفس ذلك الثلاث المملوكة فى جميع المساجد مع اعتبار ان هذا المارستان كان مدرسة كما يدل عليه شكله ،

(31) لاشك ان هذه التسمية ترجع تكون مصر هي التي عرفت فى العالم الاسلامى بكثرة طبقات دورها وقد ذكر المقرئى فى خطه ج 1 ص 334 و 341 ان مساكن القضاة كانت من سبع طبقات .

وهنا يجب ان نسأل - كما فعل الاستاذ كايسي (في 199) - عن تاريخ التبدلات والاتصالات الفارقة على الجامع الكبير ويمكن ان نقارن بين هذه وبين المظاهر المعمارية في جامع مولاي سليمان بالرباط . وقد استعنه السلطان العاوي سليمان بن محمد بن عبد الله ، فالبينارتان متساويتان في الاصلاع والقرينات الداخلية والنسق الفني واحد في السطوح والجزات الجدارية التي لتصب منها مياه المطر بدل العيازب وذلك علاوة على تشابه بعض الزوايا ولتعم هذا الشبه الواضح ما اشار اليه محمد الضعيف من ان السلطان مولاي سليمان وجه من طلبة احد اغوايه لمخاطبة المعلم الحسن البودالي فيما يجب انجازه من اعمال في جامع الرباط (32) وهكذا يمكن التاكيد بان الزينات العلوية في هذا الجامع يرجع الفضل فيها الى الملك الصالح المولي سليمان الذي قام بهذه المبادرة المثلى فوسع المسجد وجرده سطوحه .

تلك هي المظاهر الجوهرية التي يمكن ان نستخلص منها صورة عن الفن المغربي الذي بدأت تبادر فيه مجالي الازدواج بين الطائفتين الاندلسية والمغربية في شكل جديد سمى بالفن الاندلسي الموريسكي .

وبالرغم من التأثيرات الاندلسية التي وسميت هذا الفن فانه استطاع بسطه خاصية اذ عوضا عما كان يذكي المهندسين الاندلسيين من رغبة في تحقيق التوازن بين القوى في المثلثات المصيرية هتاف المهندسين المغاربة الى ضمان متانة الهيكل بالإضافة الى ما كان يتعز به من حاجة الى مزيد من الزخرفة والتنميق وهذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع الفنون الاسلامي من تخطيطات نباتية ومقرصات وتلوينات علاوة على زواعة الهندام ورفقا بها يتسم به هذا الفن المعماري الذي بلغ في العصر المغربي اوج عبقريته من ايقال في التزيين والتشطير والنقش مسج قلة

توازن بين الاجزاء وعدم جودة المواد فان المجموع ظل - كما يصفه المؤرخ اندري جوليان - واضح المعالم متوازي السب تتجاس تقوته تجاسا راعا ضمن الخير الذي يملأه وهذا بالاتساق الى ما انطوت عليه الألوان من دقة وجناس كالمين (33) وقد اشيع الفن المغربي شرقا وغربا بثروته التي لا تضاهي وزوعته الطريفة الاصلية فكان فشا اندلسيا مغربا تناسق عناصره في القوتين .

وهذا التناسق الفني يرجع الفضل فيه الى نشاط المهندسين الاندلسي الذي كان تأثيره ملحوظا في مجموع الفنون المغربية (34) .

وكان للفنانين والمنتجين المغربية صيت رائع وحظوة لا يأس بها حتى في الشرق غير ان درجعة التضييع الذي بلغها هذا الفن كانت تنطوي على عناصر الفخار فقد استغله كثيرا من قواه منذ عهد ابن الحسن وخال قيام الفتن دون تحقيق اعمال عمرانية كبرى بعد ذلك

واذا كان الفن قد استطاع الصمود في نهاية العهد المغربي فما ذلك الا بفضل العناصر الاندلسية التي هاجرت الى المغرب . بحيث اصبحت المغربية منذ عهد البوطاسيين غالة في كثير من الفنون والحرف على الاندلس (35) ومع ذلك فان الفن المغربي الذي نشطت مقوماته العمرانية ظل محتفظا بجودته النادرة رغمنا عن اتعدام الفخامة في مجاله ذلك ان وفرة الزخرفة وبراغا وروعيتها انتظمت في اطار من الوضوح والدقة لا عيار عليه وكان المجهود الفني الذي بذلته المزيّنون تقلص - كما يقول طيراس - في الوقت الذي ابرز قوتهم العسكرية .

اتخذ مدخل السعديين صورة تورية ضد عجز البوطاسيين عن ايقاف الحملة المسيحية . وهبوط الاسبان لغزو المغرب بعد سقوط المعقل العربية في

(32) تاريخ الرباط: الضعيف ص 531 .

(33) تاريخ افريقيا الشمالية ص 456 .

(34) كان ذلك منذ العراطين وقد لاحظ الناصري قلا عن صاحب الحذوة ان المهندس الاندلسي محمد ابن علي هو الذي رسم تصميم دار الصناعة البحرية بسلا واستعمل الاساليب المعروفة بالاندلس الاستقصا ج 2 ص 11 كما ان نقل مياه وادي فاس لتزويد قصر يوسف بن يعقوب كان على يد مهندس انبلي اختصاصي في علم الحيل هو محمد بن الحاج .

(35) كزدار ج 2 ص 461 .

الاندلس وقد تم احتلال سبتة عام 818 هـ فثاروا ثورة الأمة المغربية وطاف دعاة الجهاد في القبائل يحتون الناس على مقاومة المغير. وقد تركزت هذه الحركة التحريرية حول مراكز اقليمية للتجمع وهي الزوايا والسمل الشرفاء السعديون الموقف فتزعموا هذه الثورة الشعبية ونصبوا الفهم قوادا للثورة .

وقد عرفت السعديون كيف يوجهون هذا الجماس الشعبي الرائع الذي كان يعززه العلماء والصوفية فأخرجوا العدو من أكادير وآسفي وأزمور وأصبيلا والقصر الصغير وكلت سلسلة الانتصارات هذه بفريضة شعاع عني بها البرتغاليون في معركة وادي المخازن التي فقدت البرتغال بعدها استقلالها السياسي طوال اثنين وستين سنة واندرج المغرب بفضل انتصاره الغد في صف الدول العظمى تخطى هذه بلاطات أوروبا وتسمى في الخطورة بمسوته .

ومن المؤسسات الدينية السعدية مسجد بناب ذكالة الذي يتنه معبودة المركزية والدة المنظور ويتناسق في هذا المسجد الاسلوب المريني (العسكن المزيغ) مع بعض معالم الفن الموحدى مثل هندام القباب وبعد ذلك يخمس سلوات أمين جامع الموالين بمرافقه من قاعة الضوء والحمام والمدرسة والكتاب (أى المبد) والسقاية ومورد المياه المخصص للحيوانات وتم هذه المظاهر الجزئية عن استمرار تقاليد العصور السابقة في الخلل العيبارى .

أما في جامع القرويين بقاس فإن المتعدين بتوا قنين في الصحن توسط كليهما حصة مربعة تشبه بما يوجد في ساحة الاسود بالاندلس

وقد اسهم السعديون في بناء مبدؤس ضقري مضافة الى المساجد او الزوايا حيث توجد مثلا قننى مراكز عاصمة السعديين اعظم مدرسة بالمغرب (36) يرجع فضل تجديد بنائها الى الامير مولاي عبد الله وهي مدرسة ابن يوسف التي تتعد اسمها من الجامع المجاور لها وقد بناها ابو الحسن المريني (37) وكانت اهم مأوى لطلبة جامعة ابن يوسف حيث تحتوى على نحو المائة غرفة .

(36) الهندسة المعمارية الاسلامية ص 392 .

(37) الاستقصا تلاقح ترعة البقري ج 2 ص 56 .

(38) تاريخ المغرب ج 2 ص 234 .

(39) تاريخ المغرب ، كواسك دوشافر وبيسر ، الفصل الخاص بالسعديين .

وقد لاحظ طبراس (38) انه بالرغم عن الجهود التي بذلها كبار امراء السعديين فانهم لم يسهموا في انبعاث الحضارة الاسلامية بالمغرب « ذلك ان المدينة والفن كانا متجهين نحو الناضى فلم تستطع بعض التأثيرات الاجنبية تعديل الاصول القديمة ولا تركيز بدور الاختلاق الجديد » فالفهم المغربي اذن هو حسب طبراس « فن حالى عن كل غنى تكتنفه وواسع الناضى » غير ان صلات عابرة وغير مباشرة بالفنون الاسلامية الشرقية تحققت من جديد بفضل ماكان للسعديين من علاقة بالأتراك ولعل بعض هذه الآثار تتجلى في فن الطرز والنسيج والتجليد والتذهيب وكذلك في بعض ازياء الرجال لاسيما منها العسكرية نظرا لآثار امراء سعلريين مثل عبد المالك الذي عاش في تركيا ببعض مجالى الحياة لى هذه البلاد .

وبينما يكن فان الفن المغربي الذي استند قواه اصبح يزج تحت عناصر قوية في النقش والزخرفة والتنميق فقدت بساطتها من جهة ولكنها ازدادت تحفظة ورواء من جهة اخرى (39) .

العاويون شرفاء حثيون انحدروا الى المغرب من الجزيرة العربية وأول من دخل منهم الى فافيلالت مولاي حسن بن قاسم اواخر المائة السابقة وقد قام محمد بن الشريف في سبلمائة عام 1045 هـ بقبائمه الناس نظرا لمزهادته وتقواه وواصل كفاحه ضد بعض الاقاليم المستقلة وضد ام استتب الامير للعلويين ففى عهد مولاي الرشيد بدأ هذا الامير يهتم بتجديد معالم الفن المريني والسعدى بتعزيز الاجهزة العسكرية ومتابعة بناء المعاهد والمدارس والمساجد .

وفى مكاس التي اختارها مولاي اسماعيل عاصمة اقام قصورا فخمة داخل القصبة نفسها منها مدينة الرباط التي لم يبق منها سوى باب الخميس .

وقد وصفه الناصرى قصور مكناسة ومساجدها ومدارسها بأنها « فوق المجهود بحيث تعجز عنه الدول » كما ذكر الزياتي انه ما شاهد في آثار الدول

اعظم من آثار هذا الأمير (40) ولا يخفى ما في ذلك من
إقبال بالرغم مما اتم عنه بعض الآثار الباقية من روعة
الاصل (41).

مسجد العودة :

ومن المساجد التي يرجع تاريخها إلى العهد
العلوي مسجد لالة عودة الواقع داخل القصر الملكي
بمكناس وقد فتحت بالقرب من المخراب باب متصل
بممر يستعمل يؤدي إلى القصر الملكي ومن هذه
البوابة كان السلطان يدخل بعد أداء فروضه إلى
الستينية التي تقطنها الآن أسرة مولاي عبد الرحمن ابن
زيدان مؤرخ الدولة العلوية وتقيها سابقا وتقوم بخوان
هذا المسجد مدرسة ومراحض جددت الأوقاف
سماها بميد الاستقلال .

وتدين العاصمة الإسماعيلية لمولاي محمد بن عبد
الله بأعظم جوامعها وهو جامع الروي الذي أكسده
بارسي أن مظامير روعته وجماله تتجلى في تلاميذ
صحنه وتناحته وبتمشقه الذي حولت فيه
العناصر التقليدية بروح اجبية عن الفن الإسلامي
وبانعدام أي تمشى ويتناسق أجزاء الصحن الخارجي
الذي لا يحيط به أي رواق ثم وضعية الأبواب
وتوزيعها الخاص المتأبين للمقهود في خروج المساجد
المقرية مما يدل في نظر المؤرخ الفرنسي على
استعانة السلطان بمهندس أوروبي التخطيط بهذه
البنية .

وفي فاس الجديد يوجد المسجد الذي يشاء
مولاي عبد الله نجل المولى اسماعيل أما مسجد باب
الكنيسة (باب عجيبة من أبواب فاس البالي) فهو
حديث العهد وقد أدخلت عليه اصلاحات في السنوات
الاخيرة .

وتشمل جميع هذه المساجد العلوية على صحن
— قليلة العدد — تخرق المسجد على نسق ما عوهد في

فاس منذ ازيد من احد عشر قرنا باستثناء الفترة
الفرنية . أما في الرباط فان جامع الستة الواقع
خارج مشور تواركة من بناء سيدي محمد ابن عبد الله
الذي اوصل الناصري إلى نحو السبعين عدد منجراته
المعمارية ما بين مئشأ ومجدد في كثير من مدن
المغرب علاوة على الصقائل والابراج والحمامات
والاسواق والأضرحة والمدن أنفا وفصالة
والمتصورية والصويرة (42) .

جامع الستة :

وقد تجدد جامع الستة أواخر القرن الماضي
ثم في الستين الأخيرة وكان يحتوي على ساحة تحتل
المقام الأول — مع ساحة صحن الجامع الأكبر يسلا —
بين مساجد الميزاب وتقوم في جانبها الموازي للقلعة
بيت عشرة فرقة كان يسكنها الطلبة الاقريقيون ونسبه
هذا المسجد في معالمه المعمارية الخاصة مسجد لالة
عودة بمكناس وقد تجدد بناؤه فأصبح أزوع المساجد
وأبناها في المغرب .

وكانت مدينة الرباط تضم بين جنباتها ازيد من
خمس مئسجدا وزاوية في أوائل هذا القرن ،
وقد أسس معظمها في العهد العلوي أهمها جامع
الستة وجامع أهل فاس وجامع أهل تنوس وجامع
أهل مراكس وكلها من بناء السلطان الأمجد محمد بن
عبد الله علاوة على ستة مساجد أخرى تهدمت مع
ما تهدم في اكدال (43) ومنتمرض على التوالي
المظاهر المصغرة في ثلاثة من هذه المساجد هي
جامع الستة وجامع أهل فاس وجامع ملين .

أما جامع الستة فقد اقيم بالجامع الغربي الشمالي
الخارجي لمشور تواركة قرب ايسى مولاي يوسف
وقد اكده المصنف ان بناءه تم في جمادى 1199 هـ
(مارس 1785 م) على يد الملك الهمام محمد بن عبد
الله الذي اتفق عليه أموالا طائلة ، ويظهر انه ظل منذ

(40) الاستقصا ج 4 ص 48 — 49 .

(41) في عام 1145 هـ أمر السلطان مولاي عبد الله ببناء مدينة الرياض (الزياتي — الترجمان المغرب)
دول المشرق والمغرب) ترجمة هوداس 71 .

(42) الاستقصا ج 4 ص 121 .

(43) كما ورد في الاستقصا وفي البستان لأبي القاسم الزياتي (ص 173 من مخطوط مكتبة ابن
زيدان) وفي تاريخ الرباط للضيف .

تأسست نحواً من عشرين سنة خالياً لهذه عن المدينة وقلة السكان حوله مما حدا بالسلطان مولاي سليمان الى نقل إختيار سطوحه لتسقيف جامع علي ابن يوسف الذي انجبت آثاره الآن ببراكنش (44) وكان بجانب المدرسة التي تحمل نفس الاسم . وقد بنى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بتجديد بناء جامع السنة الذي أصبحت الصلوات الخمس تقام فيه بانتظام مع خيلب الجمعة وذلك بعدما باذر النبي زيادة تفضير حي تواركة بعبدة البخاري وأهل تنوس ثم إقامة دار المخزن والمتون السعيد ولم تزد الترميمات الجديدة على دعم فخون الصلاة برواقه خارجية دون تعديل التخطيط الأصلي للجامع مع إضافة جناح وباب جديد خلف المقصورة وربما أيضاً دار للوضوء قرب المتونفة ومخضع مستطيل وراء المحراب يرجع تاريخه الى عهد السلطان مولاي عبد العزيز (1325 - 1907) . وأول ما يده الزائر للجامع السنة مساحته المسماة وتناسق اجزائه وبساطته . وإذا اعتبرنا تخطيطه الأصلي فإن المساحة تكون عبارة عن مربع كامل (74.70 م في 74.50 م) أي 5565 متر مربع ، وهذا الجامع من أكبر مساجد المغرب ولا يوقه في المساحة هذا جامع حسان (25.523 متر مربع) وجامع القرويين (6300 متر مربع) بينما يزيد مساحته على مساحة جامع القبة ببراكنش (5512 متر مربع) وجامع الروي بمكناس (حوالي 4.930 متر مربع) وجامع الأندلس بفاس (نحو 4760 متر مربع) ، والجامع الكبير تازا (3000 متر مربع) والجامع الكبير بالرباط (نحو 2000 متر مربع) وإذا كان شكله المربع عادياً بالنسبة للمساجد المغربية فإنه تادر إذا نظرنا الى الجوامع والمساجد الكبرى .

وكان للجامع ثلاثة صحنون معترضة مفصولة بعضها عن بعض بخمس عشرة خنية فسي الاتجاه الشمالي الشرقي والجنوب الغربي كما هو الشأن في جميع مساجد العهد العلوي وخاصة في جامع الروي ولالة عود (مكناس) وجامع مولاي سليمان (الرباط) وجامع الرصيفة (فاس) وهو اتجاه مقتبس من الهندسة المعمارية التي عرفت منذ القرون الأولى في كل من جامع القرويين وجامع الأندلس بفاس ولعل الاتجاه الملحوظ في عهد العلويين يعكس الخلاف القائم بين الفقهاء حول مفهوم الحديث الشريف « ما بين المشرق

والمغرب قيلة » والذي قرره العلماء المتأخرون أنه خاص بموقع المدينة المنورة خلافاً لما ارتأه الظاهرية في عهد الموحدين وأن المقبوم الصحيح لهذا الاتجاه بالنسبة للمغرب هو « ما بين الشمال والجنوب » .

أما مساحة الجامع فإن شكلها حرد (أي بعضها أطول من بعض وغير متساوية في الطول) وهي أوسع من الصحن وتحتوي في طول الجدار الشمالي الغربي على سلسلة الغرف (كان الطلبة يسكنون بها) ورواق مربع (استخدم كزاوية تجالية داخل الجامع) تقابله المتونفة في الطرف الآخر الملاصقة لدار للوضوء ، وكان المصلون يتقدمون الى الجامع من خمسة أبواب (ثلاث منها في واجبة المسجد) علاوة على الباب السادس المضاف وراء المحراب .

وقد بنيت معظم خدران الجامع من البلاط المفقو القليل الكلس والمخروط بشطايا القرميد والأجر أما هياكل الابواب قاتها من الحجر المنحوت المغطى بطبقة كثيفة من الجير بينما بنيت الاساطين الداخلية الفريضة بالأجر وكذلك الحنايا والاقواس وينجس المحراب في شكل هرم ذي خمسة رفاق أو ذبول وتغطي سقف حملونية من البرشة ذات منحدرات أربعة صحنون المسجد الواسعة التي يبلغ طولها واحداً وسبعين متراً وعرضها سبعة أمتار وتعتمد ارتباطية الجبلون (وهي خشبات تضل كل واحدة منها طرفي الجبلون) وتبعد بينهما (في أطرافها على مساند ناتئة مفروزة في الجدران وتزدوج هذه الارتبة فوق الاقواس الا ان المجموع يغلو من طابع الرماقة الذي عمل السلطان محمد الرابع على إضفاءه على الجامع عندما أضاف الى الصحن أروقة جديدة وأبهاء باساطينها الضخمة الأربع عشرة التي تصلها حنايا مكسورة ومفتحة من الخيزر المنحوت تقابلها فسي الصحنون الداخلية اقواس مكسورة حدودية (أي على شكل نعل الفرس) واسعة ذات مركزين يبلغ طولها تزيد من خمسة أمتار وانفتاحها ثلاثة أمتار ونصف متر (أي تسعة أضعاف البعد الذي يفصل المركزين) وتقضي التقاليد المغربية في المغرب بأن تكون هذه الاقواس مبطورة ضمن مربع مستطيل ومشرع (أي يرتفع عقده قبته فوق القوس التام أو النصف الدائري) وارتفاع هذه الحنايا هو الذي يضفي نوعاً من الزشافة على

البناية التي تنقسم بنصيب استداد الصحنون (717م) مترا بشيء غير قليل من الضخامة والجلال يزيد لها بساطة وروعة خاوية المحراب المثمنة الشكل من العقود الركنية ومن المقريصات اللهم إلا تلك القولية الخلافة التي تمتاز بها العضادات التقليدية الجامعة بين الزينة المقصورة والتخطيط المثبثة ولا يتخذ الدور التي الصحنون الأمن خلال الحنايا المفتحة على الساحة الخارجية المنظمة الهندام التي كانت مساحتها تبلغ 72 مترا عرضا في 42ر7 م عمقا ، قبيل توسيعات السلطنة آخر القرن الماضي والتي جعلت منها باحثة هريفة (72 م في 73ر77 م) ويتوسط ساحة الجامع فسقية من الرخام الأبيض تحملها دعامة مرمرية ضمن مربع من الزليج العسري تفور من جانبيها مياه غبولة وتقوم بين الصومعة والرواق المربع (الزاوية التجارية) على طول الجدار الشمالي الغربي أربع بنايات تحيط بأبواب الواجهة وتبلغ كل واحدة منها 4ر75 م عمقا و 12 إلى 14 م عرضا وتحتوي كل بناية على أربع غرف كاثم مئوي للطلبة الذين أنزلهم السلطان محمد بن عبد الله (45) بالجافج وأغدهم على سفر الإسم بالمؤونة اللازمة لعمير الجامع وتشجيعه لجملة العلم .

أما الصومعة فقد ظلت في شكلها الأصيل ومكانها الأول إلى أن نقلت بأمر من صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله إلى الركن المقابل حيث كان رواق التجانيين وذلك لتكون في سمت شارع محمد الخامس ، وكان علو المنارة يبلغ 24ر25 م أي بمثابة أضعاف القاعدة المربعة التي لا تتجاوز أضلاعها ستة أمتار أما الصاري الواقع تحت الجامع فإن قسمه المربع يبلغ كل ضلع منه 3ر75 م وغلوة 6ر41 م . وقد فتحت نافذة في كل ضلع ويحتوي الجامع على ثلاث كور من الخزف الأخضر المبرش .

وكاتب الزخرفة بسيطة قالسواوي مجردة من التيجان كما أن الأقواس عارية من كل نقش ولا يوجد الخشب المنحوت إلا في الباب الشارع من جدار القبلة وهي باب ذات خنية مكسورة ومتوجة منفصلة الزينة على غرار القوسات المطرزة في أطراف الثوب وهذه المفصلات مرسومة في شكل ثلاثة اشطحة دقيقة متداخلة وتحتوي الألواح المطرزة على صور نباتية ملتفة محلاة بالانثان والورق ضمن طيقتان زخرفية مقوسة نافذة تتوسطها زهرة رائعة المنظر في الوانها الزاهية منسج أبض وأخضر وأحمر في

خلفية زرقاء تبرز المجموع في حلة قبيصة يتكاثف بعضها وبراعمها وأوراقها وكؤوسها وتغاريها وهذه الألوان الرائقة والرسوم المتشابكة مظهر من التراث الأندلسي المقربي الذي تزوج على سر العصور مع تعطيات الفن الشرقي وخاصة السوري والعصري بصفاته الزهرية والنظام اجزائه ووضاءة جنتاته ، ويمتاز المحراب الى جانب ذلك بالنحت على الجبس وتراكب الأقواس والكتبات الكوفية والحنايا المقفلة وقبة قد رسمت عليها نجمة ذات تقاريع تتوسطها قبيبة منجمة وهي زخرفة حديثة من معطيات فن القرن العشرين ، تزيدها روعة ما تمتاز به من قولبة هندسية رقيقة وانتظام في التخطيط وجلال في الهيكل .

وقد قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - بأمر من جلالة الحسن الثاني أيده الله - بتجديد هيكل جامع البنية فبقلت عام (1969) . مشارته من الطرف الشمالي إلى الطرف الجنوبي للمسجد ، وكان ذلك عنوانا لاسما على امتداد روعة الفن المقربي الأندلسي بطابعه الخاص الذي اندرست معالمه في الوطن العربي كما تجددت سقوف الصحن والبلاطات وأزادت مختلف الأروقة بنقوش خلافة وبرزت براعة الصانع المغربي في التبحر على النحاس الأصفر اللامع الذي ليست به أبواب الواجهة بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ الفن بالمغرب فكانت هذه المظاهر وتغير من أساليبها في اجزاء هذا التجديد صوراً جية تعمق انعكاس الأندلسية والشرقية الإسلامية في حضارتنا الحديثة التي تنضم إلى رواء الجمال العصري خلال الفن التقليدي ، وقد أصبحت الصومعة الجديدة شامخة في هيكلها الضخم يراها الناظر وقد اطلت في سميت هندسي محكم على أكبر شارع في العاصمة هو شارع محمد الخامس زمن النهضة المغربية الحديثة ورائد الفكر الحضاري والإسلامي الجديد في المغرب العربي .

جامع أهل فاس :

وجامع أهل فاس هو جامع المشور الذي اكتمل الضعيف أنه من ملأير السلطان الأمجد المولى محمد ابن عبد الله . إلا أن بقية من المدينة جعله كجاسع السنة تولى الرواد خالي الوفاض التي أن جشاء السلطان الأكرم محمد الثالث (محمد بن عبد الرحمن) فجند بناءه وموه سقوفه بالذهب والبرقشنة تسم

نالت التعديلات عليه وخاصة في عهد جلالة المرحوم محمد الخامس طيب الله تراه الذي أفرغ فيه روح مجالى الفن المعماري الجديد نقشا ونحشا وبليطا وقريبة وتزيينا . ولا يزال جالغ الخطبة الملكية السامية يقصده الشعب من كل فج لامتلى بقلعة ملك المغرب الهمام الحسن الثاني نصره الله .

جامع ملين :

ويقع جامع ملين قرب الحديقة التي عرفت قديما الحديقة بعديقة المنظر المثلث ولا تكاد تعرف شيئا يذكر عن هذا المسجد الذي ينسب بتاريخه إلى أحد أفراد عائلة أندلسية هي عائلة ملين في أواسل العهد العلوي وإن كان من الصعب التسليم بذلك بسبب سكوت المصادر التاريخية والزحالين العرب والأجانب الذين وصفوا الحدائق والجنات قديما المصاحات المسماة الخالية بين السورين الأندلسي والموحدي دون الانتارة إلى هذا المسجد الذي قد تدمرت اليوم معالمه من سقوف وخنايا وأساطين عدا عتارته التي ما زالت قائمة إلى الآن والتي يبلغ علوها ستة عشر مترا (أي ثلاثة أضغاف ونصف عرقها) ولا يزال الهيكل الأخلي واضحا في مساحة المسجد المربعة (23ر45 م في 23ر66 م) وبلاطيه المعترخين وأقواسه الكبرى السبعة المسندة بآوار ضخمة مربعة القاعدة علاوة على ثلاثة أقواس نصل البلاط بالخليج الخارجي والمحراب الثمن الشكل البارز في لؤ ركني مسطيل خلف جدار القبلة والصحن أكبر بقليل من بلاطات الصلاة (209 متر مربع بدل 203 متر مربع) وليس له شكل خرد (أي بعضه أطول من بعض) ويتقل إليه المجلون من باب واحد قبالة المحراب فسي الطرف الآخر والشبيبة الذي يفتاز به هذا المسجد بالأضائة التي يسلطه هو اعتراض بلاطيه على غيرار المساجد العلوية وجامعي القرويين والأندلس . ولا أنسر لآي

نفس ولا نرقيم عدا في المحراب المحلي بقولية عمن الجبس وثيقة مقصصة القويسات مثل باب الرواح ، وجامع حسان مع تناسق وانتظام في الفصوص وورقة في الإبعاد والاختجام وتوافر الأجر والحجر غير المنحوت ومع ذلك فإن التخطيط المعماري يترك في النفس إرتسامة خاصة هي الشعور بالنسجام وشيء من الرضاة وتناسب الزخارف ورغم بساطتها والظاهرة البارزة التي تؤكد عدم نسبة هذا البناء للمعدين المريني أو السعدي هو انعدام أي أثر لنقائيد عديم العصور ، والشبه الملحوظ قديما خصوص تسمية وهيكله وتشكيله بينه وبين المساجد التي أقامها السلطان محمد الثالث بجامع السينة الذي يقول كايي (46) أنه صورة مصغرة منه وأعله من المساجد الستة التي أشاء إليها القاسم الزياني عندما عدد آثار العرش العلوي في أواخر القرن الثاني عشر الهجري وهو من أبرز عصور الأندلس العلوية .

جامع مولاي سليمان :

ويقع جامع مولاي سليمان في حي السويقة على مسافة أربعمائة متر من الجامع الكبير وهو يحمل اسم السلطان الذي أسسه حسب رأي مؤرخي الدولة العلوية ، وإن كان اليقظ يستيه جامع الشوق والبعض الآخر جامع السويقة وتاريخ هذا البناء هو 1226 هـ (1812 م) على أن الزياني يؤكد أن مسجدا آخر كان قائما بنفس المكان قبل المولى سليمان الذي لم يزد على كونه قيام بتجديده وتوسيفه . تلك نماذج عمن الفن المعماري في العهد العلوي تبرز المجهود الذي بذله الاشراف لباورة الفن وضمان وجود هذا التراث الأندلسي المغربي الحي .

جامع القرويين :

عندما تولى يحيى بن محمد بن إدريس ملك المغرب عام 234 هـ كثر الواردون على قاس (47) فكان

(46) تاريخ الرباط ص 481 .

(47) استقر القرويين بعد بناء قاس بثلاثة أرباع قرن وقد اختلف في تاريخ بناء قاس ، وأقره أيقوي بوفتصال يثنا في الموضح اقتبس فيه عن مؤرخين كايي بكر الرازي المتوفى عام 344 هـ والذي يقول بأن باني قاس إدريس الأول الذي جاء إلى المغرب عام 172 هـ ومات عام 174 هـ وبكيت المدينة في نظره خلال هذه الفترة . ولا حظ ابن سعيد أن إدريس الأول لم يؤسس سوى عدوة الأندلس ونقل ابن الأبار عن أبي الحسن النوفلي أن إدريس الثاني بنى عدوة القرويين عام 187 هـ يوجد في مكتبة إدريس دوهم سك بقاس عام 189 هـ أي قبل التاريخ العادي لبناء قاس بعامين ، كما يوجد درهم في متحف كاركوف بروسيا سك بقاس عام 185 هـ . وهو التاريخ الذي يعطيه الحسن بن محمد الوزان لبناء قاس .

تمن قدم من القيروان محمد بن عبد الله القهري الذي استقر مع ذويه في عدوة القرويين وخلف بعد موته بنتين هما : « فاطمة أم البنين » و« مريم » وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب ورغبنا ان تصرفاه في وجوه البر ففعلتا ان الناس قد اجتاجوا لبناء جامع كبير في كل عدوة من قانس لضيق الجامعيين القلائيين (48) بالناس فشرعت فاطمة في بناء جامع عدوة القرويين ومريم في بناء جامع الاندلس (49) .

وقد وقع الشروع في بناء جامع القرويين في رمضان 245 هـ ونصبت قبلته على غرار قبلة جامع الشرفاء الذي اسسه المولى ادريس ، وكان يحتوي اول الامر على اربعة بلاطات ابتداء من القبلة ، ولكل بلاط اثنا عشر قوسا من الشرقي الى الغرب ، واقام الشرفاء مكان الثريا الكبرى ، كما جعل في مؤخرته صحن صغير وصومعة واحفظ بهذا الهندام المعباري الى ان كثرت الغارات واتصل البناء قسرا ارباض المدينة من سائر الجهات وجرى امر زفانة بارتق المرقب سنة 307 هـ فازيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره واقامت بجامع القرويين لاساعه وكبره وسرع له من خشب الصنوبر

وعندما دغمت زبانة لعبد الرحمن الناصر ملك الاندلس واباعه اهل قانس قام العامل احمد ابن ابي بكر الزباني بتوسيع المسجد متفقا عليه « من اخماس غنائم الروم » فزاد اربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف (اي الشمال) في موضع الصحن الذي كان فيه بلاط واحد يقيد ان هدم الصومعة لتطول اضراسها على الدور المجاورة واصبح مضعدها يضم مائة درجة ودرجة وغشي بابها بمواجهته للقبلة يصفائح نحاس الاصغر وتم ذلك كله عام 345 هـ حسيما في التريفة المنقوشة بها من جهة الصحن وجعل في اعلاها قبة صغيرة ووضع في دورانها تفانج مموهة بالذهب في روج من حديد وركب في الراج سيف الامام ادريس مؤسس المدينة وبنيست تحت القبة المذكورة قبة اكبر منها لجلوس المؤذنين لاشاعة الاذان في اوقاته ، وكان فيها بيت الراعي منهم الاوقات الليل وانصداع الفجر وينداهم يقتدي باقي

المؤذنين بمواضع المدينة ، وتوجد بمواضع من المئارة بلاطة رخام وسط كل منها قائم يستدل بصدود ظله على خطوط بطول ازمان النهار ومروز بنايته ، وفي عطفاته ادراجيا سرج زاهرة الضياء يمر عليها الليل ، وفي عهد يوسف المريني (685 هـ) نصبه بدن من القنار بالقبة العليا فيه الماء وجعل على وجه الماء مجرى من نحاس فيه خطوط ونقاب يخرج منها الماء بقدر معلوم الى ان يغسل الخطوط فيعلم بذلك اوقات الليل والنهار ، وقد صنعت في غرفة معلقة على الصحن منجاة على يد المفضل محمد الصنهاجي عام 714 هـ وهي عبارة عن منجن من خشب الارز جعل في ركن الغرفة من يسار المستقل ووضع في داخله بدنان كبيران من فخار احدهما اعلى من الآخر يحتوي على ماء وبالسفل انبوب من نحاس يهبط منه الماء في البدن الاسفل بقدر معلوم ، وجعل في طرفه الجتح (الآلة) مغطس (حفة) وكذلك قس جانبي التغطيسة رسمت فيها المسافات وذقائنها واوقات الليل والنهار وجعل الموقت المنطرة معلقة قيسه (51) خارجا من الجتح بجري في حقن التغطيسة طالعا وبهابط ، وجعل على وجه الماء الذي يجتمع في البدن الاسفل حسيما مجوفا من نحاس على هيئة الاطرفة ، اي الجوانب الداخلية) معلقا في الطرف الداخلي على العلو فاذا طلع الجسم بطوع الماء البدن يجتمع في البدن الاسفل طلع طرف (50) الخارج من التغطيسة وطلعت بطوعة المنطرة - وفي ايام ابي عثمان (749 هـ) جعل خارج الجتح دائرة عليها خبنة الاسطرلاب تدور رسمها وتبي طلعت المنطرة عرف بها الوقت ، كما اقيمت هناك زمينات لاختبار الوقت مع اسطرلابات اخرى ، ومنذ هذا العهد جعلت صارية يتسوق فيها العام ابدان باوقات الصلاة النهارية ومشار لاوقات الليل وقد صنع ابوعنان (عام 758 هـ) « منجاة بطيان وطشوس من نحاس » مقابلة لباب المدرسة التي اسسها بقانس « وجعل تتعار كل ساعة ان تنطق صيحة في طاس وتنفخ طاق » .

وقد بنى المظفر بن المنصور بن ابي عامر المنير عام 388 هـ من القود الابنوس والعباب وغيرهما « تخطب

(48) لاحظ ابن زرع ان عدد مساجد قانس انتهى ايام المنصور والناسر الموحدين الى 782 مسجدا

علاوة على 122 ما بين سقايات ودور الوضوء حصاما (الانس المطرب ج 1 ص 64) .

(49) زهرة الاس في بناء مدينة قانس لغلى الخزائني طبعة 1340 ، ص 34 .

(50) نفس المصدر

عليه إلى أيام علي بن يوسف بن تاشفين حيث صنع عام 548 هـ منبراً جديداً « من عود الصندل والبنوس والنارنج والحنان وعظم العاج » مع غشائين من جلد وكتان ، وذلك على يد تجار كان أمما في المنطقة والشهر (51) ، وكلف صنعه نحو 3800 دينار فضي .

وقد زينت بجامع القرويين في مختلف العصور بنايات جديدة منها الباب الأكبر بسماط الموقنين (الهدول) عام 505 هـ وبخارجه قبة الجص البقرينة (عام 617 هـ) وباب التماسين (عام 518 هـ) (52) مع قبعتين أحدهما بالداخل من الجص والأخرى من الازر بالخارج (53) .

وفي عهد علي بن يوسف اشتريت دور كان أكثرها في ملك اليهود وزيدت في المسجد عثمسة بلاطات من الصخر إلى القبلة (54) والقبلة بأعلى المحراب « بالجص المقرني الفاخر الصنف » ورش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد وأسنان الاصبغة (55) وركب في التماسات التي بجوانب القبلة أشكال مثقبة من أنواع الزجاج والوانه « تم غشيت أبواب الجامع » بصفايح النحاس الأصفر بالعمل المحكّم والشكل المثلث « كل ذلك عام 533 هـ » وقد لاحظ ابن أبي زرع أن هذا القرن كان ينهر الناظرين ، فلما دخل عبد المؤمن بن علي عام 540 هـ خاف الفقهاء والاشياع أن يتخذ ذلك النقش والزخارف لأن الموحدين قاموا بالنقش والتقال فغطى البناء بالنقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغدم ليسو عليه بالجص وغسل عليه بالبياض (56) .

وقد علق جورج مارسي على هذا الحدث فرسم أنه قبة ملققة لتزيين الياضي والفراخ المنحوتين في قبة المحراب (57) إلا أن الحفريات التي قامت بها مصلحة الفنون الجميلة منذ عام 1952 أكدت حكاية المؤرخ العربي ، فقد كشف عن نقوش رائعة غير أنها لا تحتوي على أي تزيين ذهبي ، وقد لوحظ أن أسنان الاصبغة المنسار إليها من طرف صاحب القربان من الازرق والأحمر والبصرة الصبغاء . وما زالت الألوان متماسكة وفي رائق غضايتها ، ويظهر أن مزيج الاصباغ كان يحتوي على صبغ البيض الذهبي اللون وأن الدهان كان كامدا للتخفيف من تزيين أسنة النور المتعكس مع التواضع .

وقد جيز الجامع بمستودع توضيح قبة أموال الجامع والمائات الناس ، وكان محصنا بخشب الازر وبخمس متافيس بصفايح من حديد مقلوبة « وبنت دار الوضوء بخمسة عشر بيتا مع طاق في سقف كل بيت للإضاءة واليوبة نحاسية تنصب منها الماء » في لغير محفور من حجر ، وفي سبيلها قبة من جص مقرينة بأنواع الاصبغة وجعل بوسطها بيلة من الحجر الأخضر مع تقريب من نحاس مموه بالذهب والبيلة والخضرة كلاهما من عمل رجل سجلناسي ضيقهما له رجل آخر « من أهل المعرفة بالبناء والهندسة » أما الفترة فقد أقيمت عام 688 هـ « وفيها غرابة الصنعة ونفاة الحشيب واتقان الصاق ودقة الخراط والنقش ما يقضي بالعجب » (58) وصنعت سقاية مشقة « بالجص والحجر المنحوت وأنواع الصبغة »

(51) زهرة الأسى ص 42 .

(52) يذكر صاحب القربان أن كتابات التأسيس مؤرخة بعام 528 هـ ج 1 ص 85 ، وهم صاحب الجدة فأعطى تاريخاً غيرنا هو 710 هـ .

(53) أحرق القبة الخشبية عام 571 فتمنع الموحدون من الجص عام 600 هـ من بيت المال ، فسي حين صنع المرابطون بابي السماط والشماعين مع القنيتين من مال الإحياس

(54) يوجد بجامع القرويين 19 بلاطا عوارضا للقبلة وقد لاحظ جورج مارسي أن هذا الأسلوب يرجع عهده إلى صدر الإسلام ونجد في منبر (جامع غمر وجامع ابن طولون) وظل هو الغالب في مساجد فاس (في الإسلام ص 95) .

(55) الأيس المطرب ج 1 ص 87 .

(56) الأيس ج 1 ص 88 .

(57) كتاب الفن إسلامي طبع 1926 ج ص 302 وقد أكد مارسي في الكتاب الذي صنعه عام 1954 وهو « الهندسة المعمارية الإسلامية في القربان ص 188 » إلا أن الأستاذ طيراني أكد مقالة ابن

أبي زرع

(58) زهرة الأسى ص 65 .

كما جعلت على المخراب عام 712 هـ مقصورة مسننة
خشب الأرز ألصقت بعد ذلك - أما الخزنة فقد أنشأها
أبو عثمان المريني عام 750 هـ وجعلها بالكتب المتنوعة
وعين فيما كتبها ومناولة مستغفائها .

وللجامع 18 بابا و 300 بناية - عشر منها
من حجر ملون وثلاث تقع تحت الشرا الكبري تبصر
منها جميع أبواب الجامع - و 21 بلاطا و 130 نريسة
من النحاس مختلفة الألوان والمناغات ، والاشكال
والهيات .

جامع الاندلس :

أما جامع الاندلس فقد وقع الشروع في بنائه
كذلك عام 245 هـ وكان فيه بيت بلاطات ويصحن
صغير وزاد فيه عامل الناصر الأموي الشوكة عام
345 هـ (59) ونقلت اليه الخطبة من جامع الإشباح
قبل ذلك (321 هـ) وبعد نحو من ثلاثة قرون عام
(600 هـ) أمر الناصر الموحدي ببناء الباب الكبير الذي
فيه درج بإسفلها شملت من خشب الأرز ثمانية ثلاثية
أبواب : في الأوسط بيعة من الحجر الأصغر يتفجر بها
الماء من وادي مصمودة . وبأعلى اليسار قبستان
أحدهما من خشب مقروض الداخل ، والآخر من
خشب الأرز .

كما أمر الناصر ببناء سبائية ويدخل لمضاني
النساء ومصرة لائمة الخاسع ودار الرشوة بختها
تحت التي بجاسع القرويين وعدد بلاطات بعد سنة
695 هـ خمسة عشرة من الشرق إلى الغرب

وثلاثة عشر من القبلة إلى الجوف . وتسمية أبواب
و 134 بناية .

وكانت فاس في هذا العصر كما وصفها
المراكشي « حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع
فيها علم القيروان وعلم قرطبة ... رحل من هذه وهذه
من كان قبها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا
من الفتنة فنزل أكثرهم بمدينة فاس ، فهي اليوم
في غاية الحضارة وأهلها في غاية الكسب ونهاية
الطرفاء ، ولقبتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم ،
وجازلت اسمها المشايخ بدعوتها بغداد المغرب » (60) .

مدينة فاس تراخم بغداد :

وقد لاحظ كوستاف لوبيز أن مدينة فاس كانت
تراخم بغداد في القرن العاشر الميلادي . فكان بها
نصف مليون نسمة و 800 مسجد وخزانة حافلة
بالمخطوطات اليونانية واللاتينية (61) وقد زعم استاذ
إيطالي هولويجي روسوا أنه اشترى من فاس مخطوطا
تأدرا من غساريات . تيليف (62) حول التاريخ
الروماني .

وقد وصف كابريل شارم مدينة فاس بأنها
أول مدينة عصرية بعد مكة وأنها كانت مركز القوة
العربية في جنوب أروهاها والعاصمة الفكرية
والروحية للغرب الإسلامي بفضل معاهدها الخالدة
ومساجدها الماجدة (63) : وذكر مارزسي (64) أن
أفريقيه نفسها وهي الوطن العتيق لعلماء الإسلام
أصبحت تلميذ لبريرة الغرب .

وشبه على باي العباسي هذه المدينة بأبنة لوفرة
علمائها ومعاهدها (65)

(59) حبيبا في غنية باربا - زهرة الآمن ص 81

(60) المفجج في تلخيص أخبار المغرب سلا عام 1357 ص 221 .

(61) حضارة العرب - الطبعة الفرنسية من 263 وقد ذكر دلفان ص 81 أن هذه الخزنة كانت
تحتوي على 300.00 مجلد ، كما ذكر كودارا وصف تاريخ المغرب ج 2 ص 376 أن يعقوب
القريني استرجع من المسيحيين عددا من المصنفات العربية وأهداها إلى القرويين ، ولاحظ
نبلي كتاب الموحدين ص 101 أن يعقوب الموحدي كانت له خزنة تضاهي مكتبة الخليفة الأموي
الحكم الثاني وقد أهداها كذلك إلى القرويين ، وفي عهد المولى زيدان السعدي اختلس قنصل
فرنسي أربعة آلاف مخطوط عربية وباعها لإسبانيا فكانت من ثروة الإنكوريال .

(62) ولد هذا المؤرخ الروماني عام 59 قبل الميلاد

(63) كتاب سقارة المغرب ص 255 .

(64) كتاب الفخ الإسلامي ج 2 ص 465 .

(65) سفريات على باي العباسي إلى أفريقييا وأسيك باريس عام 1884 ج 1 ص 137 .

جامع حسان :

أن هذا الجامع من آثار الموحدين الخالدة التي حققتا وحدة الفن الشرقي والفن الاندلسي المغربي ، فهو رمز لفخامة الدولة الموحدية وشاعرها في السمو والعظمة وذوقها في التنايق الجماع. يرسن الفخفخة والبساطة وهو مجهود رائع اذا اعتبرنا انبثاقه من أسرة « موحدة » كانت تعمل على دعم الاسلام في عتائقه الانجيل - وحقيقته السمحة ونظمته الساذجة .

ويقع جامع حسان شمالي شرق مدينة الرباط على علو نحو 30 مترا فوق البحر وهو المسجد الثاني الذي بناه الموحدون بالرباط بعد مسجد القصبة المتيق وبانيه هو يعقوب المتصور الذي اتهمه بعام 592 هـ ويظهر أن بناءه لم يتم ومشارطة اقرب بهذا حتى منارة المكنية ومنارة جامع الشبيلية المعروف بالخالدة ، وهي مربعة كمنارة جامع دمشق ، يتبلغ عرضها ربع طولها حسب التقليد المعماري ، وهذا الملو وهو 64 مترا - يجعل من منارة حسان اعظم منارة في القرب بل حتى في الشرق ، أما الجامع فانه مربع المساحة تقريبا تحدى القسم لتساقق سواربه الفاصلة بين صحنه الواسعة ، وصحنه مربع الشكل على خلاف المحاريب المغربية - وهو منحرف بعض الشيء عن القبلة مثل جامع القرويين .

الرباط : عبد العزيز بن عبد الله

ولاحظ ليفي بروفنسال انها لم تكن اقل مكانة من عواصم الاسلام الاخرى (66) : نعم في هذه المدينة تبلورت الحضارة العربية التي تمتعت بالمغرب فتلاوات اشعتها على اوروبا (67) وقد احتفظت فاس على سمر العصور باشعاعها فهي مازالت دار العلم وجامع القرويين عزال اول مدرسة في الدنيا (68) .

وذكر مارمول انه كان بفاس 200 مدرسة ، وتقل الكاتولي في « شبرات لسة المغرب » عن مؤرخ اوروبي خصص كتابا لفن الاسنان بالمغرب لاحظ فيه ان مدينة فاس كان بها في القرن الرابع الهجري « مدرسة للطب » وقد احييت المدرسة المرينية يدان المخرب في فاس الجديد حوالي عام 1844 م الى مدرسة للمهندسين نظم فيها السلطان دراسة العلوم الحديثة (69) .

وقد أكد مولاي عبد الرحمن (70) ان خريجي « مدرسة البوليتكنيك » (الفنون) التي استنبها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بفاس الجديد تابعوا دراستهم في معاهد انجلترا (مثل الهندس الاعظم الجياص) وايطاليا (مثل محمد بناني العلمي) .

وكان بجامع القرويين اواخر القرن الماضي 700 طالب ونحو الاربعين استاذا وظل العدد جامدا الى ما قبل الاستقلال حيث اصبح ينفع على 6 آلاف ، وكان هؤلاء الطلبة يسكنون بالمذايرس ويتفتنون بنظام الخبرة الذي عوض الان بمنح دراسية ومطاعم مدرسية وداخلية منظمة في الشراودة .

(66) مجلة هسبريس - عام 1952 ص 3 .

(67) كتاب سفارة المغرب ص 228 .

(68) دلفان في كتابه « فاس وجامعتها » ص 12 .

(69) الجريدة الاسبوية عام 1917 - كتابات عزيزة فاس - الفريد بيل ج 10 ص 152 وكانت توجد بالجديدة في نفس الوقت مدرسة مركزية للمدفعية (كتاب امبراطورية تنهار ص 16) وقد اجري تدريب لاثني عشر طالبا مغربيا في المدرسة العسكرية بموزيلبي عام 1885 وانها دراستهم عام 1888 هسبريس ج 41 عام 1954 ص 136 وقد وجه مولاي الحسن طلبة الى انجلترا وايطاليا واسبانيا والمانيا (المغرب الحديث ابراهيم ص 114) وحتى الى امريكا (كتاب سفارة المغرب ص 238) .

(70) الاتحاف ج 3 ص 367 .



في منهجية تدريسه للمديث ومن خلال أوصاعه المتنوعة

لأستاذ محمد المنوفي

مقدمة :

يحمل المترجم اسم محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن الاتدلسي ثم الرباطي .

وبمدينة الرباط كان مولده عام تسعة أو عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة . حسب ذكر صاحب الترجمة في فهرس شيوخه .

وبالعاصمة المغربية وقبلها بالحدوية السلوية كان تلميذه من بدء علمه حتى نهاية دراسته . فتلحق - بمشقط - راتبه - المواد الأولية ، ثم أخت في تلقى الدروس العلمية على شيوخ بلدة العنصور بـقلمهم عاتقان جليلان : أبو حامد محمد المكي البطاوري وأبو شعيب الدكالي . كما قرأ بسبلا على عالمها أبي العباس أحمد بن إبراهيم الجزيري / ومن مجيزته بالرباط : القاضي الجليل أبو العباس أحمد بن محمد بناني ، ونفاس شيخ مجلسها العلمي أبا العباس أحمد بن محمد ابن الخطاط .

وقد يستطع المترجم في «فهرس شيوخه» ذكر أساتذته في متعلمه الأولى وعند مرحلة التخصيل : كل واحد بأسنخه ونسبه ودرجته العلمية وما درس عليه من المواد ، كما ألم في المصدر نفسه بالتعريف بأسرته الأدبية ، ولائمة هذه المعلومات سننيتها في ذيل الترجمة كما كتبها المؤلف بخطه في ميسرة الموجود من هذا الفهرس .

وبدا حياته التوظيفية استنادا - في مشقط رأسه - بالمدرسة اليوسفية ، فبعد الدروس العليا وفي هذا الحين رشح لهمة استخراج سبب القبلة للمسجد الإسلامي بباريس ، حيث سافر إلى فرنسا بجمعية قاضي طلبة - سابقا - محمد الهواري عام 1341 هـ .

وبعد معيد الدروس العليا تدرج في أسلاك القضاء ، بالمحكمة العليا ، ومجلس الاستئناف الشرعي الأعلى ، وفي عام 1348 هـ صار قاضيا بمدينة الجديدة ومحققا فيها ، ثم تقلد نفس المنصب بوازي زم وما إليه عام 1350 هـ ، وفي عام 1352 هـ انتقل لقضاء شراكة وبضائيا ، وعينها ارتقى إلى قضاء عقصورة المرصيف بفاس عام 1355 هـ ومن عام 1356 هـ عين عضوا في لجنة امتحان العالمية بالقرويين ، ثم سافر إلى القلاع المقدسية ورئيسا لوفد الحجيج المغربي عام 1365 هـ ومن قضاء فاس وشرح قاضيا للجماعة بمدينة مكناس أواسط عام 1367 هـ .

غير أن فرصة لم يهله فتوفى - طيب الله ثراه - في السنة نفسها ، عند عشية الاثنين 16 ذي القعدة ، الموافق 20 شتنبر سنة 1948م ، ومن العاصمة الاسماعيلية نقل إلى عاصمة الرباط ، حيث اقبر ذوال غبه بالزاوية الوزانية قبالة مشهد مولاي المكي من شارع سيدي فاتح .

ويوم السبت 21 ذي القعدة المشتهر له، تشرمت جريدة «العلم» مقالاً تأييدياً للمفقيد، كتبه العلامة الجليل محمد بن أبي بكر التطواني بعنوان : «وهذا من يخلقه» .

وبمناسبة الذكرى الإربعية اقيم بفاس حفل تهنئي المترجم ، حيث خطب فيه العلماء : الشيخ والشباب : من فاس والرباط ومكناس .. حسب جريدة «الراي العام» عدد الجمعة 28 محرم 1358 هـ .

* * *

والآن - بعد هذا المدخل - نصل بنا المضاف إلى الدروس الحديثة التي كان صاحب الترجمة يملئها - بفاس - في فترة فطانه ببركة ثم بالعبادة العلمية حتى الاوسط عام 1362 هـ ، وكان من حسن حظي ان لازمت هذه الاملاءات من اواخر عام 1357 هـ الى الاوسط عام 1362 هـ حيث واطب المترجم علي لقاء هذه الدروس - بين الصنمين - حبة ايام من كلي اسبوع : تبدي بالنسبت وتنتهي مع الإزاعة ، اصعد الايام الدراسية المتعارفة لذلك ، وكان مجلس اقرائه عند البلاط الاول من جافع القوانين ، بالكرسي يسرة الداخل من باب الجناز .

وقد كان - اولاً - يقرئ «سنتين ابي داود» ، وبعد ان قطع فيها شوطاً عظيماً انتقل الى «صحيح الامام البخاري» يبدأ من اوله ، واستمر فيه الى انهاء كتاب الموضوع .

وخطته في تدريس هذه المادة ، ان يبتدي - بعد شرح ترجمة الباب - بتعريفات وجيزة يعطين الرواة وبالاخص من صحابي الحديث ، ويخلل ذلك بمتطلبات قواعد البسطح ، فنتجاً شواهداً - في الغالب - عن الفية السيوطي ، ويوجهها لاستيعابها اكثر من الفية العراقي في الاتجاه نفسه ، وعند الاقتضاء يملأ ما يؤثر عن صحابي السنة او بعض رواته عن واقعة تاريخية ، او لكلمة ادبية شعرية او ثرية ، مع ابراز ما يوجد بين بعض الصحابة من مفارقات او قرى في السبب ، او ما يتوفى عليه بيت احادهم من اعداد الصحابين المعروفين ، كواقع انس بن مالك ونظرائه .

* * *

ولما وصل استاذ الدرس الى تحليل الحديث ، يعرف عن استعراض اخلاقيات الشارحين في رواية المتن واعراجه وتفسيره ، وانها يتخير - عن بين ذلك - الاتجاه الذي يترجح لديه ، فيوضحه فضل

انضاج ، ويعززه بمقارنات خديفية ، واستشهادات لغوية او نحوية .

وهو يفيض في استخراج منا يستحل عليه الحديث من لكمة او نكت بلاغية او يدعية ، ويقارن ذلك - احياناً - بانشادات شعرية قد يطنى عليها الادب الاندلسي : في اشعار قصيرة او قصائد مطولة .

حتى اذا جاء دور مستنظات الحديث يحلل طرائقها طبق قواعد اصول الفقه ، وعند ذكر الفقه المقارن يبرز القاعدة الاصلية التي يستند لها كل فريق ، ولما يرجع المستند الى القياس - على المسلك العلوي مع - قد يعرض له عن خارج او قرائح ، كما يدقق الموضوع بما قد يتطلبه من الاحالة على بعض القواعد المنطقية .

والى جانب اعتماد في اصول الفقه على «الجميع الجوامع» للمسكي ، يرجع - كثيراً - الى كتاب «الموافقات» للشاطبي ، وهو يستحضر مسائلها استحضاراً ، ويعرض قواعدها ، ويحتدي حذوها في التعريف بجزائر التشريع الاسلامي ، يضيف لذلك - في الاتجاه ذاته - أفكار نفس المؤلف في المنشور من كتابه : «الاعتصام» ، الى نظريات ابن القيم في «اعلام الموقعين» .

هذا الى ان استاذ الدرس يوضح - عند الاقتضاء - شرح ما توفي له بعض الاحاديث من قاعدة اجتماعية ، ويقارن ذلك بأفكار المقدمة الخلدونية .

كما يقابل بين احاديث اخرى ، وما تلوح له من اشارات لواقع بعض المكتشفات الحديثة ، ويفيض - في هذا الصدد - بالإحالات على المصادر المعاصرة عربية او مغربية .

وعند المناسبة كان يخلل هذه الدروس الحديثة بتفسير القرآن الكريم ، فقرأ - أياًما - تفسير سورة البور ، وفي فترة اخرى تفسير سورة الجن .

وهو - في هذه المراحل كلها - ينسق عرض الدرس من حفظه تنسيقاً ، يؤدبه بصوته الجهوري - بأصيح تعبير وأوضح بيان ، مع تمهل في القائه ، وتؤدة في جلسته وحركاته ، وتأتي في عهده .

* * *

وفضلاً عن نشاط المترجم في التدريس ، كتبه موضوعات متنوعة ولو ان اغلبها غير مطول ، يسد

انها في مجموعها طبعة عالية في التحرير وبسعة الاطلاع وحسن الترتيب ، والمنهجية القيمة ، ومما نثار منها على حدة - حسب تاريخ نشره :

1 - «المتنقيات العبقريّة» لطلاب المدارس الثانوية ، فرغ من تأليفه في ذي الحجة عام 1338 هـ ، المطبعة الرسمية بالرباط سنة 1920 م ، في 227 ص على الملحقات .

2 - «تحقيق الامنية» مما لاح لي من حديث انا امة امية ، فرغ من تأليفه في شعبان عام 1343 هـ : «المطبعة الوطنية» بالرباط عام 351 هـ - 1932 م ، في 88 ص على التقاريط والفهرس .

3 - «سوق النهر الى قافية ابن عمرو» اسم شرح للاجوزة القافية التي نظمها - في المديح النبوي - اديب الرباط محمد بن محمد التهامي بن محمد بن عمرو الانصاري الاوسي لم الاندلسي .

ومن محاسن الشرح ان صدره مؤلفه بمدخل مطول عن تاريخ مدينة الرباط ، ونزول الجالية الاندلسية بها ، مع الالمام بروج الادب الاندلسي الذي استبهرت خلاصة محفوظه لدى مهاجرة الفردوس المعقود .

كتب معظمه عام 1336 هـ ، وقيمت منه بقية اتمها بعد ذلك ، ثم تنشر في المطبعة الاقتصادية بالرباط عام 357 هـ - 1938 م في 99 ص ، على مقدمة الكتاب التي تشمل على 60 ص .

ومن آثار المترجم رسائل صغرى نشرت ضمن اعداد من مجلة «دعوة الحق» حسب العناوين التالية :

4 - «الفخر الرازي في عالم الفيلسوف» : السنة الاولى ع 12 : ص 25 - 32 .

5 - «اعجاز القرآن» السنة الثانية ع 7 : ص 19 - 25 .

6 - «المولى ابن خلدون العبدوي» : السنة الثالثة ع 2 : ص 27 - 32 .

7 - «المدخل الى كتاب الحيوان» للجاحظ : السنة الثالثة تباعا في اربعة اعداد :

ع 5 : ص 40 - 42 .

ع 6 : ص 64 - 67 .

ع 7 : ص 43 - 45 .

ع 8 : ص 20 - 23 : ولما يتم نشره .

8 - «العلوم في الحديث النبوي» : السنة الحادية عشرة ع 9 - 10 «مزدوج» ، ص 10 - 14 .

9 - «مشاهد القيامة في الحديث» : السنة الثانية عشرة ع 1 : ص 32 - 34 .

10 - «الحركة السلفية الانبلاسية بالمغرب ونزول الشيخ ابي شعيب الذكالي بالرباط» : السنة الثانية عشرة ع 2 : ص 38 - 40 .

11 - «تكوين الجنين في القرآن والحديث» : السنة الثالثة عشرة ع 9 - 10 «مزدوج» ، ص 14 - 15 ، ويسميه مؤلفه في طالعته : «سبك الذهب والنجين في سبب افتقار التناسل الى الزوجين» .

12 - «الحكم الشرعي بين مختلفي المذهب» : السنة الرابعة عشرة ع 1 - 2 «مزدوج» ، ص 22 - 23 . والغالب انه الذي يحمل اسم «الخصار المذهب في احكام التعامل بين مختلفي المذهب» .

13 - «تجعة الرائد في اثناء الحكم والفتوى على المقاصد والعوائد» : السنة السادسة عشرة ع 2 : ص 23 - 29 .

14 - ومن اوضاع المترجم المنشورة بغير هذه المجلة : «تقريظ موسع» لكتاب المؤرخ ابن زيدان الذي يحمل اسم «تبيين وجوه الاختلاف» ، نشر في المطبعة المهدية بتطوان عام 1365 هـ - 1946 م .

وقد ضيع هذا التقريظ في شكل رسالة تعرض لمعلومات قيمة : فقيية وفلكية في موضوع ارتقاب الاهلة ، وتعميم رؤيتها حيث لم تتباعد الاقطار كثيرا ، مع لمحة باعلام الرباط المتأخرين ، وهو يقع - بين تقاريط الكتاب المشار له - من ص 149 الى ص 178 .

• • •

15 - ومن آثار المترجم الخطية التي اشار لها في مؤلفاته المنشورة : تاريخ مدينة فاس ، حسب مقدمة سوق البحر ، ص 1 ك ب ، وهو الذي يحمل اسم «بيان القسطنطين في تاريخ مدينة فاس» .

16 - «فهرس اشياخه باسم» : «الاصتال بالرجال» ، نفس المصدر ص 1 ، وقد وقفت على فيضة قطعة منه لدى ابن المؤلف : العالم الاستاذ

الباحث الحسن السائح ، واقدت عنها في ذيل هذه الترجمة .

17 - «رقعة الصبابة» - فيمن قتل قريب الكافر أو هم به من الضحابة حسب سوق المهر من 61.

18 - تاريخ الرباط بعنوان : «الفضيل المفسر بمدينة المنصور» ، حيث أشار له مؤلفه وأخبر تقريب الكتاب الريداني من 176 .

وهذه ثلاث مخطوطات تحمل أرقاماً خزائنية :

19 - «البد الجفن» - في عدم إعادة الصلاة النافذة الكبير بعد الدفن ، بالمكتبة الملكية رقم 6573 ، في 26 من الحجم المتوسط .

20 - «رحلة إلى فريسا بعنوان : «اسبوع في باريز» ، نفس المكتبة رقم 101 ، في 70 من حجم البشار إليه .

21 - «الشرف المروم» - بتأديت فتح مدينة الروم ، مصور على الشريط بالخزافة العامة رقم 227 في 10 لوائح . هذا إلى مجموعة أخرى : منها ما أخرجه المترجم ، وبعضها لا يزال تحت التنقيح ، وهذه لاحتها حسب ابن المؤلف المتوبة به وشيكا .

22 - «تفسير السور الختامية من القرآن الكريم» ، ابتداء من سورة النصر ، وأدرج معها سورة الفاتحة .

23 - «المفهوم والمتطوق» - مما ظهر من الغيوب التي أنبا بها الصادق المصطفى ، صلى الله عليه وآله وسلم .

24 - «المصباح الأجوج» - الكاشف عن سر ذي القرنين ويأجوج وماجوج .

25 - «مغفل الوارد» - في تفضيل الوارد .

26 - «رضاب العذوة» - في سر اظهار احداها في آية شهادة الشهاد .

27 - «الطلاق في كتاب الله» .

28 - «تنبيه ذوي الاحلام الى صفة الحجاب في الاسلام» .

29 - «اشراق الخلق بتاريخ عالم الفلك» .

30 - «طريقه الخير» - في سر رد مبادئ ديكرات الى رأى من غيره .

31 - «القاف» - فيما روى في جيل قاف» .

32 - «معلومات العرب القدماء في الجغرافية وما الى ذلك» .

33 - «التبئية» - الى احكام التبئية» .

34 - «الرحلة الحجارية» .

والى هنا ينتهي عرض عما توصلت الى معرفته من اوضاع المترجم المنشورة والمخطوطة . وسيتاتي بعدها - تلايل الترجمة بالتعريف بأسرة صاحبها وشيوخه ، اخذاً من خط المؤلف في مبيضة الموجود من قهرسة : «الاختصال بالرجال» ، حسب النص التالي :

«... وأما والدي فهو عند السلام بن عبد الرحمن بن محمد السائح ، ينتسب الى الجزيرة الخضراء من الاندلس وكانت اسرنا تعرف - قديماً - «بالعماني» ، وبهذا النسب يذكر اسلافنا في رشتهم القديسة ، وقد ذكرهم مؤرخ الرباط السيد بوجتار في العائلات الاندلسية حسيباً من 194 من «مقدمة الفتح» .

ويوجد من العمانيين - ايضاً - فريق يغاضد لدعوى «اولاد العماني المهندز» لاستقلال جدهم بالهندسة ، واسلمهم من تلمسان هاجروا غلة الى قاس عند اختلاله ، وتلمسان مهاجرين الاندلسيين كما تعلمون .

وهجرة اجدادنا الى هذه العدة لا اعرف تاويلها بالتحقيق ، اما الملتقى من اسرنا انهم وفدوا على المغرب مستقلين بالعمارة الفنية ، وصنع السفن القرصائية .

وتسبب تلقيت جندنا بالسائح ، انه انخرط في العسكرية التركية بالجزائر أيام حكم الاتوك ، وسافر عنها الى اسلامبول وغير ذكره دجراً ، وما آت يتلبس اعلى ومثولة الا بعد كثير من .

ونشأت في حجر والدي - رحمة الله عليه - بالرباط ، فبدل جهده في تعليمي القرآن ، وبعد ما أخذته على عدة من اساتذة واقفي ، اذكر منهم الفقيه العدل السيد عبد السلام بن محمد كيليطو الاندلسي

والفقيه السيد الميمني بن محمد الصخرأوى نزيل
الرباط وأصله من الصحراء ، وقضى حياته في تعليم
كتاب الله .

بعدما خلقت القرآن تكلفت على أخذ العلم بهمة
لا يحوم حولها الرنى : فأخذت عن الشيخ الفضال :
السيد محمد بن أحمد العياشي : النحو والفقه
والتوحيد ، وهو أول من فتح لبائي ، وهذا الرجل
فاضل دقت الاخلاق عالي الهمة .

وعن الشيخ المصدق السيد التهامي بن المعطي
الغربي ، عن بيت الغربي الشيعي - في الرباط -
بالعلم والقضاء ، أخذت عنه العربية والصرف ، وهو
عمدتي فيهما ، وهذا الشيخ مثني العلم ، متمكن من
الفنون الادبية ، غواص على الدقائق ، حسن التعبير
عن المعاني ، شاعر قل مجيد ، استيقظي بأحوال
الرباط .

وعن العلامة الشباروك القاضي : ابي زيد عبد
الرحمان بن بتاصر برطل ، عن آل برطل : بيت
الشيعي بالرباط ، من تلامذة شيخ الشيوخ ابي
اسحاق النادلي ، وعازت مشاركته ، وعن اصل
التحصيل والتفنن والعلم الصحيح ، أخذت عنه المنطق
بالبائي في مستحق : والاصول والفقه والفرائض
والحساب والتوقيت ، قلد منصب القضاء بالعرش
والخدمة والتسيطة والمذاكرة واولاد حوز ، وأخوات
مكتاتبة الزيتون ، توفي يوم الاثنين خامس صفر من
عام 63 ، وأقبر بالزاوية الوزانية قبالة ضريح مولاي
المكي .

وعن الفخامة المصدق : ابي عبد الله محمد بن
عبد السلام الرندي الاندلسي ، من ذوي المشاركة
والتحصيل ، وعلمه متمكن امكن ، مثقن لغة مجود ،
جيد التعليم ، ويبرز المعقول في قالب المجسوس وله
علكة في ذلك واقتدار ، أخذ عن ابي اسحاق النادلي ،
وعن ابراهيم والبطاوي الاتي ذكرهما ، وعن العلامة
الحاج محمد عاشور الاندلسي ، أخذت عنه الفقه
والمسلك والتوقيت والحساب ، وهو عمدتي
في الفقه ، تولى العضوية بمجلس الاستئناف الاعلى
والتضاء بالرباط ، ثم وزارة العدالة ، توفي في
ثاني عشر ربيع الثبوي من عام 1365 ، وأقبر بشالة .

وعن الفقيه المفتي ، السيد الجيلاني بن ابراهيم
وهو عالم ريان من علم الفقه والاحكام والتوازل ، وله

استحضار تام للفقه ، وتحصيل فائق ، أخذت عنه
طرفا من الشيخ خليل وتبعة ابن عاصم ، توفي يوم
الخميس ثاني جمادى الاولى من عام ستة وثلاثين
ودفن - بعد الصلاة عليه بالمسجد الأعظم - بضريح
سبيدي ابي الاثوار متصلا بقبره جونا .

وعن الشيخ الهيام ، ابي العباس احمد بن قاسم
جنوس ، أخذت عنه البلاغة واصول الحديث ، وكان
حسن الخط والانشاء ، له شعر فائق واتقاء رائق
يذكرنا بنس ابن الخطيب ، الى صفة عالية ، وإباء
وشمم ، توفي عام واحد وثلاثين وثلاثمائة وألف ،
وأقبر بالزاوية الناصرية .

وعن الفقيه الفرضي : ابي العباس احمد بن
القاضي العدل سبيدي محمد بن ابراهيم ، أخذت عنه
القرائن وقلة القضاء ، وكان مبنيا في فن القرائن
وله فيه كتابات : منها كتابة في احكام الختشي
المشكك ، وأخرى في المسألة الاكدرية .

وعن الامام النابك ، الفقيه المتجرب ، ابي
العباس احمد بن ابراهيم الجري السلوي عرف
بابن الفقيه ، أخذت عنه البلاغة ، والجغرافيا بطريق
بني المسائل ومذاستها بمنزلة ، وعن الغريب غروقة
بهذا الفن على بعد وسطه عنه اذ ذاك ، وبه تدربت
على الانشاء ، وأصل هذا الفاضل - حسبما قلقت
عنه - من اولاد برجون بقصر تضاء وأنه شريف
النسب من العمرانيين ، ونسب ذلك لابن رجون في
كتاب له في الانساب ، وكان - روح الله روحه -
متمكنا من الفقه وقواعده ، ومن علوم المعقول ، مثقنا
حق الاتقان ، وامتاز - في عصره - بالشجافى عن
الدنيا وزهرتها ، وحلاه بعض اجل عصرنا ، بعقائد
مغرب ، في هذا المغرب ، فقد للافاء ستين عديدة
عرف فيها بالصدق بالعق ، وكان يستغرق في
فتاواه الايام من غير ان يتقاضى على ذلك اجرة
زهادة ووراء ، كنت اردد اليه بمنزلة يسلا ، فآرى
غالبا عارفا بالدنيا ، متقشفا في علمه وفكره ، فإ
نال من الدنيا ولا تالت عنه ، وبقي - كذلك - حتى
لقى الله ، فحيثا له .

ومن الشيوخ الذين أخذت عنهم : الشيخ
المقرئ الرياضي ، الميمني بن عبد السلام متجنوش
الاندلسي ثم الجزائري ثم الرباطي ، هذا الرجل من
الافراد الافذاذ الذين لا يوجد بهم الدهر الا غبا ، فمع
مشاركته في العلوم ، امتاز بالتمهر في علوم القراءة .

والحساب والفلك، وله التصانيف الوافرة والمنظومات
العديدة في الأغراض المتنوعة، فمنها «شرح منظومة
ابن الهيثم في الجبر والمقابلة»، إزاء في جزين
و «نتيجة الإطوار»، في استخراج الأبعاد بالأعداد،
في علم المساحة و «الألوك»، التي تحفة الملوك، في
علم التوقيت و «شرح فرائض خليل»، في سجله ضخيم
استخرج فيه العمليات الحسابية بطريق الأعمال
الأربعة، أخذت هذه التوقيت، والحساب، انتقل إلى
دار الكرازة ليلة الخامس عشر من ربيع الأول عام
1344، ودفن بروضه الولي الصالح سيدي الحسن
بن سعيد الزان بالرباط، تعبدت الله برحمته.

وبينهم الطوف الراشح، أبو شعيب بن عبد
الرحمن الدكالي، أصفه من ذكالة: القليل المشتهر
بالمغرب، ومن الغربية منه، وهم النازلون حول
مدينة إزيرة لم يبق منها الا اطلالة دارية تعرف بالشرقية،
وقد عني - أيضا - معترية بالطين والتمتد والراء،
كذا تلقينه عن بعض ثقات ذكالة، وضبطه - بالقلم -
صاحب سلسلة الذهب المنقودة وتبعه في «سلوة
الانكاس» - بالثون والزاي، وأرى ان الصواب الاول
وعينا اولاد ابن ابراهيم المشهورون بناس.

هذا القاضل - بعدما أخذ القرآن بالسبع وحفظه
مختصر خليل وتوضيح ابن هشام وغيرها من الفنون
بشده - وحل إلى المشرق ودخل الأزهر وتخرج في
الحديث، ثم بقي عنده أيام القسري أيام التتريك
دعوه أمير مكة، وكانت له غنم حظوة، وبعد وفاته
آب إلى المغرب أيام المولى عبد الحفيظ العلوي،
فأكرم وقادته واستقضاء بمراكش، ثم استبدت إليه
وزارة العدلية والمعارف والاستئناف، ثم فصيل عتبه
الاستئناف، ثم استعفى وتبوء الرباط، ورأى ان
السكنى به اسلم غائقة لمن كان يهتصب عال يحسد
عليه، وحطى إلى قبيلة زعيم جارة الرباط، فافتنى
فيها ضياعا نافعة، وإلاحة واسعة، وتجارة رابحة.

وقد خيات له الأقدار درس كتب جليلة فل ان
يدرسها غيره في هذا العصر كالكتيب الستة، والشفاة
وتفسير ذي الجلالين، والنسفي، وحز الآمانى
للشافعي، ومختصر خليل، وتلخيص المتيح،
وأسانيد البلاغة، وأمثال القالي، والنية ابن مالك
بالاشعوني، وغيرها.

لازمة سنتين عديدة تلقيت عليه فيها غلوما حمة
بل بحارا زاخرة: من علوم الحديث والتفسير وغيرها

وسمعت عليه - يوم عاشوراء - الحديث المتسلسل
بعاشوراء.

توفي - رحمه الله - بثمان جنادى 1 عام 37
واقبر بفريج المولى المكي بن محمد

ومنهم شيخ الشيوخ أبو حامد المكي بن محمد
بن علي عرف بالبطاوي الشرشالي، أصلهم من
شرشال عمالة الجزائر، من ذرية أبي مهدي عيسى
الغبريني التونسي: الفقيه المشهور.

هو أجل علماء الرباط قدرا، وأنبههم ذكرا،
جلس للتدريس السنين العديدة، ودرس الفنون
المختلفة، وانتفع به الخلق الكثير من أهل الرباط
وعبرهم، لما خصه الله به من حسن البيان، والدلاق
اللسان، وبعبارة حلوة تلج القلوب بلا استئذان،
وعلم تنهار كالأنهار، حضرت عليه بعض ذروسه
لرسالة ابن أبي زيد، وليرة المديح - في أيام
المولد النبوي - بشرحه: «تسيم الزودة». عن تيسيم
البودة، فكان يملئ علي البيت الواحد - من علوم
السير والمبلاغة وغيرها - ما يدعش ويخرس. وكان
له مجلس حافل.

ولما وفد القضاء بالرباط وشغنته شواغله
انصدعت تلك الجموع، وخلت تلك المعاهد وأقوت
تلك الربوع، وأحاض تلاوته في كل نحو يتلمسون
عن سيد تلك الثلثة، وبيل تلك الغلة، وعيقات.

- ان الزمان يشله ليخيل -

فغادر القضاء عدة سنوات، ولما قضت عليه
أحوال الوقت بالتخلي، أوز إلى بيته، وانعاش إلى
وكره، واعتزل الناس وعا اعتزله، فكان يتوارى
عنه الفضلاء من كل صوب، وأصبح بيته منتدي
أدبيا يعشوا إليه كل وارد، ويصاق إليه كل طارف
وتأله، لما امتار به من العلم الجم، والفيل الوافر،
وابسام الثمر، والشرح الصدر، والتواضع الحفي،
وأخفة الروح، ودقة النكتة، قد انشأ بركة الارب
واضطلع به، فكان يجري منه مجرى النسي، اذا
تكلم كانت كلماته كنوزات تظن، وإذا سكث علاه
عن الابهة والوقار ما هو جدير به وله أجل، وقد خص
ترجمته حفيضا ورفيقنا في الطلب، الاديب المؤرج
السيد محمد بوجنادر، بتصنيف وسيم: «أزهار
الخمائل المستكية». باختيار الشماثل المكية.

منها :

فلا تسألوا عبد اللطيف وقد قضى
بنابه لما شاعده العلم في هلك

يعني الحاج عبد اللطيف الجافي من خيرة أهل
الرباط : جاء للعزاء فيه ، فكان من قدر الله أن مات :
- فجأة - بباب داره - ومنها وقد أجاد تمثيل درسه
واملاته

رباسته في الدين عز تقصيرها
يمثل في تدريسه تجرة الملك

تراه كمفوح البحر يدفعه بعضه
الدفاع هزبره بزار الفلك

ومنها :

عليه سلام الله حيا وعينا
وفي جنة المأوى وفي قرية المكني

• • •

والى هنا ينتهي الموجود من فهرس «الاتصال
بالرجال» . وقد خلت هذه القطعة من ذكر المجيزين
للمترجم ، وقد عرفنا اثنين منهم حيث ورد الالباح
بهما صدر هذه الدراسة حسب تسلسل وفاتيها :

تأخر الرباط أبو العباس أحمد بن محمد بناني
الذي يحيله صاحب الترجمة بفيدينا ومجيزنا في
طالعة رسالة «أحمد الجفن» سابقة الذكر عند رقم 19.

أما المجيز الثاني : فهو أبو العباس أحمد بن
محمد ابن الخطاط شيخ المجلس العلوي بقسن ، وقد
كان مترجما يتوهم بإجازته له في بعض مذكراته .

الرباط : محمد المنوني

وأما تصانيفه وكتابه وأدبياته وأشعاره
ومساجلاته تحدث عن البحر ولا حرج . فمن تصانيفه
نبرج قافية ابن الزنان . سيماء : «اقتطاف زحرات
الاقنان» . فن دوحة قافية ابن الزنان » : وشرح مقصورة
المكودي في المديح النبوي ، سماء : «ازغار الاغصان
المقصورة» . من زياض اثنان المقصورة » : وحاشية
على شرح الجبل لعمدة البوصيري . و «مضراج
الراقي» . الى القية العراقي » : في مصطلح الحديث :
وشرح الكعبية . وبسرة المديح . ولاهية العرب
للسنفرى . ولاهية العجم للطغرائي ، وشرح على
التوسيع السهر :

انت بما قد سقيت شارب
من زائق كنان او كندر

وشرح على نظم العطار في النخوة ، في استلوه
عجيب يرقص ويضطرب ، الى غير ذلك من تأليفه التي
تنيف على الستين .

وفي هذه الايام اقعد ووهن منه العظم وحل به
الرجى ، فأصبح لا حراك به ، فقضت تلك العبارات
ودعيت تلك الاشارات : والقوة التي القوة المتين :
وبعد كتبي لهذا رأيت - وأنا بشرقة - كان الشيخ
في محفل بأحسن زى وهو في عترة ، فاقده في
خاطري أنه المحق برية ، فلما خرجت - صياحا -
لم يوتى الا أنا وفاته . وكانت يوم الاربعاء فاتح
محرم خمسة وخمسين ، وأخير بضمير مولاي المكني
ابن محمد الوزاني . فرحمه الله رحمة واسعة .

وعين رماه الأديب الأيمن : السيد العباس
الشرافي بقصيدة فائقة منها :

يكنه السما والارض والمجد والعلو
يكنه نجوم الليل تسبح في الفلك
يكنه العالي والمنابر حيث لم
تجده اعظا بهم بالقفل والشراف

عَصْرُ ابْنِ الْخَطِيبِ

لِلأستاذ
حسن السائح

يقولنا ... وكان عصر الثغافل الحضاري والمصراع الثقافي هو القرن الثامن الهجري الذي عاش ابن الخطيب أحداثه بل شيئا منها يكثر من الثقة أولا ، ثم يكثر من الحذر ثانيا . واخيرا ، يكثر من الشك والقلق ...

ولعل القرن الثامن الذي شاهد انهيار الخلافة الإسلامية ودخول العالم الإسلامي مرحلة اللامركزية وتعدد الدول المتنازعة واضطراب الدويلات وتنافسها شاعدا في نفس الوقت قوة الثقافة الانبلاسية وثرائها علوم المسلمين بسبب الوحدة الثقافية والحضارية التي كانت اتية بالمقابلة الهائلة بعد انهيار الامبراطورية المقدونية وهكذا كان العلماء والكُتاب تغالبوا من الارتباط بالوطن والاقليم لأنهم أصبحوا يتجاوزون الاوطان والاقليم الى الدفاع عن حوزة العالم الإسلامي في كل جهة من جهاته ، كما يقاوم الجندي وراء قدامك الرمال ويتخلى عنها السيف الضيف الثاني اذا وهي الصف الأول ، ولهذا فإن من العسير أن تقع ابن الخطيب او ابن خلدون او الحصري في وطن من الاوطان الإسلامية دون أن نشعر بشيء من الجرح فيه اليه كثير من المترجمين والمؤرخين القدماء الذين إذا تحدثوا عن علم من اعلام هذه الحقبة قبلوا فيه هو من مدينة كذا مولدا ... ومدينة كذا نشأة ... ومدينة كذا ...

عاصر ابن الخطيب نهاية الجروب الضليية وما حطت معالم الاسلام من كتابات وصدمات : فقد كانت انصبوا عسكريا للمسلمين ، ولكنها كانت بداية انهيار لغبارتهم ، ومنحدرا لدولتهم ، حتى اذا اخس المسلمون اتية خاسرا من شرها اذ بالهجوم التتاري يوالي تدميرها للممالك التي اقامه المسلمون يقول قوائهم ضد العلوان الجديد ، ورغم انهم عوامل تصفية الاسلام في الشرق والغرب فان عظمة الاسلام تجلت من جديد (اولا) لتعطي الى اوروبا مفاهيم انسانية جديدة شكلت الفكر الحر في معالم الكتابة المتخلفة (ثانيا) في اسلام التنازل الذين خرجوا من جوف اقبال الإسلامية ليحملوا رسالة الاسلام التي اتقاء آسيا ... وبذلك ظهرت في الغرب نبضة جديدة بشرت بعهد التنوير ، كما وصل الاسلام الى أقصى الشرق ... وكانت نتيجة جهود كفاح الاسلام في جميع رصيف الثروة المادية والذهبية المكسدة ليحصل منها العصب المتادي لثناء النهضة الإسلامية شيممة سائلة سرقها الغرب الصليبي لبدء اقتصادي متعبدا من كفاح الاسلام لتحقيق هذه الثروة ، ومن كفاحه لصد الغزو التتاري ... وبذلك اتيج لأوروبا أن تدخل العصر الصناعي ، اما العالم الإسلامي فقد كان كالام الرؤوم التي أعطت معصرة دنها حلبا لأوروبا ولقتتها خلاصة علمها وتجربتها ، ولكن أوروبا لم تلبث أن أصبحت عاقبة تجازي عن الخير شرا ، وعن المحبة

وهكذا يسبونه الى كل مدينة اثر فيها وتأثر بها ولادة ونشأة ودراية ووظيفة وسكتا وموتا ...

وابن الخطيب ولد بالاندلس ونشأ بها واكتسب بفرطاطة التصرين ، ولكنه انتقل الى المغرب وتحول فيه وكتب عنه كثيرا وخدم بني مرين سواء في الاندلس او في المغرب ، وكتب في المغرب بعض مؤلفاته ، وجعله مكانا لاقامته تانيا ، وتوفي فيه ... واهتم بالمقاربة كذلك بالناحية وكتبه فاحتفظوا له بثراته وتناقلوه بينهم من التسعة والحدب عليه باعتباره امانة في عنقه .

وقد احب ابن الخطيب المغرب وكتب عن مدله وقراه ، وترجم لاعلامه وراسل كثيرا من كتايه ومفكره ووصف في شعره ارضه وسماه فامتزجت عاطفته بحب المغرب وخدمته باعتباره خصيا للإسلام والمسلمين . ولولا المقاربة لطاع كثير من آثار ابن الخطيب ، ولولا المعرى لما عرف العالم الاسلامي منذ عصر المقرئ الى اليوم عبقرة مؤلف الاخطاة ...

ولعل القرن الثامن الهجري كان عصر امتزاج المغرب والاندلس ، بل اندماجهما في حلف مقدس لمقاومة الحروب الصليبية القريبة ، هذا الامتزاج الذي بدأ منذ عهد المرابطين ووصل القمة في عصر بني مرين ثم انهيار بسبب انهيار غرناطة الان مضيقهما ارتبط ارتباطا وثيقا برسالتهما السياسية والعسكرية ...

واخيرا فما ظنك بوطن ما يزال يحتفظ بمدون ابن الخطيب وحفدته وبقايا اسرته وتراثه ، ونتاجه ان احق الناس بميراثه وتولى الاهتمام به وليس احق الناس بذلك من اقصاء وابعدة وتلف ثرائه واقتباع نتاجه واجلي ابتاءه واحفاده

وبعد فان المغرب احق الناس بابن الخطيب واقربهم اليه تأثرا وتأثرا . ولهذا استحاول في هذا الكتاب الصغير ان تعرف بابن الخطيب بمناسبة ذكرى مرور ستمائة سنة على وفاته .

وكان القرن الثامن الهجري بداية التحول في التاريخ الاسلامي . بل كان قمة الجيل الذي اتمت فيه الحضارة الاسلامية نهاية الصعود ، لتأخذ طريقها نحو الانحدار ولتقيم الناج هذا القرن واعماله وتلقي على العالم الاسلامي نظرة عجيلى حتى تقف على معالمه

الخضارية والثقافية وليتدى بالاندلس التي كانت المجدى الصامد في وجه هجمات الغرب المسيحي حيث كانت تعاني اعتف الازمات السياسية والحربية ، ذلك لان موقعها في واجهة المعركة مع المسيحيين كآخر تفرق الغرب من تطور الاسلام واشتداد حركة الاسترجاع « المسيحية » التي استمرت زاحقة الى آخر معقل لاذية المسلمين في الجنوب الشرقي كبل ذلك بفعل نهايتها بعد ان ظلت غرناطة طيلة حقبة مديدة حاضرة الاسلام وحاملة راية المقاومة في الاندلس ، برز الاعداء تارة بالبين والدياء وتارة بالشدة والحرب ويفتخم المسلمون جميعا بها يدافعون عما تبقى من مملكتهم بما اوتوا من قوة ، ويضاضون بفالهم من ايد ، وسالطت الدولة المرينية المغربية حكومة غرناطة فآزوتها بدون حساب وقد كان من الضروري ان يتعاون المغرب والاندلس ضد العدوان تعاونيا سياسيا وعسكريا واقتصاديا ورغم تروى البلاد الاندلسية عسكريا وسياسيا واجتماعيا فقد بقيت تحافظ على مكانتها الاقتصادية والثقافية فعاش في هذا الفضاء اكبر المفكرين الاندلسيين وظلت غرناطة مركزا ثقافيا مهما ومجالا اقتصاديا وفلاحيا عظيما ولم يلبث الصراع بين الفصححة والاسلام ان اشتد وبالاخص في عهد ابى الوليد اسماعيل سلطان غرناطة سنة 713 الذي كان عهده بداية اجياء الجهاد ضد الفساليين قائلين عليهم في حروب 716 هـ ثم لم تلبث سنة 718 حتى غاود المسيحيون حمايتهم على غرناطة وتواحيها بمعاوننة المسيحيين الاوربيين فردهم المسلمون عنها سددحين كما جاءت تفاصيل ذلك في تاريخ ابن خلدون واخيه المسلمون يهاجمون المسيحيين من جديد السى ان انتقمه السلطان اسماعيل وخلفه ابنه ابو عبد الله محمد الذي شاهد عصره ثورة داخلية برعامة عمه محمد بن قرج قائلين القشتاليون الفرصة ليهاجموا غرناطة واضعوا السلطان ان يهادن الشوار ويستعين بالحكومة المغربية . لكن استيلاء الصارى على اغلب خضون الجزيرة جعل من الصعب استمرار وصول العون والمؤازرة من المغرب ولذلك غير ابن الاحمر الى المدوة المغربية في سنة 732 مستنجدا بابنى الحسن المريني الذي لبى دعوة الجهاد والحرب فاستعادت غرناطة حصونها ومراكزها الانامية غير ان محمد بن اسماعيل قتل بيد بعض أعوان ابى عملاء الحاقدين عليه فبات شهيدا ، وخلفه ابو الحجاج

يوسف بن أبي الوليد الذي كان عازلاً فبنى قسرى السادسة عشرة من عمره والذي أصبح عالمنا أدبياً وشاعراً نبيلاً شجع الأدب والفن والعمران وأبعد جميع الثوار عن بلاده وبذلك استقرت الحياة قسرى غرناطة وفي عهده تولى الحاجب أبو النعيم رضوان الوزارة ونجح نجاحاً واضحاً ولكن أيا رضوان استبد بشؤون الدولة فاعتقله السلطان يوسف ونفاه سنة 740 هـ ثم أعاده إلى منصبه من جديد ، وكان من وزراء هذا العصر أبو الحسين علي بن الجباب المتوفى سنة 749 والذي كان ابن الخطيب مؤرخ دولة النصرين ومملكة غرناطة كاتب سره والمهيا للوزارة من بعده

ويستلزمنا أن نذكر أن في عهد يوسف كثرت غزوات المسلمين للمسلمين تحت قيادة الغوثي الحادي عشر . وأن غرناطة اعتادت أن تكون لبني مرين لدوره الخطر عنها مما جعل القشتاليين يعلمون بحذق لمقاومة التلاحم بين الأندلس والمغرب ، فاعيدوا أساطيل قوية باتحاد قشتالة وأرغون - والبرتغال لمنع وصول استعدادات المغرب إلى غرناطة ، وبارك البابا حملتهم المسيحية وهاجموا في قوة ضاربة المفاربات على الشاطئ الأندلسي وقتل في المعركة أبو مالك الغزني ولد السلطان أبي الحسن سنة 740 واستطاعوا بذلك الوصول إلى ضواحي مملكة غرناطة فتوجه السلطان أبو الحسن المريني بنفسه إلى الميدان وعبر إلى الأندلس فتأول المسيحيين 741 غرير أنه انهزم بعد انتصاراته الأولى فازداد حماش الأسبانيين واستولوا على قلعة بني سعيد بأجواز غرناطة ثم تآلهم ابن الحسن ثانياً فانهزم أسطولهم (سنة 742) وسقطت الجزيرة في يد الأسبان وتوالت على الأندلس الأحداث وأصبحت بدهية الزيادة الكبير الذي تم حرق البحر الأبيض المتوسط سنة 749 بما زاد قسرى المحنة ، ثم توجه المسيحيون لمحاصرة جبل طارق فانهزموا ومات الغوثي وخلفه على العرش ابنه بطريرك المعروف بالقنسي ، ورغم هذه الأحداث السارية فقد استمرت مملكة أبي الحجاج يوسف صامدة إلى سنة 755 حين دخلت دولة بني الأحمر في مرحلة الانحلال كما توفي السلطان أبو الحسن المريني سنة 752 وأصبحت الدولة المرينية تضعف ساسي في الداخل والخارج ، ولما توفي أبو الحجاج خلفه ابنه يوسف الملقب بالفني بالله سنة 755 واستمر حكمه إلى سنة 760 ومقرت في عهده

غرناطة ثورة عظيمة انتهت باقصائه عن الحكم وأبعد وزيره إسحاق الدين بن الخطيب ، لم استرد ملكة سنة 763 هجرية واعتمد حكومة قوية لتدبير شؤون البلاد على رأسها ابن الخطيب وكان من سفراته ابن خلدون الذي سافر إلى مملكة المسيحيين قسرى الشمال ، وأخبراً تطور الحرب بين القشتاليين والأندلسيين في معارك عسكرية انتهت بسقوط غرناطة ونهاية حكم المسلمين في الأندلس ، أما في المغرب فإن تردد بني مرين في استرداد غرناطة تعطلت مكائهم فتمرعروا للنقد والفن الداخلية وبالتالي وهتت مكائهم وضعف أمرهم ، هذه نهاية غرناطة الإسلامية التي رغم ماكانت تعاني من انحلال سياسي فإن سكانها جعلوا أمثا فردوساً أرضياً حيث أوقفوا مزارعهم على تسميتها وتطورها ، ولولا أنها عاشت أزمة مخالم التفتت التي حدثت أركانها لما غادر المرسكو جنتهم مكرهين متفرقين قسرى البلاد إبادي سبا إذ رغم هذه المآسي السياسة ظلت غرناطة في تقدم اقتصادي وفلاحي وتجاري وثقافي ، وكان هذا النشاط المختلف التواحي عائلاً في تجدده قوتها وتماسكها فاستطاعت البقاء زهاء قرنين ونصف متماراً بطابعها الخاص وبميزات انطولوجية وعقلية واجتماعية أعطت شخصية لهذه المملكة التي استقطبت النشاط الفكري والأدبي في عهد السلطان والأدب العالم أبي الحجاج يوسف (733 - 755) وقسرى عهد ولده السلطان محمد الفني بالله (755 - 793) ثم في عهد الأمير أبي الوليد إسماعيل ابن السلطان يوسف الثاني الذي كان أدبياً كبيراً كما كان رجال وزراء الدولة النصرية من أعلام الثقافة والفكر أما الأدباء والفقهاء والمحدثون والأطباء والمعلمون والفنانون ، فقد كانت تبعج بهم رحيات غرناطة التي فافت أئينا وبناداد والقيروان وقروية .

ونذكر من مشاهيرها الوزير ابن الحكيم المتوفى سنة 708 هـ ومحمد ابن خنيس المتوفى سنة 708 هـ وأبا حيان القرناطي المتوفى سنة 745 وأبا الحسن علي بن الجباب المتوفى عام الوياء الكبير سنة 749 ومحمد بن جابر الأندلسي ، وابن سلبطور المتوفى سنة 755 ، ومحمد بن جزى كاتب رجلة بن بطولمة المتوفى سنة 757 وابن خاتمة المتوفى سنة 770 وابن زمرك 797 وفرج بن لب المتوفى سنة 981 وأبا محمد بن مطية ومن المؤرخين محمد بن

يحيى بن سعيد مؤلف التفتيح المتوفى 741 وسنن
 البقرين والعروحين أبي بكر محمد بن إدريس الغرائي
 والقاضي أحمد بن الزبير المتوفى سنة 708 وعلي
 بن يحي الفوارى المتوفى سنة 750 ومحمد بن علي
 الفخار الألبيري المتوفى سنة 754 ومن رجال
 التصوف علي بن فرخون المتوفى سنة 751 وإبراهيم
 الفرسي المتوفى سنة 796 ومن الفقهاء أبا القاسم بن
 الشاط مؤلف البرنامج المتوفى سنة 725 والقاضي
 بن سليمان المتوفى سنة 767 وعبد الله ابن جيزي
 مؤلف التسهيل المتوفى سنة 693 وأبا عبد الله
 الشريفي وأبا الحسن علي بن عبد الله الناهي
 الجذامي صاحب البرقية العليا ، ويحيى بن هذيل
 الفيلسوف الشهير المتوفى سنة 753 وشيخه
 أبا عثمان بن أحمد بن ليون النجيني وفي الطب
 ابن مهنا شارح الفية ابن سينا ، ومن أصحاب
 الفنون عاتق المان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة
 776 كما ازدهرت الفنون سواء التشكيلية أو
 المعمارية أو النحت في معمار غرناطة .

وتترك غرناطة لتعود إلى المغرب في القرن
 الثامن ، حيث ترى كيف عاش ابن الخطيب حياته
 الأحداث وإرهاقاتها وصور هذا الصراع أهم تصويرو
 المؤرخ الزركشي في تاريخ الدولتين ، كما حلل
 أسبابه المؤرخ الاجتماعي ابن خلدون : لقد جاء
 المرينيون بعد أن انهارت الدولة النوحية العظيمة
 التي كانت تمتد من أقصى المغرب الأقصى غربا إلى
 أقصى تونس شرقا وكان من الطبيعي أن تخلقها
 دويلات كثيرة منها ما استقل بنفسه ومنها ما اجتمعت
 بقية ومنها ما بقي في حدوده الطبيعية ، ومنها ما
 اجتاز هذه الحدود لتحقيق الاستراطة كما كانت
 الحال في عهد الموحدين ، ومن هذه الدول مملكة
 بني حفص في تونس ودولة بني عبد الواد في تلمسان
 1 والمغرب الأوسط 2 ومملكة بني مرين في المغرب
 الأقصى وإمارة بجاية وإمارة بونة التي كانت تستغل
 مرة بيني مرين ، ومرة بيني حفص وأحيانا بيني عبد
 الواد ، كما كان من الطبيعي أن تثير هذه الإمارات
 منافسة بين الدول للاستيلاء عليها كما كانت هي
 كذلك تستغل الخلافات لتقف في وجه المهددين
 لها ، ولكن الدولة التي استطاعت أن تستولي على

تمام الحكم وتمارسه كدولة وريثة لعظمة الموحدين
 هي دولة بني مرين في المغرب ، ذلك لأنها كانت تملك
 الشطر الأكبر من المغرب الغربي . وأنها كانت الدولة
 التي دافعت عن الإسلام بالأندلس ونوعت حركة الإنقاذ
 وظهر بين ملوكها النظام أبو الحسن المريني السدي
 عاصره ابن الخطيب وأبو الحسن العربي هذا لولي
 الحكم سنة 731 وغزا جبل طارق ودخل تلمسان سنة
 735 كما دخل تونس سنة 748 هجرية . فاصبحت
 مملكته تضم بلاد المغرب بإجزائه الثلاثة . وتمتد إلى
 وندة بالأندلس حصار قصير ابن خلدون وكان المغرب
 الأدنى غير متراح لهذه الانتصارات . فثار الحفصيون
 على بني مرين واستردوا ملكهم ، وعاشوا حقبة
 في صراع داخلي بين مؤيد للانفصال وداع للوحدة ،
 وكان الوزير عبد الله بن تفرحين داعية الوحدة الذي
 خرج على الملك الحفصي وأقام بدله أخاه أبا إسحاق
 بن يحي الحفصي تحت كنفه (سنة 751) ، وبعد
 سنتين اغار على بلاده أمير قسنطينة أبو زيد حفيد
 السلطان يحي الحفصي فانهزم أبو زيد ، وقصر أبو
 عثمان المريني في فتح تونس لها استعداد تلمسان التي
 فتحها أبو من قبل ، وزحف إليها سنة 752 وقتل
 سلطانها أبا سعيد كما دخلت بجاية في طاعته ووجد
 المغرب تحت حكمه ولم يور هذا الصراع في ازدهار
 الحركة الأدبية والعلمية ، بل أنه أذى المناسبات
 وساعد على ضعف الثقافة وتبادل العلماء الذين
 حقلت بهم القيود ونقلوا حيث شاءوا . يجسدون
 المساعدة والتقدير في كل مكان وبخطيب ودهم
 الملوك والأمراء ليكونوا كتابا ووزراء وشعراء ورجال
 الأثناء والشورى في حكوماتهم ، وقد قال ابن خلدون في
 التفرقة : « لها استولى السلطان أبو الحسن على
 تلمسان ورفع من منزلة ابن الإمام أبي زيد وأبى
 موسى واختصهما بالشورى في بلدهما ثم أدنى أبا
 التور وقرب مجلسه وولاه قضاء سنكرة » وكان ابن
 الخطيب أحد هؤلاء العباقرة الذين تنقلوا بين بلاطات
 هذا العصر كما كان ابن خلدون من هؤلاء الذين تفتق
 نبوغهم في هذه البلاطات والمواضع والمعاهد ، وقد
 تقدم المغرب اقتصاديا كما شاهد رخاء وتطورا
 مائيا هائلا وبالأخص في صنع الساعات المائية
 والهندسية كذلك التي كانت بمدرسة أبي عثمان والتي
 كانت في بجاية التي جاء وصفها في رحلة التجاني

وفي عهد الناصر أخذ الاندلسيون يهاجرون السبي
المغرب وينهضون باقتصاد البلاد حتى أصبح
المغرب الأقصى جناح القروية العربي يحقق يقصود
التحرر عند الصليبيين وضد المؤامرات المسيحية
وتبعاً لذلك كان السلطان أبو الحسن يرسل سفيره
إلى الملك الناصر بن قلاوون صاحب مصر والشام
والخجاز يخبره بفتح تونس وتونس وتحصين النواصيات
وتنظيم مراكب الحج - كما أرسل عمر بن يحيى وعطية
بن مهليل والمزوار إلى الناصر أيضاً بهذا الصنيع
وأهدى ثلاثة مصاحف بخط يده إلى المساجد الثلاثة
مع أوقاف عليها - وكذلك وأصل ولد الناصر أبا الغلاء
صاحب حماة ومؤلف كتاب المختصر في أخبار
السيبر - وتفضل بملك ما إلى منسى بن موسى الذي لقيه
أبو بطوطه في رحلته حيث كانت عامة من بلاد الإسلام
العظيمة الشديدة الاتصال بالمغرب تهتم اقتصاداً
بغائها وتبرها وغير ذلك كما كان ملكها من عظماء
ملوك الإسلام - ويروي على ابن فضل الله العمري أن
منسى بن موسى سلطان التكرور من السودان المغربي
حج بيت الله سنة 724 هـ وسأله السلطان عن كيفية
إقبال الملك إليه فحدثه عن والده وتجهيزه لمبايعة
من السفن لتخبره بنجاة البحر ثم أرسل بعثة أخرى
بعد ضياع الأولى مما يدل على مكانة هذه الدولة
وطموحها وحضارتها وكان هدف المرينيين تحقيق
الإمبراطورية المغربية التي من طبيعتها أن تشجع
الذاتية الإقليمية واللامركزية وهذا ما لم يستطع
الوصول إليه إلا على حساب حكومتها المركزية بل
أن الذاتية ازدهرت في عهدهم وتفرعت عنها
طرق بسبب كثرة البراطين ذوي الاتجاه الروحي
الصوفي فادت إلى تكوين أقطاعات جمهورية ، وكان
أنوار المسلمين في الأندلس مبعاً في تكريس
روح الجهد واللجوء إلى التصوف السليبي ، كما
ظهرت الطريقة الجوزية والتبائية ، بعد ذلك من
استداد التنحية على أنه بجانب هذا الاتجاه الشوقي
كان هناك عمل متواصل لحياء المذهب السنن على
الطريقة المالكية ، ولهذا فقد كان مذهب المرينيين
مذهباً مالكيًا ولذلك أسسوا الزاوية لتحقيق هذه
الدعوة وتلقينها في مدارس داخلية ، واشتروا غنى
سير التعليم بها حسب توجيههم الفقهي وشجعوا
الغلبة على الإجابة بغضمة فاس ، ليرثوا من معين
المذهبية الموجهة ، وزان في تمكينهم للقرويين أن

كانوا يسارعون إلى الاحتفاظ بما تبقى من ثروات
الأندلس وأرواء خزائنها ، فنقلوا الكتب من الأندلس
إلى فاس ، ومراكش ويذكر المؤرخون أن ثلاثة
عشر عملاً من نوائس المخطوطات نقلت إلى فاس .
وكما أروا الكتب والترات ، والفن أروا العلماء المرابطين
وسعوا إلى تحسين الثقافة في الجناح الغربي للعالم
الإسلامي ولم يلبث المسيحيون أن هاجموا الساطية
المغربية من جديد بعد أن استولوا على الأندلس ثانياً
فسقطت عدة مدن مغربية في يد العدو المسيحية التي
استولى عليها البرتغال سنة 818 هجرية (1415 م)
ولاذ علموا بالقرويين التي أصبحت مركز الانتفاع
الثقافي في العالم الإسلامي وتعددت المدارس بالمغرب
وزاد المرينيون على ما بقي منها في عهد المرابطين
والموحدين وكذلك تعددت الخزائن بها ، ولذلك
ازدهرت القرويين في عصر بني مرين ازدهارا كبيراً
ويقول ليفي بروفانسل أنه يفضل ملوك بني مرين لم
تكن عاصمة فاس في القرن الرابع عشر الميلادي لتجسد
العناصر الإسلامية الأخرى . بل أن باديا ليس المعروف
بالعباسي اختير فاساً بمثابة أغريقيا ، وذكر الدكتور
فوسنو مثل هذا الفرق في كتابه القديم بالمغرب
وأصبحت القرويين طلبة الاجالسب من مختلف
الجنسيات والديار كما قال ذلك دو كاميرو . . . وذكر
كارمال شارسي في كتاب (سفر السى المغرب)
أن مدارس فاس كانت طوال مدة متديدة أولى مدارس
العالم ، عرفت منها طلاب من أوروبا وجملاؤها بها
أسسوا به الحضارة المغربية التي اشاعت نورها في
اسبانيا فاضاءت جوانب أوروبا وشجعت الحركة
التعليمية تشجيعاً منقطع النظير ، وينسى أبو يوسف
المدارس والمفاهد ورتب الأوقاف وأجرى المهرجات
تشجيعاً للعلماء والطلبة في كل شهر ، كما ينسى
الروايا في الفوات التالية وأوقف عليها (الأوقاف)
وسار المرينيون من بعد على مثاله فأنشأ أبو الحسن
في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى والأوسط مدرسة .
في فاس وتازة ومراكش ومكناس وطلجة وسبتة وألفا
وأزمور وأسفي وأغمات ، والقصر الكبير ، كما جاء
في المسند الصحيح لابن مرزوق ، ولم يسلم عيش
المرينيين من فقد فقد وقف محمد الأبلق استاذ ابن خلدون
خمس بناء المدارس ولاحظ أن العلم أذهب بناء هذه
المدارس وأبدا أحمد بابا السودانى وكان غضبي
المرينيين عراً لتقدم عمراني عظيم فقد انتهت هذه
كالمتصورة بتليان والمشيعة بفرصة المجاز وفطوان ،
وبينت عدة قلاع ومدارس ومستشفيات وقناطر ،

واستفاد الصوف من الهجرة الاندلسية التي جعلت
 زواجع الفن الغرناطي والمطاط النحت والتصوير
 والموسيقى وغير ذلك من مظاهر التقدم الاندلسي
 وبذلك شاهد المغرب رخاء ظهر اثره في غنى الطبقة
 الموسرة المبرقة فشهدت القصور المتعددة وزخرفت
 بانواع الزايج والرخام وتغيرت الفوائد تغيرا كبيرا حتى
 في مظاهر العبادات حيث امر ابو عنان المريني برفع
 القلعة الزرق في المنار يوم الجمعة اول شهر رمضان
 السرج في اوقات الليل ، اما الادب فقد نتج كثير من
 رجال النهر والفتوة ، نذكر منهم :
 المروزي ، والحضرني ، والايلي وبالمك بن
 المرحل ، والجرجاني وابن عبدون وابن المؤرخين ابن
 خلدون وابن الاوزق وابن قازي وابن ابي ذريح وابن
 عذارى ، ومن الحسويين ابن البناء وغيره كثير على
 ان التصوف ذاع في سائر ارجاء البلاد ، وجاءت في
 الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ان عهد
 الحق المريني كانت له بركة ودماء مستجاب واذا
 سمع بصلاح غبطة لزيارته . وكان ابو سعيد ، وقزا
 الناصحين ، تواضع امام ابيهم وذكر ابن الخطيب
 في اللمحة البدرية ان ابا يوسف المريني كان اشبه
 بالشيخ منه بالملك ، ويوجد في انس الفقير وعز الحفير
 لابن قنفك المعروف بابن الخطيب القسطنطيني ذكر
 للمخطوبين المفاخرة وفي كتاب شفاء المسائل لحظية
 مسائل الماع الى تاريخ التصوف في المغرب والعالم
 الاسلامي ومن أشهر رجال التصوف في هذا العصر
 الامام احمد زروق الملقب بمحاسب الصوفية ، ترك
 كتاب القواعد الذي يعتبر وثيقة مهمة عن الحركة
 الصوفية من عصره حيث ظهر كثير من المشعوذين
 فتصدى الامام زروق للكشف عنهم وشرح مذهبه
 الصوفي في القاعدة التاسعة والخمسين فقال
 لكل طريق طريقة قلغامي تصوف حوته كتب المنجاسين
 والعباد تصوف دعا اليه الغزالي في متناهجه والتمرس
 تصوف شرحه القشيري في رسالته . والنايك تصوف شرحه
 الغزالي في الاحياء والحكم تصوف حله الحاتمي
 والمتطوي تصوف نحا اليه ابن سعيد والعلاني
 تصوف جاء به البوتي في اسارده ، وللأخوي تصوفه
 قام الشاذلي بتحقيقه حيث اخص مذهبته بقوله في
 القاعدة 25 - 20 كن فقها صوفيا ولا تكن صوفيا
 فقها ومنهم محمد المقرئ صاحب الحقائق والرفائق
 ومنهم محمد بن علي الجزولي الاصولي الكبير القاضي
 بغاني على عهد ابي سعيد المريني ومنهم ابن البناء

المرائشي صاحب مراسم الطريقة في علم الحقيقة ،
 ومنهم الحقاوي الذي اعان ابا عنان المريني قس
 الضرب على ايدي المعتدين وتوثقت العلاقات
 السياسية بين دولة بني مرين والدول الاسلامية
 وبالاخص بالقاهرة ويحدثنا ابن بطوطة عن وجود
 سلطان افريقيا المخلوع زكرياء اللحياني - بالاسكندرية
 وعناية حكومة القاهرة به وعن وجود محمد المراكشي
 الذي زعم انه ابن المريني الموحدي التي اخضعت
 ملجأ للائدين من المغرب والاندلس واغنى سلاطين
 المماليك ذوي مكانة سامية بين ملوك العالم
 الاسلامي وكانت دولة المماليك بلغت عظمتها واقتدات
 حدودها شمالا حتى ليقية وجنوبا الى ما وراء الحجاز
 وغربا الى افريقيا وشمالا الى العراق وعندما استولى
 محمود ايخان المغولي في فارس على دمشق وعائلته
 جنده في بلاد الشام وقلبيين ووقف في وجهه
 المماليك عند مرج الصفر وبعد موت محمد الناصر
 سنة 1341 م لاحت مصر كثيرا من المصائب وخاصة
 في عهد محمد السلطان حسن حتى انتهت دولة
 المماليك البحرية على يد برقوق سنة 1382 م وخلفتها
 دولة المماليك البرجية او الشراكسة وفي عهد
 السلطان برقوق عاد العدا بين المماليك والممولى فاغار
 تيفورلنك على العراق وهدد بلاد الشام ، فاجبه برقوق
 جيشا لمحاربه ومات بعد قليل ليخلفه ابنه الناصر
 فرج 1399 - 1412 م . غار على حلب وسقطت
 امام غزوة حماة وحمص وعلبك ودمشق وخطب له
 على منابرها فاضطر الناصر فرج الى مهادنة الممولى
 بعد ان رأى قوة واقامهم بالاتراك العثمانيين ، وفي
 الفترة في عصر قارسل اليه وقفا ديوبالسيا لربط
 العلائق به وبعد موت السلطان الملك المؤيد سنة
 1421 م ثقات على مصر كثير من السلاطين حتى
 آل الملك الى يزسياد ثم تولى بعد موته سنة 1438
 بعض السلاطين الضعفاء مثل خشقدم الذي بدأ قس
 جهده النزاع بين المماليك والأتراك العثمانيين ثم حكم
 مصر بعد ذلك كثير من السلاطين الى ان جاء قانصوه
 الغوري 1501 م الذي بدأت في عهده بين المماليك
 والأتراك العثمانيين حروب انتهت بضم مصر الى
 السلطنة العثمانية في عهد سليم الاولى سنة 1517 م
 اما الحركة الفكرية فقد بلغت قس عهد الايوبيين
 567 - 848 (والمماليك 648 - 923) 1250 م
 1517 م مكانة عالية حيث وجهت العناية الى نشر العلوم
 الاسلامية وعمت العناية ببناء المدارس بعد ان كانت

الطلاب يختلفون إلى المساجد للدرس والقراءة وساعد
 الايوبيون والمماليك على نشر الثقافة الادبية فظهر
 كثير من الشعراء والادباء والكتاب والمؤرخين
 والحكماء من أشهرهم البوصري المتوفى سنة 695 هـ
 صاحب قصيدة البردة المشهورة في مدح الرسول
 بعد قصيدة البقرطيسية النفرية ، وابن نباتة
 المصري المتوفى سنة 768 هـ صاحب كتاب سراج المعين
 في شرح رسالة ابن زيدون وشمس الدين بن خلكتان
 المتوفى سنة (687 هـ) (1283 م) اما مؤرخوا هذا
 العصر فهم جمال الدين واخيل المتوفى سنة 697 هـ
 (1297 م) مؤلف مفرج الكرب في اخبار بني ايوب
 المختصر في اخبار البشر والمؤرخ تقي الدين
 الشيرازي سنة 845 هـ (1441 م) وهذا من أشهر
 مؤرخي مصر الإسلامية وصاحب المواعظ والاعتبار
 في ذكر الخطوط والآثار ، ويعرف باسم الخطط
 وناظر الجفأ ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك
 والمماليك انا العراق في القرن التاسع فقد شاهدت
 ركودا عظيما بعد هجمات المغول حيث انتهت الخلافة
 العباسية من بغداد وتركزت السلطة الدينية في
 القاهرة فضعفت العراق اقتصاديا وسياسيا اما
 العناصر التي قضت على الخلافة فانها دخلت من
 الاطراف الاسيوية ، وادى ذلك الى الفتح الجديدة في
 الهند والصين والسند ، قبسط السلاجقة حكمهم على
 آسيا الصغرى في الوقت الذي كانت فيه الخلافة
 العباسية لا تزال قائمة في بغداد ، كما قامت في الشرق
 اميراطورية خوارزم وهي بلاد الامراء الترك الذين جاءوا
 من خيوة واستولوا على انقاض الدولة السلجوقية
 وبسطوا سلطانهم فيما بين نهر الكنج ودجلة ويذكر
 ابن الاثير ان سيب غزير بلاد خوارزم للبلاد الاسلامية
 يرجع الى سنة 612 حين ارسل جنكيز خان وابرمست
 يمتها تجارية ولم يلبث التتار ان غاروا على بلاد ما
 وراء النهر ، ثم على ما وراء النهر وارمينية الكبرى
 وامتدت فتوحهم الى اوربا وتولى على عرش المغول
 سنة 556 هـ (1258 ميلادية) كويلاي خان الذي
 قضى على الباطية ببلاد الفرس كما قضى هو لآكو
 التتاري على مركز الخلافة في بغداد سنة 656 هـ
 (1258 م) وكان معه في ركابة بعض امراء المسلمين
 كابي بكر سيد زنجي وعندما مات كويلاي سنة
 1294 م ترك اميراطورية تاتارية عظيمة عاصمتها
 (بكين) تشمل كل بلاد الصين ومغوليا وكانت بجانبها
 اميراطورية عظيمة اخرى هي اميراطورية القنجاك في

الروسيا ، وثالثة في بلاد فارس اسمها هولكو فالبح
 يقداد المسمية اميراطورية ايجان وكذلك كانت هناك
 امارة في سيبيريا بين بلاد القنجان ومغوليا واخرى
 في بلاد تركستان يطلق عليها اميراطورية التتار او
 المغول ، ورغم اتساع اميراطورية التتار فلم يفترو
 الهند من جانب البنجاب كما لم تصل اميراطوريتهم
 الى افريقيا لانهم انهمزوا في معركة عين جالوت سنة
 (1261)

وجال ذلك دون دخولهم الى القارة الافريقية حتى
 اذا كانت سنة 1366 م سقطت اميراطورية التتار
 العظيمة على يد الودي شتون تشيخ انا في الهند فان
 محمود الغزنوي فتح البنجاب اوائل القرن الخامس
 الهجري (الحادي عشر الميلادي) ونشر الاسلام في
 دبرج الهند ومهدت الدولة التتارية في لاهور لمحمد
 بن سالم القوري وخلقائه الذين تواروا سلطنة دلي
 وحكموا بلاد افغنستان وهندستان من سنة 543 هـ
 (1148 م) الى سنة 612 هـ (1215 م) ثم وضعت
 غارات المغول بقيادة بابر هذا للانقسامات التي اضعفت
 مملكة دلي واستطاع اكبر حفيد بابر ان يظلم
 اميراطورية المغول العظام وان ينشر الاسلام في الهند
 فحارب الفجوسية حتى اذا كانت سنة 801 هـ 24
 سبتمبر 1398 م وصل تيمور الى بلاد الهند لينشر
 الاسلام بها كان غلاء الدين محمد شاه مسر اعظم
 سلاطين هذه الاسرة وكان كما يقول ابن بطوطة يتفقد
 امور دينه بنفسه وقد عملت اسرة محمد بن تغلق
 (1330 - 1412) على جعل بلاد الهند مراكز من اهم
 مراكز الحضارة الاسلامية وهكذا نرى القرنين الثامن
 والتاسع الهجريين يعيشان احداث العالم الاسلامي وهو
 في قمة مجده ليأخذ طريقه بعد ذلك الى الانحسار
 بسبب الهجمات المسيحية المتوالية عليه والتي تخفى
 وراءها حملة استعمارية تهدف الى التوسيع الاقتصادي
 واستعمار الارض ومحاربة العقيدة الاسلامية واتهامها
 بالجمود وقد كان عصر ابن الخطيب عصر نشوء
 الامبراطورية الجديدة من الشعوب الفنية المفتحة
 للاسلام التي اذا ضايعها الغرب فقد احدثت في الشرق
 واذا انقص من اطرافها المنتمون فقد امدوا بالرحابة
 المؤمنون واذا كان هذا القرن يعاني أزمة قمة الصراع
 فانه كان عصر الفكر الاسلامي في قمته عصر ابن
 الخطيب وابن خلدون وغيرهم .



أبي عبد الله محمد

المؤسس أحمد العدوي

هو: لا فيطلق هذا اللقب على أبي عثمان سعيد بن يحيى (1)، وصاحب السلوة (2) يصرح بأن المقصود بهذا اللقب هو أبو عبد الله بن أبي جعفر اسحاق فيطلق عليه أمغار الكبير . وعلى حفيده أبي عبد الله شيخ الجزولي صاحب دلائل الخيرات ، أمغار الصغير . والنظر يستصوب ما ذهب إليه صاحب التصوف .

لأن اسماعيل هو أول من دخل مع أخوته إلى المغرب من هذه الأسرة فهو عبيدها الحق - في نظرنا - بحول هذا اللقب . وقد فُتِحَ هذا اللقب وذاع حتى صار علنا يغطي جميع أفراد هذه الأسرة ، فيقال في اللهجة المغربية : « أيت أمغار » . ويتنسب إليهم الفرد أو الجماعة فيقال : الأمغاري ، والأمغاريون .

أصل هذه الأسرة ومبدأ أمرها

ذكر ابن عبد العظيم أن أصل هذه الأسرة من المدينة المنورة وأول من دخل المغرب معها هم : عبيدها الأول اسماعيل أمغار جد الأمغاريين وأخوه

هو أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر اسحاق بن محمد وينتهي نسبه إلى عبد الله بن إدريس على ما حقه صاحب السلوة (3) وخالفه ابن عبد العظيم الزموري في بهجة الناظرين (4) فأثبت نسبهم عموماً مخالفاً لما حققه صاحب السلوة .

معنى كلمة أمغار ، ومن هو أمغار ؟

كلمة أمغار إذا أطلقت في اللهجة الملاحية يقصد بها كبير القرية أو القرى الذي يقوم بشؤونها وينظر في أمورها ، ولكنها هنا تدل على معنى الأب الأكبر وهو الجد مع ما تلمح إليه الكلمة من معنى التفصيل المغنوي أيضاً ، كما هو الشأن في كلمة الشيخ في اللغة العربية سواء بسواء . ولم تتفق المصادر على الشخص الذي يحمل هذا اللقب أول الأمر من رجال هذه الأسرة . لصاحب التصوف (5) يفهم من سياق كلامه أن المقصود بها هو اسماعيل جد أبي عبد الله ، بينما يذهب صاحب بهجة الناظرين إلى أعلى من

(1) السلوة ج 2 - 218 .

(2) بهجة الناظرين ص 8 لمخيلة بن عبد العظيم الزموري بخطوطه الخزائية السامة رقم 1343 .

(3) التصوف إلى رجال التصوف لابن الريسات ص 192 .

(4) بهجة الناظرين ص 8 .

(5) السلوة ج 2 - ص 218 .

سباق كرامات أبي عبد الله أمغار كلاماً جاء فيه : فقال أبو عبد الله هذه العين هي عين فطر ورثتها عن أبي عن جدي وأرجو أن تورث عني . وهذه العين سميت قرينتها (12) وهذه العين التي يشير إليها صاحب التشوف وابن عبد العظيم هي بداخل البحر في جزيرة كان أبو عبد الله ومن رافقه يقطعون البحر إليها من غير أن يبتلوا بالماء والله أعلم .

قال ابن عبد العظيم : كان هذا المكان قبل نزول اسماعيل أمغار به غابة وإحراجاً تسكنها الوحوش ، فلما حل به وانتشر حين فضله قصده أهل بلد صنهاجة واحتفوا به وحملوه معهم إلى بيوتهم فزوجه شيخهم عبد العزيز بن بطالة بنته وكانت امرأة ضالجة فأنجبت له أبا جعفر إسحاق فنشأ على بيبة أبيه في الدين والعلم والصلاح فلما توفي قام مقامه فاعتنى بتوسيع مقامهم وعمارتهم فاقبلت الأشجار واستخرج عينا صغيرة وبني دارا وبني بازائها فسجدا وحفر بقربه بيوتا فاحسب إليه الناس وعبروا معه ذلك المكان (13) .

أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر إسحاق بن اسماعيل أمغار

هذا هو الاسم اللامع الذي طار صيته في الأفاق وأشارت إليه الأصابع بالخير ، ونطقت الألسن بفضله وورعه ، وسجلت أقلام العلماء والعارفين مراحل حياته التي أضاءها في العلم والتقوية والجهاد والخلاوة ، وشهد الخواص له ولأولاده بمرتبة البدلية فأطلقوا عليه اسم : « أبي الدلاء » .

أبو زكرياء يحيى جد الزكراويين من أهل حاجة ، وأبو يعقوب يوسف جد الشيركبيين وكان سبب انتقالهم إلى المغرب يرتكز على رؤيا ضالحة وأما الاخوية الثلاثة فسحبهم على الرحيل إلى المغرب فانتقلوا إلى جدة ، ومنها قصدوا المغرب فدخلوا إليه عن طريق مصر ، فالاستندرية ، فالقيروان ، تونس ، مينة ، فذلكالة من بلاد صنهاجة حيث مشاعدهم إلى الآن (14) . وبعد نزولهم بقرية تيط تسمى أمغار إلى حاجة وأبو يعقوب إلى شبوكة ، ولكل واحد منهما ذرية بالموضع الذي نزل به . واستقر اسماعيل بقرية تيط (15) .

عين فطر وتسمى مدينة فطر

قال أبو القاسم الزبائي : أن امرأة صنهاجة ضم الذين أسسوا هذه المدينة لما استقر البربر بالمغرب (16) ونقل الكائوتي عن الحسن بن الوزان أن هذه المدينة بناها الإفارقة الاقنقون (17) . وذكر ابن قنفذ ، أن معنى هذا الاسم « تيط بن فطر » عين باردة (18) وذكر ابن عبد العظيم أن سبب تسميتها بعين فطر أن اسماعيل وأخوته كانوا يقطرون عتقا من طعام الكون ، ويشربون من مائها في وسط البحر (19) . والكلام ابن قنفذ في اللهجة الشلحية فيقال في هذه اللهجة للشيء إذا كان قريبا من البرودة : « افطر » .

ويقال للماء : « فظون وميان » بصيغة الجمع . واللفظ مأخوذ من اللغة العربية من فطر الماء : إذا سكنت حدة حرارته غير أنه حرف في اللهجة الشلحية فينطقوه وكثيوة بحرف الطاء ، وأورد صاحب التشويق في

(6) بهجة الناظرين ص 63 - 64 .

(7) بهجة الناظرين ص 63 .

(8) أسقى وما إليه ص 44 . لمحمد الكائوتي طبع مصر

(9) الترجمانة الكبرى ص 78 . لأبي القاسم الزبائي نشر وزارة الأبناء

(10) النسي الفقير وعن الفقير ص 71 لأبي العباس أحمد الشيرازي فند القسطنطيني منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي

(11) بهجة الناظرين ص 65

(12) التشوف ص 192

(13) بهجة الناظرين ص 66 - 70

ابتداء أمره : كان أبو عبد الله قد تربى في أنجبائ والده فورث عنه العلم والصلاح وبعد وفاة والده أخذ أمره يظهر . وشروع في نشر العلم والدين وتلقين مبادئ السلوك وتربية النفوس فكان عنده طلبة وغريبتون فكان في وقته رئيس الطائفة الصنهاجية . وقد ذكر ابن قنفذ أنه حضر في مواطن عدة في مجامع الطوائف التي وجدها بالمغرب أيام توليته القضاء . بذلك ذكر عن يمين هذه الطوائف الطائفة الصنهاجية (14) . وقد ركن أبو عبد الله أمغار تربيته على اتباع الميثة وبلازمة العيش الحلال والمجاهدة . فقد قال ولده أبو عبد الخالق لآخوته : أتدرون بنا زاد والدكم على صلحاء المغرب ؟ قالوا لا . فقال ما فاتهم بكثرة الصلاة ولا بكثرة الصيام ، وإنما فاتهم باتباع سنة جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا صلى العتبة لم يتحدث إلى أحد ، للنهي الواردة في ذلك ، فكان إذا لم يجد طعاما نام ولم يكلم أحدا (15) . وحكى عنه بعض طلبته أنه كان يقرأ عنده القراءان وإعراجه مع الموطأ والمدونة ، قال قدحاني يوما إلى نذره فتأولني طلبا من قمح فطلبت من بعض النساء الصالحات أن تعدل عنه قرصا في كل يوم ، فكنت أضوم وأظفر على ذلك القرص مدة شهرين وأشرب من ماء البحر فأجد له لذة حتى إذا انقضى ذلك الدقيق فقدت لذة ماء البحر فكنت أجده ملحا أجابا ، فعلمني الله أن ذلك من أكل الحلال (16) .

كراماته : اعتقد الناس أن عبد الله اعتقادا كبيرا وراوا له فضلا عظيما ، وسجلوا له كرامات لا تدخل تحت المحسر وهي لا تخاف من المبالاة في بعضها لأن الإحقاد الأعزاز والعوام الجيلة والقناصة المسترزقين من عاداتهم الزيادة في الأخبار وحشوها بمناجس كاذبة تستجلب النفوس وتخدر الأرواح ولكن الرجل مع هذا كله كان من أهل المقافات العليا ، فقد تواتر عن هذا الصالح أنه كان صاحب الدعوى يستشفى به من الأمراض ويستشفى به من الظلمة ويستجج به في الجومات ويستنجد به في الخروب والملايات ويستشار في الأعضاء ، نقل ابن عبد العظيم عن صاحب أنس

العازفين أن أمين المسلمين علي بن يوسف كان لا يأخذ في عمل مهم حتى يستشير أهل الفضل والدين . فلما عزم علي إتمام بناء شعور مراكش بعد شروع والده فيه سنة خمس وسبعين وأربع مائة أشار عليه بعض الناس بأن البناء نسياتي على ما في بيت منال المسلمين من المال . ثم لا يتقضي ، فاستقدم لهذا الغرض الوليد بن رشد من قرطبة فأقره على عزمه في المشروع في البناء فصرحا له بعدم الفائدة في السكنى بالمدينة من غير شور ، فتردد الأمير في التفتيش فأشار عليه ابن رشد بالكتابة لابن عبد الله أمغار يستأذنه في البناء ويستأمن منه الدعاء بالتوفيق ، ويطلب منه أن يبعث له يساعدا رمزية من مال الحلال الخالص ، فيبذل له وأوصاه أن يجعله في صندوق الاتفاق على البناء ، ويتولى ذلك رجل من أهل الفضل . فعول بوعيته فأعانه الله على إتمامه (17) .

وفاته : لم تذكر المراجع القليلة التي يمين أيدينا سنة وفاة هذا الفصيح الكبير ولكنها اتفقت على أنه ترك سبعة أولاد بلغوا كلهم مرتبة الندلية فأصلحوا على أيهم « أبو البلاء » وهم كما ذكر : أبو سعيد عبد الخالق ، أبو يعقوب يوسف ، أبو محمد عبد السلام العابد أبو الحسن عبد الحى ، أبو محمد عبد الخور ، أبو محمد عبد الله ، أبو عمر عيسى . عن هؤلاء الرجال يتكون البيت الأمغاري الذي قال فيه ابن قنفذ « وهذا البيت أكبر بيت في المغرب فني الصلاح لأنهم يتوارثونه كما يتوارث الناس المال » . قال وقد رايت بلدتهم ورايت أبناء بني أمغار نفع الله بهم وبأسلافهم (18) ، وقد نفع الله بهم وبأسلافهم ، فقد اتشعروا في المغرب وأزل أحفادهم مراكش وضواحيها وعاسفي وفاس وغيرها . ومن أحفادهم البارزين أبو عبد الله أمغار قطب دهره شيخ القطب ابن عبد الله سيدي أحمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل المخبرات وهو من أهل القرن التاسع مذكور مع أحفاده بعين فطر ، ذكره غير واحد من أصحاب المخالفين والتراجم . وهو جدير بترجمة غيانية تخصص له أن شاء الله تعالى ومن أحفاد هذه الأسرة البارزين أبو

(14) أنس الفقير ص 64 - 71

(15) التشويش ص 701

(16) بهجة الناطرين ص 119

(17) بهجة السافرين ص 30-31

(18) أنس الفقير ص 23

مرتبههم البدي هو مائة دينار من الذهب العين المنعم به عليهم من الجانب المولى المتوسفي العبد الحق . وان جميع من ورد رباط سلفهم المذكور من عمال متناهية وجباة خراجها يدفع لهم ذلك ويجريهم على عوائدهم في القمح (21) وفي خارج رباطهم المذكور وداخله . وفي عهد امير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني سليل الدولة العلوية وباني نهضة الامة المغربية ومجدد عمرانها اخذت حركة العمران تنتشر في هذه القرية في الآونة الاخيرة بفضل اهل هذا البيت المبارك حيث يقصدنا الناس من جميع جهات المملكة بقصد التبرك بهم . ويعتبر جدهم السنوسي يعتبر في السنوات الاخيرة من العوامل الكبيرة التي تجلب الناس لتعمير هذه القرية . ولا يستبعد ان يكون لها شأن اكبر في المستقبل القريب بسبب الازدهار الفلاحي والصناعي وتزايد النشاط التجاري والسياحي بمدينة الجديدة المجاورة لهذه القرية والمراكز التابعة لها في اقليم دكالة.

احمد القدوي

عبد الله محمد بن عبد الله الشريف المدفون خارج باب الفتوح بفاس ، ترجم له صاحب السلوة وذكر انه كان من اصحاب الشيخ القطب ابي العباس احمد بن يوسف الراشدي الملباني احد كبار اصحاب الشيخ ذروق رضي الله عنهم (19) وقد احاط الملوك والامراء والولاة في كل عصر اهل هذا البيت بالرعاية ووصولهم بالعطايا السخية والهدايا السنوية واجبروا لهم الجزايات الثلاثة الثابتة . وتركوا لهم النظر في الشؤون الدينية . ونسب فقرات من وثيقة غدليلة طويلة يرجع تاريخها الى سنة 696 خاطب عليها عدد من قضاة عصرها والذين جاؤوا من بعدهم الى حدود النصف الاول من القرن التاسع ، بهذه الوثيقة اوردوا ابن عبد العظيم الزموري في بيئته : (20) . كما ورد فيها : « لم يزل الملوك ... يرعون جانبهم بالاحترام الجليل ويفتحون مصالح دعائهم مختلق الامور العظام . ويستنجون بهم عند الخلافة ويخصونهم حين سواعم في رباط عينهم المذكورة بالخطب الشريفة الدينية التي في القضاء والعدل والخطبة والامامة ... ياخذون في كل عام من مال المخزن المستفاد جمعه من مال متناهية على الوجه المرسوم شرعا

(19) السلوة ج 2 ص 219

(20) بهجة الناظرين ص 4 - 20

(21) موضوع مشهور قرب عين القطر بنا حول باليسكان الى الان .

المصادر المشار اليها في الارقام اعلاه هي :

سلوة الانقاس ومحادثة الاكياس بقلم اخبر بمدينة فاس باحمد بن جعفر الكشالي ، بهجة الناظرين لمحمد بن عبد العظيم الزموري مخطوطة الخزنة العامة رقم 1343 ، التصوف الى رجال التصوف لامين الزيات الناقل : مطبوعات معهد الابحاث العليا المغربية ،

اسقى وبنا اليه : لخميد الكانولي طبع مصر .

الترجمة الكبرى لابي القاسم الزياتي : نشر وزارة الانباء

انس الفقير وعن الحقير لابي العباس احمد بن محمد بن جعفر القسطنطيني منشورات المركز

العامي للبحث العلمي .

صراع المذهب والعقيدة في القرآن (*)

● تأليف الاستاذ عبد الكريم غلاب ● مراجعة الدكتور الكك

عن المجتمع الذي قامت فيه الدعوة القرآنية . ولأنه
أحد أنتاج ثلاثة - صارت على عهد الدعوة المحمدية
صم : المؤمنون ، المنافقون ، الكافرون .

ويمكن ان يستنتج عن ذلك ان كلمة العقيدة
تصرف الدهن الى فئة المؤمنين ، وكلمة المذهب
تنتقل به الى فئتي : المنافقين والكافرين .

اما الكتاب فهو محاولة لداسة القرآن دراسة
أدبية ، او قل هو من قبيل التفسير الادبي لبعض
مناحي القرآن . وهذا لون من التفسير دعا اليه المرحوم
أمين الخولي بقوله : «هو النظر في القرآن من حيث
هو كتاب الغريبة وارتعا الادبي الاعظم» .

بيد ان التفسير الذي خاض غماره الاستاذ غلاب
هو ، في واقع الامر ، دراسة ادبية تناول فيها «تكوين
القرآن لبعض النماذج البشرية وتحليله لتفسيات
شخصيات كونه مجتمعاً فكرياً» . وقد تناول المؤلف
ثلاثة من تلك النماذج هي : المؤمنون ، المنافقون ،
الكافرون .

هذا الكتاب يقع في اربعمائة وثلاثين صفحة من
القطع الوزيري ، وضعه الاستاذ عبد الكريم غلاب
وتشرفه دار الكتاب اللبناني ببيروت : الا ان مؤلفه
لم يوزع موضوعاته على فصول وفق النهج المألوف ،
بل رسم معالنه بعنوانين ثلاثة جامعة هي : المؤمنون
المنافقون - الكافرون ، سبقها ما يمكن ان نسميه
تمهيدا يشمل مقدمة وموضوعين ، احدهما : القرآن
والانسان ، والاخر : الاطار القرآني لكلمة الايمان .

ولا بد لنا بادىء ذي بدء من توضيح امر يتعلق
باسم الكتاب ومضمونه ، اذ ليس في مقدمة الكتاب
ولا في طياته ما يبين المقصود بعنوانه . فاذا كانت
كلمة «العقيدة» تفهم فهنا عاما من السياق : فماذا اراد
المؤلف ، هنا ، بكلمة «المذهب» الموضوعه بارائها ،
في عنوان هو : «صراع المذهب والعقيدة في القرآن»
لينطج معنى الصراع بينهما لا ولولا الجملة الاخيرة
من الكتاب ، لفرغ القارىء من قراءته دون ان يلسم
بالمراد . يقول الكاتب : «هذا هو المضمير الذي يلقاه
الكافرون ، وهو نهاية المصودة الواضحة عن هذا
النموذج البشري الذي غنى القرآن بتفسيره لانه جزء

وثيقة صور أخرى كثيرة ، ولا عجب ، فالإيمان
ينطوي على مسؤولية مطلقة بالمحسوسات والقياسات ،
وما يقال في المؤمن يقال في عكسه من المبتاقي إلى
الكافر إلى سواهما .

وحيثما لو قرن المؤلف التي براعة الخواص
والحالات والحركات المختلفة للنماذج التي عرضها
مزينا من التحليل لها ، يرسم ظل الصورة ، واستيفاء
التصوير لحواشيها ، وبسط ذلك كله بسطاً كافياً ،
مستعيناً بما استجد من علوم وأساليب تساعد على
تخطيط معالم النفسية الإنسانية .

ولكن حاولت أن اعثر في كلامه على إشارة إلى
المحاولة الأولى - أن لم أكن مخطئاً في تقديرى -
نطرح مسألة النماذج الإنسانية في القرآن في آثار
سيد القطب . وخافه في كتابه «التصوير الفني في القرآن»
وهي دراسة أدبية للقرآن المت بنماذج خالدة منه .
ويبدو أن الأستاذ غلاب لم يشأ أن يقول على أي من
الكتب التي سبقت كتابه أو المعاجم التي تناولت
تحديد المفاهيم والمعاني التي قام عليها ركن من كتابه .

يبقى أن الكتاب محاولة رائدة تشق الطريق
لمزيد من الدراسات القرآنية الأدبية في وجوهها
المشروعة ، فقد كشف الأستاذ غلاب ، من خلال
دراسته النماذج البشرية في القرآن ، عن الوضع
الفكري والنفسي في مجتمع مكة والمدينة . وهذا
قطاع من الحياة لا تنفذ إليه الدراسات التاريخية
والدينية الاتباعية ، لأن الأدب وحده قادر على الفوص
إلى أغوار النفسية الإنسانية واستخراج ما كمن فيها
من صراع الأخلاقي والإفكار .

من هنا يأخذ كتاب الأستاذ غلاب «صراع المذهب
والعقيدة في القرآن» مكانه البين في مكتبة الدراسات
القرآنية ، فهو خطوة كان لا بد أن يخطوها باحث
حديث بعقلانية واعية وإيمان حي .

بيروت : الجامعة اللبنانية - د . فكتور الكيت

وعليه لو استخرج المؤلف عنوان كتابه عن
صميم موضوعه لكان اسمه «بين وبالجراد أوفى كأن
يسميه : «النماذج البشرية في القرآن» أو ما شابه ذلك .

لقد حلل القرآن نفسية النماذج البشرية الثلاثة
وغيرها تحليلاً دقيقاً ، وصور مواقفهم المختلفة من
الدعوة الجديدة ، تصويراً رائعاً ، ورسم لفكرهم
وعاطفتهم فحسب تطويراً بيناً ، وكان - إلى ذلك - كما
يقول المؤلف : «شهادة على الذين وقفوا مع الدعوة
والذين وقفوا ضدها ، شهادة توجيهية وإرشادية ومحاكمة
ومناقشة وتبكيك ووعد ووعيد» .

لكن القرآن ليس كتاب أدب في الجوهر ، إنه
كتاب رسالة «يهدف إلى تقديم خلق معين له اثره في
الدعوة الإسلامية» . ألا أنه بلغ رسالته بأرقى الأساليب
الفنية التي تليق بالدعوة وتشرح أسرار العرب أرباب
الفصاحة والفن .

ولقد برع المؤلف في استخراج معاني الإيمان
والنفاق والكفر من القرآن ، كما برع في استخراج
نموذج لكل من هذه المعاني ، وحسبنا أن تشير إلى
نموذج المؤمن الذي استخرج جوانبه من سور شتى ،
ومن صور مختلفة ، ونحن موافق كثيرة :

- عنها الصورة الظاهرة التي تعتمد على الممارسة
للحياة التي تليق بمؤمن .

- وبصورة يفرق فيها القرآن بين أنواع من
الإنسان أو بين أنواع من المؤمنين .

- وبصورة تالفة لتحديد صفات المؤمن تأتي عن
طريق الصورة المعاكسة .

- وبصورة أخرى من المؤمن وهي التفكير والتدبر
في ملكوت الله .

- وبصورة أخرى متعددة رائعة للمؤمن ترمز
بسلوكه الذاتي وخلق الواضح بنفسيته البطيئة ،
فتقدم نموذجاً رائعاً للإنسان في نسبته وخلقته وطبسه
وسلوكة .

الأربع سبل الجري

المجلد

عصره * حياته * شعره



للاستاذ الدكتور عباس الجري • تقديم ولحنيس محمد العلمي حمدان •

الذي تناولته بالحديث ، والقسم الثاني تحقيق
للديوان الذي وعد بنشره فيما بعد .

والبحث الذي بين أيدينا : تجربة حاولت -
يقول الأستاذ الجري - أن أقدم فيها تحليلاً جديداً
لعصر الموحدين من حيث سياسته ومذهبيته ، وأن
أعرض الحياة الفكرية والأدبية ، وأن أطرح أدباء هذا
العصر من خلال تصنيف نابغ عن مختلف التيارات
والاتجاهات التي كان يسير فيها أولئك الأدباء .

ويبدو أن تحدث عن الصعوبات التي صادفته
بسبب قلة ما وصلنا عن الشاعر ، تطرق للحديث عما
قام به من فحص وتحليل ، وقد لما وصل من أخباره ،
حاول عن طريقها النفاذ إلى أغاني الشاعر فستبيننا
بعده مدارس ومناهج نفسية واجتماعية وتاريخية
بحسب الحاجة ، وقد لجأ إلى شعر الشاعر يستنطقه
فوجهه كما يقول : « صورة لنفسية قد انعكست عليها
بعض ملامح عصره ومجتمعه » .

كما حاول بدراسة لخاصين هذا الشعر وخصائصه
كما يذكر أن يبقى ما ونم به ادب العصر الموحدي
من تيمة الانحطاط والمذهبية (النظر المقدمة) وقد قسم
الأستاذ الجري بحثه القيم بعد هذه المقدمة إلى
بابين يشتمل كل باب على فصلين . الباب الأول تحت
عنوان : عصر أبي الربيع ويدخل ضمنه الفصل الأول
بعنوان : ثورة ساسية ومذهبية ، والفصل الثاني

من خنصورات دار الثقافة بالدار البيضاء صدرت
هذه السعة الدراسة القيمة التي كان الدكتور عباس
الجري قد تقدم بها للحصول على درجة الماجستير
من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، أمام لجنة مكونة من
الدكتور عبدالعزیز الامواني مشرفاً وعضوية الدكتورين
شوقي سيف وروفا خليفة .

ونظراً لما لهذه الدراسة من أهمية في الميدان
التاريخي والأدبي والفكري للمغرب بسبب ما ضمنها
الأستاذ الجري من آراء وما خلّجه من أفكار وإثارة
من قضايا واستخلاص من نتائج .

وبصفاتها نموذجاً فوقاً للدراسات الجامعية سواء
في المنهجية المختارة إطاراً للبحث أو المضمون
الأصيل الذي يهدف إلى خدمة الثقافة القومية .

لكل هذه الأسباب آثرت تقديمها لقراءة المجلة
أثارة لفضولهم في مطالعتها والاستفادة من غني
محتواها .

لقد صدر الأستاذ الجري رسالته بمقدمة
تحدث فيها عن تاريخ مناقشته لهذه الرسالة صباح
يوم السبت ستابع مايو 1965 بعنوان : ديوان الأبر
الشاعر أبي الربيع سليمان الموحدي ، وقد قسم
رسائلته إلى قسمين : القسم الأول تناول فيه بالدراسة
عصر أبي الربيع وحياته وشعره ، وهو موضوع الكتاب

بم عنوان بهذه فكرية وأدبية . والباب الثاني تحت عنوان : حياته . وشعره . تناول حياة الشاعر في الفصل الأول وشعره في الفصل الثاني . ونسهي اندواسية بعصفحة 299 تتلوها الفهارس تباعه ابتداء عن فهرس المصادر والمراجع الذي ضم 147 مصدر ومرجع . وفهرس الاعلام وفهرس الاماكن . وفهرس الكتب . ثم تصوير للاخطاء الواردة في الكتاب وقد ضمنها كراس اثنائي مستقل في نهايته فهرس للموضوعات . والكتاب بفهارسه يضم بين دفتيه ثلاثمائة صفحة من الحجم المتوسط.

الفصل الاول من الباب الاول : وهو تحت عنوان :

ثورة سياسية ومذهبية . وقد سبق للمذكور الجرازي ان يشر هذا الفصل منفردا في العدد الاول من مجلة المناهل . وقد جاء فيه : « لكل ثورة ازعاجات تمهد السبل لظهورها ومقدمات تهيء النفوس لقبول مبادئها واعداؤها . وازعاجات الثورة الموحدية ومقدماتها كالممة في الانحلال الذي اصحاب دولة المرابطين في عتقوان شباياها ص 11 .

بعد ما تحدث عن اسباب هذا الانهيار فاجتمعت في كثرة حروب المرابطين بالاندلس . وضعف شخصية علي بن يوسف بن تاشفين . وفي سيطرة الفناء اصحاب الصالح والامبالاات . وحيثما في ظهور الموحدين في 11 - 14 .

وعلى خلاف ما يراه بعض الباحثين : من ان الحركة الموحدية بدأت درتبة لا تطمع في شبيهة ومن ان المهدي لم يكن يهمل ملك ولا دنيا ومن انه كان صاحب فكرة اصلاحية 18 .

يرى الاستاذ الجرازي ان الحركة الموحدية بدأت اخيه ما تكون بالحزب السياسي والتنظيم الثوري الذي يدفعه الطمع في السيطرة والحكم الى التهمة على الاوضاع والتخطيط لمحاربتها وتثوبضا .

وهذا في راية بما يوضح لجوه الى البربرية كوسيلة للاتصال بالجاهلير . وفي اعتقاده الاقتناع بشريعته على مبادئ الشيعة مستقلا حب المغاربة لآل البيت 20 . ودعوته في الدعوة الى خيل الشعوذة والتدجيل والى اتباع اصايب القسوة والعنف 20 .

فما هو التيار المذهبي الذي سنلك المهدي في ثورته ضد المرابطين ؟

للجواب عن هذا السؤال ينظر الاستاذ الجرازي الى ان يقوم بخولة طويلة يتحدث فيها عن دخول الاسلام الى المغرب والمراحل التي قطعها والاستجاب التي سجلت تغلفه في النفوس التي من امهها يسر مبادئه وسموها وعقل القائلين على شؤونه . وعن اثر الجواز الى الاندلس في توسيعه وتجدد عن مختلف المذاهب الاسلامية التي تسربت الى المغرب وتركزت بصداها على ذهنيات اهلها من خوارج وشيعة وامامية واسباب ذلك ووسائله .

ثم يتطرق للحديث عن انتقال المذهب المالكي في عهد الادوية الى المغرب ليصل الى ان التباير عم في عهد المرابطين على يد داعيتهم عبد الله بن ياسين . وظل الامر كذلك الى ان ظهر ابن تومرت يدعو لمذهبه 31 .

ومذهب ابن تومرت يقول الدكتور الجرازي مزيج من الاشعرية ومبادئ الشيعة الامامية . فهو يعتقد في العصبة الامامية . ويتصور للعقائد السلفية والدفاع عنها بالحجج العقلية ويحلل فكرة تزيه الله وابعاد اية شبهة عن ذاته بوحى بالتشبيه ويدعو الى تاويل المتشابهة من الآيات والاحاديث حتى لا يقع في التجسيم الخبيث يرمي به المرابطين 33 .

وبعد ان يتلفس فقط الاختلاف والاتفاق بين مذهب المهدي ومذاهب المذاهب وآراء المؤرخين والباحثين ينتهي الى ان مذهب المهدي دعوة للاجتهاد الرجوع الى الكتاب والسنة واجماع الصحابة والاعتماد على علمي الكلام والاصول . الامر الذي وفق بين آراء الفقهاء والبتكلمين ودفع فقهاء المالكية الى التدخل عن كثير من التعصب الذي عرفوا به في عهد المرابطين 35 .

كما يتحدث عن الخطوات التي قطعها المهدي في سبيل دعوة من امر بالتمعرف ونبي عن الخنكر وعلم مبادئ المذاهب . وما تعرض له بعد المناظرة عن نفق وتشويه قام ابره بنشاطه العلمي والاداري ثم العكرى الى ان مات 38 - 40 .

واذا كان عبد المؤمن قد سار في نفس الخط الذي رسمه المهدي للموحدين . وحافظ على المذهب الذي كان هو احد اعمدته الذين قام بناؤه عليه . فان الايمان بمذهب المهدي يقول الاستاذ الجرازي بنسأ يتزعزع مع تولي يعقوب المنصور حين منع المتابعين عن الخوض في علم الاصول والكلام والفني كتاب المهدي

بتأليف جمع فيه من كتب الصنّاج ما يتعلق بأصناف الدين لجو مغرب مالك من المغرب ، أشيء الذي يرى فيه الأستاذ الجزائري عجزا لمذهب المهدى وإزالته يؤيده أن يعقوب لم يكن يوم من عصمة المهدى ويستخف بعقول المؤمنين بها ص 41 .

رغم الودة تحولت في عهد الماهون إلى مذهب المهدى على غناير الميساجد وثبت مذهب 42 ، وتحفظ يستنتج الأستاذ الجزائري عن دعوة الموحدين للكتاب والسنة والاعراض عن الرأي والقياس ، ميلهم إلى المذهب الظاهري 43 ، وهذا التحفظ يأتي من أن ابن حزم لا يقول بالعصمة التي يدعيها الموحدون ، وهذا في رأيه هو الذي جعل المنصور لا يعلن ظاهريته إلا بعد أن أعلن إنكاره لعصمة المهدى وإمامته 44 مما يؤكد في رأي الأستاذ الجزائري دخول الدعوة الموحدية في نطاق مذهب ابن حزم ، يتفق في ذلك مع عدد من الباحثين 45 ومنها إلى أن الفقه المالكى اتبع له بالأحيكاك المذهبي في عهد الموحدين أن يخرج قليلا عن قواعده والتزامه المثالي الجاهد 47 .

وبعد أن يناقش فكرة المهدية التي كان المهديون يتخذون المغرب عيالا لها ينتهي إلى أن المغرب لم يعد بعد هذا العصر عيالا لترويج البضاعة المزيقة الواقعة عليه وأنه قد استقر ثباتا على فقه الإمام مالك مذهب المهدى به في مختلف نواحي الحياة تشريعا وقضاء وتديرا وتأييدا 56 .

الفصل الثاني من الباب الأول وهي تحت عنوان نهضة فكرية وأدبية .

لجاء الموحدين إلى البربرية بالدرجة الأولى وسيلة لمخاطبة الجماهير والتدريس والتأليف والرسالة ظاهرة أثارت الاعتماد ، وإذا كان الأمر بالنسبة للمهدى له ما يبرره شيئا 55 فما الداعي إلى استمرار عبد المؤمن في استعمال البربرية إلى جانب المغربية ، وقد استقرت الأحوال واتسعت رقعة الدولة ؟

لا يرى الأستاذ الجزائري ما يدعو إلى التناقض في شأن هذه الإزدواجية ويرجعها إلى الدوافع التالية :

الرغبة في إبعاد العرب عن مجال الزعامة الدينية والقيادة الفكرية 54 .

استحالة الأغنياء على غير الزبير في نشر المذهب .

افتتاح البربر بأنهم وخدمهم أهل التوحيد والحق وأن غيرهم مجسم وعقيدون .

الخطار عبد المؤمن إلى اتباع نفس سياسة المهدى الذي اتهم العنصر البربري حتى أصبح الاستغناء عنه عملية خطيرة 55 .

الحفاظ على سياسة المهدى وذكره وتقديره لعمله وجهاده وإيمانه بمذهبه 56 ، كما يحضر نظاما في المجال الديني ، لأن العربية كانت قد انتشرت بانتشار الدين عند الفتح الإسلامي .

وفي تسجيل تاريخي عن تعريب المغرب تحدث عن بعض الباحثين كجسان وموسى بن نصير والإدارسة ونوفد العربية ، وما صاحب ذلك من فتح الكتابات والرباطات على يد المرابطين بفضل الوحدة بين المغرب والاندلس حتى عثر الموحدين حيث نتجحت عن تأثير عجميات بني هلال وسلمهم إلى المغرب في نشر اللغة العربية أيام يعقوب المنصور 58 .

أما وقد تبار الموحدين على مظاهر الضعف والانحلال التي أصابت دولة المرابطين ، فقد أصبح طبيعيا أن يطلقوا الفكر من قيود الفقهاء المتعصبين . وقد تجلى ذلك كما يرى الأستاذ الجزائري في مختلف ألوان العلوم والفنون التي عرفها هذا العصر 58 .

وتجلى التحرر الفكري عند الموحدين أيضا في انتشار علوم الفلسفة وازدهار دراستها خاصة أيام يوسف بن عبد المؤمن الذي قرب إليه من الفلسفة أبو الحسن علي بن الطليل صاحب قصة الفلسفة حتى بين يفتان وابن رشد شارح أرسطو 62 وفي استجلاء العلماء لخصور مجالس الخلفاء الموحدين لمناقشة مختلف المسائل العلمية وتشجيعهم بالصلوات على البحث والتأليف 63 .

وهكذا يقول الأستاذ الجزائري : نهضت الدولة الموحدية بالفكر المغربي وحررتة من التعصب والتقليد والقيود التي كلفتها من الانطلاق والتجديد 66 ، كما انعكس في مختلف فروع العلم عن فلسفة وتصرف وأصول وكلام وتفسير وقراءات وحديث وفقه ولغة ونحو وعروض وحساب وهندسة وتنجيم ومن طب وجغرافيا وتاريخ . المتمثلة في عشرات الأسماء والكتب والآثار الباقية والمنسوبة 66 - 88 .

كما يستغل الأستاذ الجزائري غناية الموحدين بالأدب ورجاله في الصلوات التي كانوا يقدمونها للأدباء

هما كان ينشط حركته ويدفع بأصابعه نحو الإجابة والابتداع 88 . كما ذكر ببعض المناسبات التي سجلت فيها زواجر الفوائد على ظهر جبل الفتح احتفالا ببيعة أهل الأندلس ، وبعد غزوة الأرك في السندوة التي أقامها المنصور لتبنيته ومسيرها إلى ما يبرز إحساس هؤلاء الخلفاء بالفن وتفهم الشعر وتذوقه (9) حتى نسب إلى بعضهم مشاركات يسجلها الأستاذ الجراي في تحفته 91 - 98 .

ورغم ذلك فهي عنده تدل على ميل هؤلاء الخلفاء إلى تذوق الأدب وتعاطيه والتهوؤ به ، مما نتج عنه وجود عدة دواوين وتآليف ضاع كثير منها 98 ، فمن أصحاب الدواوين الخليفة عمر المورقسي والأمير أبو الربيع سليمان وابن جونس والجراي وميمون بن خبازة وغيرهم ، ومن الكتب : المطرب لابن دحية ، وصفوة الأدب ، للجراي واختصار الأغاني لأبي الربيع سليمان 98 - 99 . ولما أن دراسة الأستاذ الجراي محدودة في الموضوع ، فقد اقتصر في الحديث على من تبلورت في شعرهم مواقف واضحة واتجاهات متميزة 100 ليتخذ شعرهم منطلقا لدراسة ما إذا كان أدب الموحدين فعلا مجرد أدب ديني مذهبي متأثر بالدعوة الموحدية لا مجال فيه للخمريات والتغزل والذاتية ، وإلى أي حد هو مجرد أدب بسيط لا أثر فيه للضعة والزخرف ، وهو ما لا يراه الأستاذ الجراي ويعتبره تعسفا في الحكم على هذا الأدب من خلال ما سيأتي من حديث 100 .

وفي سبيل ذلك يقسم اتجاهات الشعر الموحدي إلى خمسة أقسام متميزة نجملها فيما يلي :

— شعراء ذاتيون وهم نوعان ، نوع ينتمي إلى عصر المرابطين ومن شعرائه القاضي عياض 100 - 110

ونوع يخرج بين هذا الاتجاه والاتجاه الرسمي أمثال أبي حفص عمر الأغماني ، وشاعرنا موضوع الدراسة أبو الربيع سليمان ، وهم جميعا يثلب على شعرهم الغزل والوصف مع وضوح الضعة في أسلوبهم الذي يعتمد المحسنات البديعية ، وقد أورد لكل صنف من هؤلاء مجموعة من الأبيات والمقطوعات تمثل اتجاههم المذكور ص 110 - 115 .

— شعراء مخضرمون ساروا في تيار الموحدين المذهبي ، ويعد ابن حبوس في طليعتهم ، فقد كان متصلا بالمرابطين قبل أن يجرهم إلى الموحدين ، وقد أورد له عدة أبيات ومقطوعات 102 - 105 .

— شعراء راضيون ملتزمون وهم صنفان ، صنف عاش أيام عز الدولة واستقرارها ، فكان لسان حال الدولة والمعبور عن مواقفها والمدافع عن كيانها ويمثلهم أبو العباس الجراي 106 - 110 وصنف آخر عاش أيام اضطراب الدولة بدءا من المامون ، فاتجه إلى الذات وإلى مجال الدين يدفن نفسه فيه ، وأبرز شعرائهم ميمون بن خبازة وقد أورد له بعض المقطعات والأبيات تمثل هذا الاتجاه بنوعيه 115 - 118 .

ويختتم هذا الفصل بكلمة عن النشر الذي لاحظ أنه كان متنوعا في هذا العهد فشمّل الخطابة والمناظرة والتأليف والرسائل ، وبعد أن تحدث عن أسلوب هذا العهد المتميز بالوضوح والجزالة والسجع ، قدم نموذجا للمنهج الذي تتبعه الرسائل الرسمية في عصر الموحدين .

فأس : محمد العلمي حمدان

فهرس العدد الخامس

صفحة	
1	نص الكلمة التي القاها وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية السيد الداي ولد سيدي بابا بمسجد السنة بالرباط بمناسبة الاحتفال بذكرى حلول السنة الهجرية الجديدة (1396)

دراسات اسلامية :

6	اغلاط. اقرب الموازن في بعض آيات الشواهد
13	بحث في القراءات القرآنية التي تحدث عنها الزمخشري في تفسيره ((الكشاف))
17	موقف الاسلام من العلم والفلسفة
24	صورة العالم الاسلامي في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري
29	الدكتور عبد الجليل العمري وتحديد النسل
32	الزهد في المفهوم الاسلامي
36	مبادئ مصرية : فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني
42	كتاب الاربعين المشتمل على ((ثلاثيات)) الامام البخاري
44	الاسباب التي دعت الى علم الجرح والتعديل
48	على ضوء افادات بعض الجغرافيين المسلمين : بخاري في خلال القرون الثلاثة السابقة للغزو التركي
55	كتابات على قبر البخاري

ابحاث ودراسات :

58	معاني النخب وعقدية العيار
76	راي طه حسين في الشعر الجاهلي
84	الوجاهات

دراسات مصرية :

90	المسجد منبر الدعوة ومبنى للعلم : مساجد المغرب في روعتها المعمارية
108	محمد السالح في منهجية تدريسه الحديث ومن خلال اوضاعه المتغيرة
115	عصمر ابن الخطيب
122	ابو عبد الله افغان

معرض الكتب :

126	ضراع الفقه والعقيدة في القرآن
128	الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي - (عصره حياته ، شعره)
	تأليف الاستاذ عبد الكريم غلاب
	مراجعة الدكتور الكوك
	للاستاذ الدكتور عباس الجراري
	تقديم ولخص الاستاذ محمد العلمي جمدان

دعوة الحق

مجلة شهرية
تُعنى بالدراسات الإسلامية
والمشؤون الثقافية والفكرية

تصدرها
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف
بالمملكة العربية السعودية

العدد الخامس - السنة السابعة عشرة
محرم 1396 - يناير 1976

ثمن العدد:
3 دراهم

مجلة تصدرها
وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية

دعوة الحق

العدد الخامس
السنة السابعة عشرة
محرم 1396
يناير 1976
ثمن العدد : 3 دراهم

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :

مجلة « دعوة الحق » - قسم التحرير - وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية ، الرباط - المغرب - الهاتف 308-10
الاشتراك العادي عن سنة 30 درهما ، والشرفي 100 درهم .
فاكس .

السنة عشرة أعداد . لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :

مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 55 - 485 - الرباط
Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

أو تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :

مجلة « دعوة الحق » - قسم التوزيع - وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية . الرباط - المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية
والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الإعلانات الثقافية .

في كل ما يتعلق بالإعلان يكتب إلى :

« دعوة الحق » - قسم التوزيع - وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية - الرباط تليفون 308-10 - 327-03